© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشارا التحرير: فيصل دراج، الياس خوري

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات
ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٢١» خريف ٢٠١٨

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab000000009090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **في الذكرى الرابعة عشرة لرحيل ياسر عرفات نواصل الصمود والمقاومة**

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

١٣ **اتفاقات أوسلو بعد ٢٥ عاماً**

د. ناصر القدوة

١٩ **الصهيونية والدعوة إلى سلام مستحيل**

د. فيصل درّاج

٢٥ **مفهوم التمكين في الشرط الفلسطيني**

د. جميل هلال

٤٧ **ياسر عرفات:**
بنّاء الجسور الذي استعاد الإسم

عزيز العصا

ملف خاص
حول قانون قومية الدولة الاسرائيلي

٦١ **ما بعد قانون القومية الإسرائيلي**

عبد الغني سلامة

٧١ **قانون القومية، الخلفية والابعاد والاسقاطات**

د. هنيدة غانم

٨٥ **قانون القومية أبرتهايد متخلف ولكنه يفتح الفرص**

نظير مجلي

٩٥ **القانون الأساس إسرائيل – الدولة القومية للشعب اليهودي**

عليان الهندي

١٠٥ **غزة وقانون القومية الإسرائيلي: وحدة الصراع واختلاف المصير!**

م. تيسير محيسن

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

أوراق ثقافية

١١٧ **رواية الرواية «أولاد حارتنا» تثير الجدل بعد ستين عاما**
محمود الورداني

١٢٥ **السرد العربي وتَمثُّلات الحداثة حديث في الروح والمعنى والمنهج**
أحمد المديني

١٣٧ **الصورة السردية في «القادم من القيامة» للكاتب وليد الشرفا**
عماد موسى

محمود درويش في السابعة والسبعين

١٤٧ **كأنه كان يركض أمام حياته**
شوقي بزيع

١٥١ **صفحة محمود درويش الأخيرة**
فادي جودة

١٥٧ **محمود درويش في لانهائية القصيدة**
د. حورية الخمليشي

١٧٧ **قصة قصيرة: المرأة التى بكت كثيرا فغرقت**
أميمة عز الدين

١٧٩ **معنى أن تفكر في فلسطين (سرد رحلي)**
عبدالله صديق

أوراق المؤسسة

٢١٢ **تقرير عن عمل مؤسسة ياسر عرفات**

في الذكرى الرابعة عشرة لرحيل ياسر عرفات نواصل الصمود والمقاومة

تحل الذكرى الرابعة عشرة لرحيل الزعيم عرفات القائد الرمز، وما زالت التحديّات ماثلة، وما زال الشعب الفلسطيني قابضا على الجمر، يواصل صموده، وثباته على حقوقه، ويسير بخطى واثقة في دروب الحرية، من أجل بزوغ شعلة فجر الحرية.

ولا شكّ أنّ ما طرأ من مستجدات، وسياسات اليمين الإسرائيلي المتطرف بقيادة نتنياهو، والمتحالف مع المستوطنين، وتغوّله في إجراءات تحاول فرض الأمر الواقع، وسن التشريعات ذات الطابع العنصري، والتي تستهدف الشعب الفلسطيني، وتستهدف حقوقه وهويته وحقه في تقرير المصير، وإقامة دولته، لا شكّ أنّ ما طرأ من مستجدّات شكّل المزيد من العقبات أمام المسيرة الكفاحية للشعب الفلسطيني وقيادته الوطنية.

وممّا دفع اليمين الفاشي الإسرائيلي للمضي قدما نحو العنصرية ونظام الفصل العنصري، وصول الرئيس ترامب الى الحكم، وتبنيه للسياسة الإسرائيلية الرعناء، وهي السياسات التي تتنافى والقانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية، ومن ذلك اعتراف الولايات المتحدة بالقدس عاصمة لدولة اسرائيل، ونقل السفارة الأميركية من تل ابيب الى القدس.

كذلك باطلاقه لما سمّاه صفقة القرن التي لم تعلن نصوصها ولكن الإجراءات التي تلت ذلك من قبل إدارته أفصحت عنها، وتمثّل ذلك باغلاقه لمكتب منظمة التحرير في واشنطن، واعتبار منظمة التحرير منظمة إرهابية، ووقف التمويل عن وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينين(الأونروا)، وعن المستشفيات الفلسطينية في مدينة القدس.

وهذه الإجراءات كان الهدف منها، شطب ملف القدس عن جدول المفاوضات النهائية، واعتبار القدس كأمر واقع عاصمة دولة إسرائيل لا يكون موضوعها قابلا للنقاش متجاوزا بذلك جميع القرارات الدولية التي تعتبر القدس أرضا محتلة تنطبق عليها القرارات ذات الصلة.

ومن جهة أخرى شطب موضوع اللاجئين وحق العودة وتقرير المصير، متجاوزا بذلك القرارات

الدولية ذات الصلة وفي مقدمتها القرار ١٩٤ الذي يؤكّد على حق العودة والتعويض.

ترافق مع هذه التحديات اجراءات عملية من قبل الحكومة الإسرائيلية، تمثّلت في إقرار قانون القومية اليهودية، وقرار هدم وترحيل المواطنين الفلسطينيين من قرية الخان الأحمر.

قانون القومية هذا لم يجد اجماعا في الكنيست فقد نجح التصويت عليه بأغلبية بسيطة (وافق على القانون ٦٢ نائبا من أصل ١٢٠، وعارضه ٥٥ نائبا وامتنع نائبان عن التصويت).

قانون القومية اليهودية قانون عنصري، يحوّل إسرائيل الى دولة ابرتهايد، يكرّس يهودية الدولة، ويمنح اليهود وحدهم حق تقرير المصير، ويمنح حق العودة الى اليهود ويغلق الباب نهائيا عن حق العودة للفلسطنيين الذين طردوا من بلادهم عام ١٩٤٨، ويمس بحقوق المواطنة للفلسطينين العرب داخل إسرائيل وهم أصحاب الأرض الأصليين، ويعتبرهم مقيمين، ويحط من مكانة اللغة العربية، وينزع عن إسرائيل ما ورد في ما سمي "بيان الاستقلال" من انها دولة جميع مواطنيها دون التمييز من عرق اوجنس أو معتقد.

والنضال ضد هذا القانون واسقاطه مستمر.

وفي هذا العدد هناك دراسات وافية عن هذا القانون.

وفيما يتصل بقرار هدم وترحيل سكّان قرية الخان الأحمر ومساحتها ١٦٣٦٠مترامربعا، وتكتسب القرية أهميتها أنها جزء من محافظة القدس الشرقيةالمحتلة عام ١٩٦٧ وأهميتها الاستراتيجية أنها تربط شمال الضفة الغربية مع جنوبها، ومن شأن اخلائها وتمدد الاستيطان اليها أن يتم فصل شمال الضفة عن جنوبها، وعدم قيام دولة فلسطينية مترابطة الأراضي.

وهذه الإجراءات التي يتم تمريرها ما هي الاّ ملامح مما تخبئه خطة الرئيس ترامب لتمرير صفقة القرن الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية وإحداث نكبة لا تقل تراجيديا عن نكبة ١٩٤٨.

لكن ليس كل ما تقرره الإدارة الأميركية قدرا قابلا للتنفيذ، فهناك شعب وقيادة، شعب في الميدان يقاوم مقاومة شعبية باسلة، وهناك قيادة تتوجه الى الأمم المتحدة ومنظماتها والى الرأي العام العالمي، والى الجامعة العربية، ومنظمة التعاون الإسلامي، والى دول عدم الانحياز، ودول أفريقيا وآسيا ومجموعة دول أميركا اللاتينية والبحر الكاريبي، وتقدم شكاوى الى المحاكم الدولية، ومحكمة الجنايات في لاهاي، وتحقق إنجازات ومنها انتخاب دولة فلسطين رئيسا لمجموعة "٧٧+ الصين" في الشهر الماضي ..قيادة رفضت ما يسمى صفقة القرن، وقررت أن لا تتعامل مع الولايات المتحدة كوسيط وحيد لعملية السلام، ورفضت قرارها باعتبار القدس عاصمة لدولة إسرائيل، وأوقفت كل

الاتصالات معها.

خلال المائة عام من وعد بلفور حتى الآن تعرضت القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني الى محاولات ومشاريع تصفية لا تحصى ولا تعد، لكنّ كل هذه المشاريع غير العادلة فشلت، ورفضها الشعب الفلسطيني وقيادته الوطنية، ولقد انتهى الزمن الاستعماري الذي كانت تفرض به الحلول على الشعوب، وحققت حركات التحرر في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية انجاز الحرية والتحرر الوطني بالإرادة والكفاح، وانهار نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، وفشلت إسرائيل في فرض ارادتها على الشعب الفلسطيني أو تدجينه أوإطفاء شعلة الكفاح في روح أجياله، ولن تحظى بسلام وهدوء دون احقاق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في العودة وتقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

في الذكرى الرابعة عشرة لرحيل القائد الرمز ياسر عرفات ما زالت الشعلة متّقدة، والعهد هو العهد، والقسم هو القسم، ودروبنا هي دروب الحرية والتحرر تنيرها شعلة ذلك الفجر العنيد، وليس فينا، وليس منّا من يفرط بذرة تراب من تراب القدس.

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

اتفاقات أوسلو بعد ٢٥ عاماً

د. ناصر القدوة *

كانت الفكرة المركزية في اتفاقات أوسلو أو اتفاق إعلان المبادئ للعام ١٩٩٣ ، وما تلاها من اتفاقيات بين منظمة التحرير الفلسطينية وحكومة إسرائيل هي إقامة ترتيبات حكم ذاتي انتقالي للشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة لمدة خمس سنوات، يتخللها مفاوضات بما لا يتجاوز السنة الثالثة على الوضع النهائي أو الحل الدائم.

لم تكن هذه المرة الأولى التي طرحت فيها هذه الفكرة، حيث ظهرت أولاً في العام ١٩٧٨ باعتبارها الفكرة المركزية لإطار السلام في الشرق الأوسط بين مصر وإسرائيل الذي توصل له أنور السادات ومناحم بيغن برعاية جيمي كارتر في كامب دايفيد بالولايات المتحدة الأميريكية. ومنذ ذلك الوقت مثلت حجر الزاوية والفكرة المركزية لأية سياسات أو مبادرات إسرائيلية أو أميريكية مع بعض الزيادات أو النواقص حسب الظروف السائدة حينها.

عوار الفكرة أنها لا تقر بحقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف بما فيها حق تقرير المصير والاستقلال الوطني، ولا تقر بوجود الاحتلال الإسرائيلي وإنهاء هذا الاحتلال، إضافة إلى ان عدم الاتفاق مقدماً على الشكل النهائي للحل يخضع الأمر برمته لرغبات الطرف الأقوى وهو هنا إسرائيل.

إذا ما وضعنا العوار المشار له أعلاه جانباً، ونظرنا لإطار السلام في الشرق الأوسط، سنجد أن اللغة كانت واضحة تتحدث عن حكم ذاتي كامل للسكان وعن التفاوض على الوضع النهائي للضفة الغربية وقطاع غزة على أساس القرار ٢٤٢ بكل أجزائه. الضعف الأساسي كان في الأمور المتعلقة بالشعب الفلسطيني : الاعتراف ، التمثيل السياسي والمشاركة. كان هناك ذكر للحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومتطلباته العادلة ولكن الاتفاقية (الإطار) ككل تحدثت عن سكان الضفة الغربية

* رئيس مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات

والقطاع، وعملياً أوكلت التفاوض في مرحلتيه إلى مصر و الأردن بمشاركة فلسطينية. إطار السلام رُفض فلسطينياً بشكل قاطع ولم يُحقق أي تقدم بسبب الوضع العربي عندها.

في العام ١٩٨٢ إثر حرب لبنان وربما بسببها طرح الرئيس الأميريكي ريغان مبادرة للسلام في الشرق الأوسط ، تضمنت الحكم الذاتي الكامل والانتقالي لسكان الضفة والقطاع لمدة خمسة سنوات، ثم التفاوض حول الوضع النهائي على أساس ٢٤٢. استخدم ريغان هنا نفس اللغة الواردة في إطار السلام في الشرق الأوسط وأقر بالتزام إدارته بما جاء فيه. وأضاف ريغان للفكرة المركزية انطباق القرار ٢٤٢ على الضفة والقطاع، ودعا الى تجميد المستعمرات، وأكد أن الولايات المتحدة لن تدعم سيطرة إسرائيل الدائمة على الضفة والقطاع، وأنها ستدعم كيان فلسطيني بالتعاون مع الأردن (عارض الدولة الفلسطينية). بالنسبة للقدس قال ريغان أنها يجب أن لا تقسم ولكن وضعها يجب أن يخضع للتفاوض بين الجانبين. لم يقبل الجانب الفلسطيني و العربي مبادرة ريغان لكن إسرائيل رفضتها بقوة بسبب الإضافات التي طرحها ريغان على الفكرة المركزية.

إثر حرب الخليج في العام ١٩٩١ تمت الدعوة لمؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط من قبل الرئيس بوش والرئيس جورباتشوف، وذلك للتفاوض بين إسرائيل والدول العربية، والتفاوض بين إسرائيل والفلسطينيين، الذين سيكونون ضمن وفد أردني- فلسطيني مشترك، على أن تكون المفاوضات على مسارين: ثنائي ومتعدد بمشاركة عربية ودولية واسعة. كررت دعوة مؤتمر مدريد للسلام نفس الفكرة وإن بلغة أضعف حول إقامة ترتيبات حكم ذاتي مؤقت لمدة خمس سنوات والتفاوض حول الوضع النهائي بما لا يتجاوز السنة الثالثة. وأعطت فترة عام للتوصل الى الاتفاق حول السنوات الخمس. المشاركة الفلسطينية في الوفد المشترك تجاوزت التمثيل الرسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية واقتصرت على سكان الضفة الغربية والقطاع مع استثناء سكان القدس. لم يرد شيء عن الشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة أو السياسية. قبلت م.ت.ف. بما سبق، أي بالصيغة الأسوأ للفكرة المركزية، وأعطت غطاءً سياسياً للوفد الفلسطيني في الوفد الأردني- الفلسطيني المشترك. ويبدو أن هذا الموقف مرده انهيار النظام العربي إثر حرب الخليج والعزلة الفلسطينية عربياً إضافة إلى انهيار المعسكر الاشتراكي وتهاوي الإتحاد السوفييتي، وكلا الأمرين يعني تغييراً جدياً في ميزان القوى.

في العام ١٩٩٣ تمت إقامة قناة حوار سرية بين حكومة إسرائيل و م.ت.ف. في أوسلو. قادت هذه الحوارات الى الاعتراف المتبادل والذي بمقتضاه اعترفت م.ت.ف. «بحق دولة إسرائيل في العيش بسلام وأمن» واعترفت حكومة إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها «الممثل للشعب الفلسطيني». جوهر اتفاقية إعلان المبادئ هو نفس فكرة ترتيبات الحكم الذاتي الانتقالي لفترة خمسة سنوات يليها مفاوضات بما لا يتجاوز السنة الثالثة حول الوضع النهائي أو الحل الدائم. تم

الاتفاق أيضاً على إضافة فكرة البدء بغزة وأريحا بشكل سريع وقبل انتخاب السلطة.

العوار في جوهر اتفاق إعلان المبادئ هو نفس العوار المتعلق بفكرة المرحلة الانتقالية وترتيبات الحكم الذاتي الوارد أعلاه. إذا وضعنا هذا جانباً فإن إعلان المبادئ جاء متقدماً عن ترتيبات مدريد بما في ذلك اعتراف إسرائيل الواضح بالحقوق المشروعة والسياسية، للشعب الفلسطيني ومتطلباته العادلة واعترافها بمنظمة التحرير كممثل لهذا الشعب واستعدادها للتفاوض معها.كذلك أقرت إسرائيل بقضايا محددة تخضع للتفاوض على الحل الدائم من بينها القدس واللاجئين، هذا الى جانب قبولها بمشاركة سكان القدس الفلسطينيين في انتخابات مجلس السلطة، وكلاهما يعني أن وضع القدس النهائي سيخضع للتفاوض (بالإضافة إلى تعهدات إسرائيل في المحافظة على المؤسسات الفلسطينية في القدس الواردة في رسالة شمعون بيريز لوزير خارجية النرويج). وبشكل عام فإن المنطق الداخلي للاتفاقية كان يشير إلى آفاق ايجابية لاحقة تنتهي بالاعتراف بالكيانية الفلسطينية وغالباً بدولة فلسطينية بافتراض حسن نية الجانب الإسرائيلي.

بالمقابل جاءت نصوص الاتفاق بشكل عام قاصرة، حتى بالمقارنة مع إطار السلام في الشرق الأوسط، الذي تحدث عن حكم ذاتي كامل وليس ترتيبات حكم ذاتي. النصوص جاءت مشوشة وغير واضحة في كثير من الأحيان خاصة فيما يتعلق بالانسحابات أو إعادة التموضع وفيما يتعلق بنقل الصلاحيات. الخلل الأبرز كان عدم النص على وقف المستعمرات وهو ما كان قد ورد في مبادرة ريغان.

ظهر هنا أيضاً التفاوت بين الإرادة السياسية للقيادة الفلسطينية التي تصر على الدولة، والقدرات المهنية والفنية الفلسطينية في مجال التفاوض والصياغة. رأينا انتزاع القيادة الفلسطينية لأمور لم تكن أصلاً في الاتفاق مثل اسم السلطة وشكلها، القريب من الدولة، بما في ذلك وجود السلطات الثلاث التشريعية والقضائية والتنفيذية. ومثل مطار غزة ومثل عودة جميع القيادات بالإضافة لأعداد كبيرة من الفلسطينيين في الخارج ..الخ بينما مهنياً وفنياً كانت الأمور تعود إلى الوراء مع كل اتفاق جديد:

أبرز مثال هنا هو ما ورد في اتفاق إعلان المبادئ حول موضوع ولاية السلطة، ثم ما تم الاتفاق عليه حول تقسيم الضفة إلى أ و ب و ج ، وهو ما يقود عملياً إلى نتيجة معاكسة. في إعلان المبادئ النص هو أن ولاية المجلس تشمل الضفة الغربية والقطاع ماعدا قضايا الحل النهائي ومن بينها المستعمرات ومواقع الجيش الإسرائيلي، بينما في الاتفاقات اللاحقة أصبحت إسرائيل مسؤولة عن كل المنطقة مسؤولية أمنية و مدنية أو مسؤولية أمنية فقط باستثناء المراكز السكانية الفلسطينية.مثال بارز آخر هو بروتوكول باريس الاقتصادي للعام ١٩٩٤ الذي أقر بهيمنة إسرائيلية كاملة على الحياة الاقتصادية الفلسطينية.

قاد الخلل في النصوص والتفاوت بين المعنى السياسي العام والتفاصيل، والتفاوت بين الإرادة السياسة في الجانبين مع النصوص الواردة، قاد إلى مواجهة أو أزمة مستمرة بين الجانبين حتى في فترة وجود نوايا

إسرائيلية معقولة بشأن تطبيق الاتفاق. ولكن وبالإضافة، لهذا قام معارضو الاتفاق على الجانبين بهجمات مباشرة تهدف إلى تقويضه بدأت بمجزرة الحرم الإبراهيمي التي ارتكبها باروخ جولدشتين، وبالمقابل جرت هجمات تفجيرية عديدة ضد أهداف إسرائيلية بدت وكأنها مصممة لإنهاء السلطة والاتفاق. ثم أصبح واضحاً أن التيار اليميني الإسرائيلي، الذي ازداد قوة بسبب تلك الهجمات يدفع باتجاه الانقلاب على أوسلو والعودة لفكرة « أرض إسرائيل الكاملة» وإنكار حتى وجود الشعب الفلسطيني، ورأينا تطورات عديدة بدأت باغتيال اسحاق رابين في نوفمبر ٩٥ والذي كان تعبيراً دموياً عن ازدياد المعارضة الجماهيرية والمؤسساتية الإسرائيلية للاتفاق، والذي مثل ضربة قوية لكل العملية السلمية، ثم رأينا انتهاء فترة السنوات الخمس دون أي مراجعة حقيقية أو أي تغيير. بعد ذلك ظهرت التطورات التالية:

- إعادة احتلال مناطق السلطة وتدمير البنية التحتية و أجهزة السلطة بما في ذلك الأجهزة والقدرات الأمنية.

- حصار الرئيس ياسر عرفات ولاحقاً اغتياله.

- مشروع الانسحاب الأحادي الجانب من غزة والتغاضي عن سيطرة حماس على القطاع وهو ما قاد إلى فصل القطاع عن الضفة.

- الإمعان في الاستعمار الاستيطاني وأحياناً بسرعات مذهلة، حتى أصبح عدد المستعمرين الآن ثمانمائة ألف مستعمر مقارنة بحوالي مائتي ألف حين إبرام الاتفاق.

- أسرلة القدس والعمل على فصلها وإنهاء الوجود الرسمي الفلسطيني فيها ومحاربة حتى الوجود الشعبي .

- عودة الحكومة العسكرية وإعادة إنشاء إدارة مدنية ولو بشكل مختلف باسم منسق النشاطات الإسرائيلية.

- الاستئثار كلياً بمعبر الكرامة (مع الأردن)

- مؤخراً حتى محاولة تغيير الإطار القانوني والتشريعي للضفة الغربية ومحاولة فرض القانون الإسرائيلي على المستعمرات.

مع كل هذه التطورات انتهت عملياً اتفاقات أوسلو، وفي الحقيقة تتصرف الإطراف المعنية ومنذ فترة وكأن الاتفاقات غير قائمة، ولكن دون الإعلان عن إنهاء الاتفاقات أو إلغائها.إسرائيل لا تحاول حتى إدعاء التوفيق بين سياساتها وإجراءاتها من جهة والاتفاقية من جهة أخرى والكثيرين من مسؤوليها أصبحوا يتحدثون علناً عن إنتهاء اتفاق أوسلو، ونجاح الاستراتيجيات البديلة. فلسطين من ناحيتها عززت تحركها الدولي نحو تعزيز المركز القانوني لدولة فلسطين ورفع مستوى شكواها ضد إسرائيل أمام المحافل الدولية. حتى الولايات المتحدة ومنذ جورج بوش تتحدث عن الدولة الفلسطينية والتسوية النهائية وبالمقابل تقوم مؤخراً إدارة ترمب باتخاذ خطوات حول القدس

واللاجئين و م.ت.ف. يبدو منها أن الإدارة تتجاوز اتفاقات أوسلو تماماً.

عدم الإعلان عن إنهاء الاتفاق أو إلغائه مرده في الغالب أن أي من الأطراف لا يريد تحمل المسؤولية القانونية والسياسية الناتجة عن الاجهار الرسمي بمثل هذا الموقف. ومرده أيضاً على الأرجح أنه وبالنسبة لإسرائيل من المعقول المحافظة على ما تبقى عملياً من الاتفاقات وهو سلطة فلسطينية مقلصة الصلاحيات للحد الأدنى، يشكل الجهاز الأمني وتعاونه مع إسرائيل الجزء الأهم فيها. أما بالنسبة للجانب الفلسطيني فيبدو من الصعب التخلي عن هذه السلطة بالرغم من كل سلبياتها لأسباب عديدة أهمها مسؤولية السلطة تجاه الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية والقطاع.

ما العمل إذاً، ما هي الدروس المستفادة، وما هي الإستراتيجية الفلسطينية البديلة؟

لعل الدرس الأهم هو ضرورة رفض أي حل انتقالي يجهل الحل النهائي، وضرورة الإصرار على تحديد الحل النهائي أولاً حتى لو تضمن الأمر مرحلية في التنفيذ. والدرس الثاني هو ضرورة رفض احتكار الولايات المتحدة للوساطة، وهي الرافضة للقانون الدولي والشرعية الدولية، وضرورة الإصرار على المسؤولية الدولية والآلية الدولية الواسعة التي تضمن الحد الأدنى من الحيادية والموضوعية. أما الإستراتيجية، فهي أمر معقد وتفصيلي لكن أعتقد أن أية إستراتيجية فلسطينية ناجعة في هذه المرحلة يجب أن تتضمن العناصر التالية:

- التمسك الحازم بوجود دولة فلسطينية على حدود ١٩٦٧ وعاصمتها القدس الشرقية، وأن الهدف الوطني المشترك هو تحقيق الاستقلال الوطني في دولة فلسطين (ليس إقامة دولة فلسطين القائمة فعلاً).

- محاربة الاستعمار الاستيطاني في دولة فلسطين باعتباره الخطر المركزي، شعبياً وعلى المستوى الإقليمي والدولي.

- وضع خطط عمل متعلقة بالقدس تقود إلى تعزيز الوجود الفلسطيني في المدينة ومحاربة الأسرلة، ومتعلقة بموضوع اللاجئين بما في ذلك طرح أملاك اللاجئين، كما ورد في وثائق لجنة التوفيق للأمم المتحدة بشأن فلسطين، بشكل جدي إلى جانب حقوق اللاجئين الثابتة الأخرى.

- إعادة صياغة السلطة مع ترحيل الكثير من المسؤوليات لمنظمة التحرير، وإعادة بناء الأجهزة الأمنية على أساس عقيدة جديدة.

أخيراً، ليس من السهل إذاً تقييم اتفاقيات أوسلو بشكل مبسط، أو إطلاق أحكام مختزلة بشأنها خاصة باستخدام كلمة واحدة على غرار: جيدة، سيئة، مصيبة، لا بد منها، يجب إلغاءها، يجب إبقاءها. المسألة معقدة، وبالتالي التقييم والأحكام يجب أيضاً أن تكون معقدة حتى يمكن لنا أن نتعامل مع الوضع بالشكل اللازم.

حول كتاب آري شبيط: إسرائيل والنصر والمأساة:

الصهيونية والدعوة إلى سلام مستحيل

فيصل درّاج*

أنجز آري شبيط في «أرض ميعادي ـ إسرائيل النصر والمأساة» كتاباً يثير الفضول متعدد الأبعاد: جمع فيه خبرته الصحافية المتراكمة، وهو كاتب عمود في هــا آرتس منذ عقود، ومعرفته العميقة بتاريخ الصهيونية وتحوّلاتها، وصاغهما بأسلوب أدبي رفيع، يجعل من الكتاب وثيقة سياسية ـ تاريخية وعملاً أدبياً معاً. يبدو الكتاب سرداً حكائياً لتاريخ «الفكرة الصهيونية»، التي صالحت بين الفعل السياسي والعمل العسكري المحسوب، ومغامرات قلقة الحسبان أملتها انتصاراتها السريعة المتلاحقة على العالم العربي ويتعيّن، في الوقت نفسه، تحليلاً لتكوّن دولة إسرائيل في أطواره المتعاقبة: أخذت الدولة بالتشكيل قبل ولادتها الرسمية عام ١٩٤٨، وأعطاها انتصار عام ١٩٦٧ ولادة جديدة، فزادت تطوّراً وضاعفت مساحتها، في انتظار تداعي «الدولة العربية» وإخفاق اتفاق أوسلو، اللذين اقترحا عليها توسعاً هائجاً، أدواته الدولة والفئات الصهيونية المتطرفة، التي تعتمد على الدولة وتتجاوزها، ما يجعل الكاتب يرى في «اليمين الديني المتطرّف» دولة داخل الدولة، أوقوة تسعى إلى «إصلاح» دولة إسرائيل وبناء دولة جديدة.

نقد شبيط دولة إسرائيل والمجتمع الإسرائيلي والقوى الدينية المتطرفة، إذ الأولى عاجزة عن إعطاء المجتمع أفقاً واضحاً مريحاً، وبعيدة عن القيادة التاريخية «الحكيمة» التي قادت إسرائيل، مرة، إلى النصر والتقدّم والحداثة، فلا وجود في إسرائيل اليوم لقيادة تستأنف بصيرة بن غوريون وشجاعة موشيه ديان ورؤيا ايجال ألون. أما المجتمع فاستنفد طاقاته الروحية الأولى، بسبب فقدان المثال الملهم، ما يهدّد الصهيونية العلمانية التي اقترحت «فكرة إسرائيل» وحوّلتها إلى حقيقة مادية:

* كاتب وناقد - فلسطين

«مدهشة». ينظر الكاتب بحنين كبيرة إلى حقبة «الصهيونية الرومانسية»، التي سبقت بناء الدولة وخلقت «الكيبوتس المسلّح»، الذي «أحسن زراعة الأرض وحمل السلاح ووضع فيهما «قيماً روحية عالية»، ووحد بين أرواح الأجداد والاندفاع الإبداعي إلى التجديد والحداثة. بل أن الكاتب يحتفي «بالصهونية الملحمية»، التي روّضت العرب ودفعتهم إلى الخروج، وأستأنست «الأرض البور»، التي أشرفت على حقول برتقال تقترب من المعجزة.

يميل الكاتب إلى التحدّث عن الصهيونية بصيغة الجمع: الصهيونية الرومانسية، الصهيونية الرائية، الصهيونية الطوباوية، صهيونية السهول وصهيونية الجبال،... ومع أنه لا يساوي بين «صهيونياته»، فإنه يرى فيها جميعاً وجوه «المغامرة اليهودية المتفرّدة»، التي تحلّق إلى السماء أحياناً، وتقترب من الضلال حيناً آخر، حال القوى الدينية المتعصّبة التي اندفعت، ولا تزال تندفع إلى «الاستيطان»، الذي قد يقود إسرائيل إلى المجهول، كما يقول.

ولعلّ دفاعه عن «المغامرة المتفرّدة»، التي أعادت الحق إلى نصابه، هو الذي يجعل نقده لمجتمعه تعبيراً عن حرص شديد عليه، وتعلّقاً مقدساً بمنجزات الدولة اليهودية. ولهذا يبدو الفلسطينيون في منظور شبيط ظلالاً بشرية، كانت ورحلت، وإن كان يودّ لو كان ذلك الرحيل أكثر رحمة، «لأن الرحمة جزء حميم من الروح اليهودية الحقة». وإذا كان هناك ما يدفعه إلى عدم الاتفاق مع سياسة الاستيطان، فذلك راجع إلى صورة إسرائيل في العالم، وإلى توطيد حقيقة المجتمع الإسرائيلي من حيث هو مجتمع مختلف كان روّاده الأوائل «أبطالاً وأنبياء» معاً. الطريف أن جميع هذه الأفكار دحضها المؤرخ الإسرائيلي إيلان بابيه في كتابه الجديد «عشر خرافات عن إسرائيل»، وبيّن أن العدوان، كما الكذب، يشكّلان عنصرين أساسيين في الأيديولوجيا الصهيونية.

١. حب الأنا وإنكار الحقيقة:

يسبغ الكاتب على إسرائيل ومؤسسيها صفة المقدّس، ما يحوّل الأولى إلى حقيقة إلهية، ويجعل الإسرائيليين، بعامة، أبطالاً وأنبياء، يعيشون على الأرض ويلتحقون بالسماء، فإسرائيل عادت إلى أصحابها بعد زمن طويل، أقرب إلى المعجزة، واليهود، المحدودو العدد، محاطون بمئات من الملايين من المسلمين، والقومية الإسرائيلية الحديثة النشأة هزمت قومية عربية صعدت سريعاً وسقطت بشكل أسرع. أنجز اليهود «كل شيء من لاشيء» كما يقول، كانوا قلة وانتصروا، ومشتتين فاجتمعوا، وكانوا بلا سيادة ووطن، فحققوا السيادة والوطن واعترف بهم العالم أجمع.

لا ينقد الكاتب مجتمعه، والحال هذه، إلاّ مكرهاً ومتألماً، ومحتفظاً بتفاؤل ضروري، بسبب جدارة

يهودية طويلة العهد، خلقت «أشياء من لا شيء». ولعل هذه الإيمانية اليهودية، إن صح القول، هي التي تنشر في الكتاب جملاً ناقصة التحديد، وتعابير غامضة لا تستطيع أن تعبّر عمّا لا يعبّر عنه، طالما أن الجوهر اليهودي، كما إسرائيل، يلتبس بالمعجزة. كأن يقول على لسان جده الذي زار فلسطين عام ١٨٩٧: «كانت الحاجة لإعطاء فلسطين لليهود قد أصبحت شديدة الوضوح. كانت هناك حاجة إلى ثورة. من هذا المنطلق نستطيع اعتبار الصهيونية التي انطلقت عام ١٨٩٧ فكرة عبقرية. لقد كان مؤسسو هذه الحركة بقيادة هرتزل، أنبياء وأبطالاً. بالإجمال يمكن القول إن القرن التاسع عشر كان عصراً ذهبياً ليهود أوروبا الغربية. لقد كانت صهونية هرتزل تستشرف المستقبل. صحيح أن المؤسسين لم يدركوا أنّ القرن العشرين سيجلب معه أماكن مثل أوشفيتس. لكنهم وبطريقتهم الخاصة حاولوا في نهاية القرن التاسع عشر أن يمنعوا ما حصل في أربعينات القرن العشرين. لقد أدرك المؤسسون أنهم يواجهون مشكلة خطيرة تتمثل في الفناء القادم لليهود. وأدركوا أن مشكلة جذرية تستدعي حلاً جذرياً. لذلك خططوا لنقل اليهود والمكان الوحيد الذي يمكن نقلهم إليه هو فلسطين، وطن اليهود القديم. ص: ٢١-٢٢»

يصدر الخطاب عن ذات نرجسية مغتبطة بانتصارها ومطمئنة إلى قوة الإعلان والانتشار، التي أمّنت لكتاب شبيط الشهرة والترجمة والجوائز. فلماذا أصبحت حاجة اليهود إلى فلسطين واضحة عام ١٨٩٧، أي خلال فترة التحضير لمؤتمر بال في سويسرا، وما ضرورة الإشارة إلى الوطن القديم إن كانت نسبة اليهود في فلسطين، آنئذ، أقل من ٥٪، ولماذا لم يشر المؤلف، اللامع الواسع الثقافة، إلى الفعل الوطني الفلسطيني الذي واجه المستوطنات اليهودية من بداية ثمانينات القرن التاسع عشر؟ وما هي هذه البصيرة «العلمانية»، الرائية التي لا ترى الفلسطينيين لأنها لا تريد أن تراهم؟

ومع أن المؤلف يربط، كما يشاء، بين الوطن القومي وإرادة الرب، فإن عبقرية هرتسل ومن معه كانت استنساخاً للمخطط الأوروبي الاستعماري في القرنين التاسع عشر والثامن عشر. ذلك أن فكراً عبقرياً يستشرف المستقبل، ولا يرى أي ظل للعرب على الأرض، فكر لا عبقرية فيه، أقام مشروعه على الدعم الاستعماري والإنجليزي منه بخاصة، وقوة المال (محاولة شراء السلطان عبد الحميد)، وعلى كفاءة عالية في تحوير الحقائق، تعطي لليهود حضوراً سرمدياً في فلسطين، وتمحو الوجود الفلسطيني حتى لو كان لا يحتاج إلى برهان. ترجم المشروع الصهيوني، المنتسب إلى السماء والعبقرية الكاملة، قوة الحداثة الاستعمارية الأوروبية التي هزمت الإمبراطورية العثمانية قبل أن تسطو على المجتمع الفلسطيني. أما الزعم بالاستشراف الصهيوني «للفناء القادم» فاختراع لفظي لا أكثر. لم تكن النازية قد ظهرت في زمن هرتسل، ولولا نتائج الحرب العالمية الأولى لما ظهرت النازية

وهزمت حركة ديمقراطية المانية واسعة، ولم يكن الزمن الأوروبي، الذي ازدهر فيه اليهود وجعلوا من القرن العشرين «قرناً يهودياً»، زمناً نازياً. وما «الفناء المزعوم» إلا صناعة أيديولوجية امتدت من زمن هرتسل إلى اليوم.

أخذ الوضوح الصهيوني، المناهض للحقيقة، شكل البداهة. لذا نقرأ في فصل عنوانه «بيارات البرتقال، ١٩٣٦»: يعتبر البرتقال علامة تجارية فلسطينية منذ قرون». ودفعاً للغموض، وكي لا يربط القارئ بين فلسطين العرب والبرتقال، يأتي الكاتب سريعاً بجملة تقول: «كان نفس عمّال السفن يعملون كل شتاء على تحميل آلاف الصناديق من البرتقال...»، ما يجعل علاقة الفلسطينيين بالبرتقال علاقة عمل، لا علاقة زراعة، فالبرتقال لغيرهم وهم يعملون عند غيرهم. لا غرابة أن يكتب المؤلف عن المزارع اليهودي النشيط: «كان يتأمل العلاقة الغريبة بين البرتقال واليهود. وصل كلاهما إلى فلسطين في نفس الوقت تقريباً...». كيف وصل البرتقال إلى فلسطين في ثلاثينات القرن العشرين إن كان علامة فلسطينية منذ قرون؟ والجواب بسيط: إن فلسطين، في تصوّر الكاتب هي أرض بني إسرائيل، الذين سيتحررون في عام ١٩٤٨ من كلمة فلسطين ويحتفظون بكلمة: إسرائيل. لا يكترث «داعي السلام» بالحقيقة، فاهتمامه منصرف إلى «جمالية السرد»، حيث البرتقال اليهودي جزء من زرقة السماء، والأيدي اليهودية العاملة مزيج من الخضرة والمطر والبركة الإلهية. فإذا مرّ على الأرض قبل تشجيرها بالبرتقال اليهودي بدت مساحة من الأشواك السامة والحشرات، ومن هزال يصفع العين يحايث كل ما يتحرّك، بشراً وحيوانات وبيوتاً ونباتات. الطريف أن السارد المكين لا ينسى أن يذكر أن رجل البرتقال اليهودي متزوج من إنجليزية غير يهودية منحها والدها أرضاً عام ١٩٣١، ولم يكن عليه إلا أن يستأجر «عرباً فلسطينيين يلبسون الكوفية ليخلّصوا الأرض من النباتات الشائكة والأعشاب السامة. ص: ٦٩». يحضر اليهودي حين يحضر البرتقال والأريج والمطر، ويأتي العربي مع الكوفية والأعشاب السامة، هذا إن لم يكن بدوياً يعلّمه اليهودي استثمار قوته الجسدية: «تم إنشاء مستعمرة رحفوت عام ١٨٩٠ على ١٠٦٠٠ دونم من أراضي إقطاعية دوران العثمانية. بعد شراء الأراضي القاحلة وإخلاء البدو منها، سيطر عليها اليهود الروس والبولنديون على أمل الحصول على السلام والوفرة في أرض إسرائيل...». لا ضرورة هنا للإشارة إلى أموال روتشيلد، ولا إلى تسهيلات القنصليات الأوروبية في القدس، ولا الإشارة إلى أن هؤلاء البدو كانوا يعيشون على بعد ٥٠ ميلاً جنوب شرقي يافا. يتراءى «نسيان» متعدد الطبقات ينتهي إلى عبقرية يهودية طاردة للبدو والأعشاب السامة!!

لا تختلف حكاية البرتقال السماوي عن حكايات السلام اليهودي. كلاهما قديم قدم «الحقيقة الصهيونية».

في السطر الثاني من الفصل العاشر، المعنون «السلام، ١٩٩٣»، كتب آري شبيط: «الرغبة بالسلام كانت

دائماً جزءاً من الصهيونية». ما معنى السلام إذا كان قوام المشروع الصهيوني طرد شعب من أرضه بالقوة وإحلال غرباء فوقها بالقوة أيضاً؟ من المحقق أن المؤلف، اللامع الذكي المثقف، لا يطرح سؤالاً خائباً بلغة عقلانية يفهمها الجميع، إنما يطرح سؤالاً على ذاته الصهيونية، ويجيب عليه بمنطق عامر بإيمانية صهيونية، حيث السلام الحقيقي سلام اليهودي مع ذاته التي استرجعت الحق القديم، أو السلام المسلّح الذي يقتلع من الأرض «الأشواك الغريبة»، حتى تبدو هادئة مسوّاة مستريحة، أو ذاك السلام الصهيوني الذي يعتبر العرب لا وجود لهم. ولأن صاحب الأرض لا وجود له فلا خصام مع أحد والسلام نعمة تعمّ الجميع. تحيل التساؤلات إلى معنى الحقيقة في الخطاب الصهيوني المنتصر، حيث تختصر إلى صناعة لفظية متحوّلة الكلمات يقترحها سياق ويبدّلها سياق آخر.

حين يتحدّث شبيط مفتوناً بالأبطال الأنبياء في نهاية القرن التاسع عشر يكتب: «فبعد سبع ساعات من وصولهم لفلسطين لم يعد لديهم أي شك في أن يهودا هي المكان الذي يجب أن تستوطنه جموع اليهود المضطهدين...». لا يستقيم معنى كلمتيّ «الذي يجب» إلا إن كان «الترحيل»، أي العنف، جزءاً متمّماً لهما. لا يكون السلام، بهذا المعنى، جزءاً من الصهيونية، إلا إن كان السلام الصهيوني لا علاقة له بالسلام أيضاً. مع ذلك فالسيد المؤلف يبرّر كل شيء قبل أن يكتب ويبرّر كل شيء بعد أن يكتب، يسأل: «كيف أمكن لجدي، الذي زار فلسطين عام ١٨٩٧، أن لا يرى أكثر من نصف مليون إنسان من العرب والبدو والدروز؟». يبدو السؤال عادلاً، إلى أن يطرح بشكل آخر: «كيف لم يلاحظ جدي أن لهذه الأرض أصحاب؟ وأن أشخاصاً آخرين يسكنون في أرض أجداده؟» يبدو السؤال عادلاً إلى أن يلتهم عدالته حين يتكلّم عن «أرض أجداده». ماذا لو كان جدّه يستعيد حقه ـ مجاناً ـ بعد ألفي عام، أو بعد ثمانية قرون كما يقول المؤلف. وتتبخّر العدالة تماماً حين نقرأ: «فقد جدي قدرته على الرؤية لأنه كان مدفوعاً بالحاجة لعدم الرؤية». قوة غامضة قادت الجد إلى فلسطين وأقنعته بأن لا يرى. وإلى جانب هذه العين المقدّسة الغامضة نقرأ أيضاً: «الأرض التي رصدها جدي يقطنها العديد من البدو الرحّل. معظم السكان الآخرين هم من الأقنان الذين ليست لديهم حقوق ملكية. في العام ١٨٩٧ كانت الأغلبية الساحقة من الفلسطينيين تسكن في قرى ونجوع. لم تكن منازلهم سوى أكواخ قذرة، يجللها الفقر والمرض، لذا كانت من الصعب على سيد إنجليزي فيكتوري ملاحظتها». كانت رؤية السيد الفكتوري صعبة لأنه لا يريد أن يرى، لأن عنصريته وغطرسته الاستعمارية تمنعان عنه الاعتراف بالآخر. ولأن تعصّبه الديني لن يسمح له برؤية الفلسطينيين إلا في ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ حين استعمل ضد الذين لا يراهم براميل متفجّرة ألقتها عشرات الطائرات الإنجليزية، وكاد أن ينهزم!!.

يشير مؤلف الكتاب إلى «يهودي غريب» صدم اليهود في نهاية القرن التاسع عشر، حين صرّح

بأمرين: إن فلسطين مأهولة بالسكان، بل إنه «ادّعى أن التاريخ لا يعرف بلداً مأهولاً بالسكان هزم بدون استعمال القوة». اليهودي هو إسرائيل زينغويل، الذي استبعد آنذاك من صفوف الحركة الصهيونية ـ عام ١٨٩٧ ـ لم يكن منافقاً، كان يعرف، مثل غيره من المنافقين، أن «طرد القبائل التي تمتلك الأرض لا يتم إلا بقوة السيف، كما فعل آباؤنا».

فإذا كان استملاك الأرض المأهولة لا يتم إلا بالسيف، كما جرى في عُرف الآباء اليهود، فكيف يكون السلام جزءاً من الصهونية؟ الجواب قائم، ربما، في البراءة اليهودية وعنف الواقع. فبعد أن صُدم اليهود بأن فلسطين مأهولة بالسكان، صدموا ثانية حين رفض الفلسطينيون «المدينة الفاضلة» ـ بلغة المؤلف ـ التي أراد الروّاد اليهود إقامتها في فلسطين، فقد ساعدت العرب وحاربت أمراضهم وعملت على تحضيرهم. وهذا الرفض دفع اليهود إلى حمل السلاح. هكذا أسهم العرب الفلسطينيون في إجهاض فكرة المدينة الفاضلة اليهودية. زاد الأمر تعقيداً أن المزارعين الفلسطينيين الذين كانوا يعملون في أراضي اللبناني سرسق (أصبح في كتاب شبيط مصرياً) رفضوا التخلّي عن بيوتهم: «لوحظ أن إخلاء الأقنان من الأرض قد يستلزم بعض القوة. ص: ٤٣».

يتحدّث الكاتب عن «الأقنان» العرب، فإذا انتقل إلى اليهود الذين وفدوا إلى فلسطين قال: «كان أول خلق إبداعي للمدينة الفاضلة في العام ١٩٠٩، أنشأوا مستوطنة ريجينا، هدفت إلى احترام حاجات الفرد وحريته...».

إذا كان الأمر يدور حول المدينة الفاضلة التي تحترم الإنسان ـ فلماذا قام الفلاحون الفلسطينيون بمهاجمة المستوطنات اليهودية بدءاً من عام ١٨٨٢؟ كان في طبيعة العرب، كما يرى المؤلف، ما لا يأتلف مع سلام الديانة اليهودية، ولذلك «أدرك الآباء المؤسسون أن ما ينوون القيام به يحتاج إلى استخدام العنف. لقد أصبح الاستيلاء على وادي عين جالود هاجسهم الوحيد. ص: ٤٧». كيف جاء العنف من العرب إذا كان هاجس اليهود الاستيلاء على الأرض؟ هناك لغة الخطب التي تبدأ وتنتهي بذات مغلقة لا تعترف بغيرها، أدمنَ عليها اليهود منذ أن تحدّثوا عن «أرض بلا شعب» إلى اليوم. لغة لا تبدأ بالكلام، بل بقوة المتكلّم، التي تنثر الجوائز على كتاب صهيوني مغلق وتعتبره داعياً للسلام.

لايقتصد داعية السلام في تعظيم ما يترك الفلسطينيين خارجاً، ويلقي بهم إلى العراء.. فاشتراكية الكيبوتسات هي «الوحيدة القادرة على منح الصهيونية تماسكاً اجتماعياً»، وروح الكيبوتسات، الشعبية الاشتراكية، هو الذي مكّن من «الاستيلاء على الوادي وعلى الأراضي الأخرى». وما فعله اليهود الاشتراكيون الشعبويون كان «خطوة عبقرية وشجاعة أيضاً». كانوا ثواراً، بل كانت ثورتهم مضاعفة، على الأقل، ست مرات: «ثاروا ضد الماضي اليهودي الشقي، ضد حياة تحت رحمة

الآخرين. ثاروا ضد أوروبا المسيحية، ضد النظام الرأسمالي العالمي، ضد الصخور والمستنقعات الفلسطينية وثاروا ضد السكان الفلسطينيين الأصليين». ولكن لماذا لم ينجز اليهود كل هذه الثورات إلا في فلسطين العرب، وهل كانت ثورات فعلاً، أم أنها فتنة الكلام النرجسي، التي تستولد روحاً يهودية كاملة وتنسى الجهد الاستعماري الأوروبي المتراكم، من زمن نابليون إلى زمن هرتسل، ومن زمن الأخير إلى وعد بلفور، بدءاً من زمن الحداثة الأوروبية المسلحة، التي اعترفت بالإنسان الأبيض ونهبت «رجل الغابات». إن «رجل الغابات» أي الفلاح الفلسطيني، هو الذي هزم نابليون وهو يحاصر عكا، مثلما ألحق الفلسطينيون هزيمة بجيش إبراهيم باشا»، القائد العسكري المصري اللامع. ولهذا تبدو جملة شبيط «أيقظوا الوادي من سبات دام ألف سنة» فارغة، أملاها وعي ديني لا يعترف بالزمن، أو بلاغة متعثرة، تثني على الحداثة تارة، وتفتش عن الدلالة التوراتية في «الاستيلاء اليهودي» تارة أخرى، لتستقر في فضاء هجين، لا هو من الزمن القديم، الذي محاه التاريخ، ولا من الزمن الحديث الذي ينكر المعجزات.

وإذا كان القرن العشرين قرناً يهودياً كما كتب صهيوني أمريكي ذات مرة، فلماذا تكون فلسطين «الملجأ الأخير للشعب اليهودي»، وإذا كان العقل اليهودي حداثي متجدد، كما يقول شبيط، فلماذا شعر «الرواد الصهاينة أنهم يكتبون العهد القديم من جديد»؟ وواقع الأمر أن شبيط، في أسلوبة الأدبي الرفيع، ينطلق من المشروع الصهيوني المستمر، قبل أن ينطلق من الوقائع، بل أنه ينطلق من فضاء روائي أبطاله من اليهود المنتسبين إلى «المغامرة الأوروبية» الحديثة. ولهذا يشبه «أبطال وادي عين جالود روبنسون كروزو، الذي انجرف إلى الشاطئ بعد أن فقد سفينته». والتشبيه مصطنع، فالثوّار اليهود جاؤوا إلى مكان اختاره المتخيّل الاستعماري، وهيّأ أدوات الاستيلاء عليه، والمكان المختار لا علاقة له بجزيرة معزولة، كما تقول البلاغة المجرّدة، فقد دعمه روتشيلد وأحسن دعمه، ورعاه الاستعمار البريطاني بسخاء كبير. يقول شبيط: «ومثل كروزو صنعوا معجزة إنسانية سريالية»، متصرّفاً بكلمتين: فالمعجزة المفترضة هي الجرائم الصهيونية المتكرّرة، والسريالية افتخار بتشريد شعب واحتلال وديانه وسهوله وبيّاراته. إنها الغطرسة البيضاء في شكلها الصهيوني الذي يملي على الله أن يبارك شعباً وأن يعاقب آخر، ويقنع الباحث الصهيوني أن يرتكن إلى لغة انتقامية، يحتاج تفسيرها إلى «علم نفس لاهوتي».

٢. مفارقات الخطاب الصهيوني المتعددة:

يعطي الخطاب الصهيوني لليهود، قبل «عودتهم» إلى فلسطين، جملة من الصفات المثيرة للشفقة

والتعاطف: فهم يائسون بائسون، مذلّون مهانون، يترصّد بهم فناء لا مهرب منه. لا يتفق الخطاب مع اليهودي ـ الجوهر، الذي لا يتغيّر، ولا مع اليهودي الجوهري العصيّ على التحوّل. وإذا كان الحال اليهودي هو على ما هو عليه، فلماذا لم تستيقظ «القومية اليهودية» إلا بعد شق قناة السويس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟ يقوم الجواب، للوهلة الأولى، في عصر القومية الحديثة، وفي اختراع الصهاينة قومية يهودية تلتحق بها، كما توّهم روحي الخالدي، الفلسطيني النبيه، ذات مرة. استولد الاستعماريون الحريصون على مصالحهم، قومية يهودية لتحمي مصالحهم «الشرقية»، وتراقب قناة السويس بعين يقظة.

وإذا كان اليهودي، من حيث هو جوهر، مكتفياً بذاته، عبقري وسرمدي العبقرية كما يقول شبيط، فما الحاجة إلى «يد الله» الواسعة، وإلى تصوّر ديني غريب يحذف المسافة بين هرتسل وداود، وبين بن غوريون والنبي إبراهيم ويجعل من أنبياء إسرائيل «القدامى» حرّاساً للكيبوتسات وعمالاً نشطاء في بيارات البرتقال؟ والأساسي بداهة هو التبرير، فما لا تستطيع «العلمانية اليهودية» حجبه يحجبه اللاهوت القديم، وما يفضحه البعد الاستعماري تستره إرادة الرب التي تحقق ما تريد، إن لم يكن عليها أن تنصاع إلى إرادة «اليهود الثائرين»، كما جاء في أكثر من سطر من سطور الكتاب.

بيد أن ما يلفت النظر في تصوّر شبيط تأكيده المتواتر فرادة الشعب اليهودي وتفوّقه واكتفاءه بذاته: «لا يدافع عن أرض إسرائيل إلا المنتمون إلى بني إسرائيل». ومع أن المؤلف يوغل، وبشكل شاعري، في وصف عزلة اليهودي الرومانسية الأبعاد (نحمل أحزاننا لوحدنا، وندافع وحيدين عن أرضنا)، فإنه ينسى وحدته الحزينة المفترضة ويستذكر آخرين ساعدوه من غير اليهود. فالمفاعل النووي الإسرائيلي ـ ١٩٦٠ ـ لم يكن ممكناً من دون المساعدة الهائلة التي قدّمها الفرنسيون، وتكوين العلماء الإسرائيليين، في مجال الذرة، لم يكن ممكناً من دون مساعدة علماء أوروبيين كبار، مثل نيلز بوهر وروبرت أوبنهايمر، وتوطيد الموقع الصهيوني في فلسطين لم يكن ليتحقق من دون «المظلة الإنجليزية»، وصولاً إلى «مظلات أميركية» أظلّت إسرائيل بتواتر لا نقص فيه. بل حتى «مسّادا ـ ١٩٤٢»، التي استلهمت ملحمة يهودية من زمن الرومان، استهلها قائد عسكري اسكتلندي متمرد العقيد أورد وينفيت الذي بدأ، وابتدأ من عام ١٩٣٨، بتشكيل وحدات قتال ليلية، حيث الإرهاب الإنجليزي ـ اليهودي المضاد يواجه الإرهاب العربي: «كان الجنود البريطانيون هم المقاتلون الأكثر قسوة، لكن مقاتلي الهاجانا كانوا شركاء في القسوة. ص: ٩٩». فإذا كانت المظلة الإنجليزية، كما مظلات أخرى، أمّنت قيام إسرائيل ووقوفها، فمن أين تأتي صفات البطولة اليهودية الخالدة؟ ولماذا يبدو «اليهودي المحاصر» حزيناً في وحدته ووحيداً في حزنه؟ إنها حزمة البلاغة الفاتنة، ومهارة أسلوبية عالية تجعل البرتقال يهودياً، وزارع البرتقال اليهودي البريء رفيقاً للمطر ولهمسات الليل!

وقد يبرّر المنطق الصهيوني إبادة «الحشرات السامة» بمنطق الحداثة، أو بثمن التقدّم. وهو ما يلامسه شبيط مساً خفيفاً موحياً. هنا يمكن أن نرصد شبهاً بين ضرورة قيام إسرائيل، من حيث هي فعل سماوي وأرضي معاً، وفتح قناة السويس. فكما كلّفت قناة السويس عشرات الشهداء من المصريين أرواحهم، فقد اقتضى المشروع الصهيوني، وهو أكثر علوّاً، إتلاف كثير من أرواح العرب. يقول قائد الكتيبة التي دمّرت مدينة اللد في تموز ١٩٤٨: «الدولة اليهودية الوشيكة الولادة لن تكون قادرة على البقاء والانتصار على الجيوش العربية إذا لم تخلص نفسها ، أولاً من السكان الفلسطينيين. ص: ١٣٦». أما معنى تخلّص فيحتمل القتل الجماعي واغتصاب النساء ونهب البيوت وإهلاك الأطفال وإطلاق القذائف على المسجد، وكل ما يجعل الدولة الوليدة قادرة على ترحيل الفلسطينيين. ومع أن المؤلف يسجل كلام غيره، ففي طريقة التسجيل ما يتضمن موافقة صريحة، يشوبها شيء من الأسف. بل أن الأسف يكاد أن يتوارى وهو يستمع إلى «غوتمان»، الذي هو مزيج من البطولة والنبوءة، وقاد بدوره المجزرة المروعة في اللد وقال مرتاحاً: «لو لم يحدث ما حدث في اللد، لأوشكت الصهيونية على الموت. ص: ١٥٦». في ذلك الصيف القائظ، الذي كان فيه جنود شعب الله المختار «يصطادون الفلسطينيين» بالقذائف والرشاشات، وهم عزّل أبرياء، كانت الدولة قد قامت، واعترف مجلس الأمن بقيامها، وكانت الصهيونية تنتسب، زوراً، إلى حركات التحرر الوطني.

اتكاء على ما سبق، تمكن العودة إلى بداهة شبيط المرتبطة «بسلام الصهونية»، ذلك السلام العجيب الذي تهزّه البراهين. بعد أن يربط بين العرب والعدوان، كما يشاء، يرجع ويقول: «في عين جالود سيتم إنشاء أول قوة كوماندوز أنجلو ـ يهودية من النخبة. لاحقاً ستغير هذه القوة على القرى العربية وتقتل بعضاً من سكانها المدنيين. ص: ٦٥». يعطي داعية السلام قوله واضحاً، مستعملاً كلمة «الإغارة»، التي هي فعل عدواني طوعي، ولا يتحرّج من تعبير «السكان المدنيين»، ولا من التعاون بين مستعمرين إنجليز ومستعمرين يهود، بعد أن يتوجّهما بصفة النخبة، تلك الفئة المدرّبة التي تجيد القتل، ولا تبدّد طلقاتها في الهواء. وهذه «الإغارة»، أو «الغارة»، مرسومة الأهداف والمقاصد منذ البداية. كتب يوسف فيتر رئيس دائرة الغابات في الصندوق القومي اليهودي عام ١٩٤٠: «كلام بيننا، يجب أن يكون من الواضح أنه لا يوجد متسع على هذه الأرض لشعبين. ص: ٩٥»، على أحدهما أن يطرد الآخر، لأنه «إن غادر العرب، ستكون البلد أوسع وأكثر رحابة».

يكتب الكاتب في الصفحة التالية: «ما تم كبحه منذ سنة ١٨٩٧ طفا على السطح. في أواخر الثلاثينات لم يكن لدى المجتمع اليهودي النفوذ اللازم لإطلاق عملية ترحيل العرب». كان على اليهود، آنذاك، أن يشكلوا نخبة قاتلة يهودية ـ إنجليزية. ينسى الكاتب فعل «كبح»، ويشتق ضرورة قتل العرب من ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ التي ارتكب العرب فيها «فظائع بحق اليهود»، علماً أن تلك الثورة، كما يعرف

المؤرخون ، كانت موجهة ضد الاحتلال الإنجليزي، الذي ما كان الاحتلال الصهيوني ليقوم بدونه. وسواء قام العرب بثورتهم أم «كبحوها»، فإن السلام اليهودي الظاهري كان مرتبطاً «بضيق اليد»، في انتظار عديد يهودي مسلّح، يقود نفسه بنفسه، أو يقوده ضابط إنجليزي ـ سكوتلندي «منشق».

لا ينسى شبيط في نهاية الكتاب، وهو يعدّد انتصارات الصهونية، أن يذكر انتصارها على الثورة العربية ـ ١٩٣٦، التي تدربّ فيها اليهود على محاربة العرب لا أكثر. لا ينسى الكاتب الإسرائيلي، الحداثي العلماني الإنساني النزعة كجده، أن يعلن عن اغتباطه بسحق الثورة الكبرى. «بعد سحق الثورة العربية وتفكيك القيادة الوطنية العربية، عادت البلاد إلى العيش بسلام»، كما لو كان سلام البلاد يستلزم إذعان الفلسطينيين وهزيمتهم، لأن الثورة اختصاص يهودي، يعثر دائماً على مظلات أوروبية وأميركية، باستثناء «النازية» منها، وهي فعلياً مظلة أيضاً، تتيح التشهير «بنازية الحج أمين الحسيني»، الذي أسهم الإنجليز في «تفكيك قيادته الوطنية العربية».

يعطي الكاتب الإسرائيل بداهاته مرتحاً، فيقفز فوق تدمير الاستعمار الإنكليزي للثورة الفلسطينية، ويقفز بشكل أسرع عن النخبة العسكرية الإنجليزية ـ اليهودية، وعن الجهد الإنجليزي في بناء المشروع الصهوني، الذي بدأ منذ منتصف القرن التاسع عشر، ودللت عليه مراسلات القنصل الإنجليزي في القدس جيمس فن، الذي كان حريصاً على مصادرة ما يدفع بالمجتمع الفلسطيني إلى التقدم ما ألمح إليه كتاب ماري روجز: الحياة اليومية في فلسطين الذي طبع للمرة الأولى عام ١٨٦١.. مع ذلك نقرأ: «لا أحد غير شباب وبنات صهيون قادر على إنقاذ الصهونية من الدمار الكامل. ص: ١٠٥»، كما لو كان المشروع الصهيوني اقتراحاً يهودياً خالصاً، ضمنت تحقيقه أرواح يهودية خالصة، لا تعرف من لغات المستعمرين شيئاً.

كان الراحل عبد الرحمن منيف يستعمل كلمة «القِحّة» وهو يتحدث عن مسؤولين عرب، لا يتوّرعون عن فعل أي شيء، ولا عن قول أي شيء. تنطبق الكلمة على الكاتب الإسرائيلي اللامع، في أكثر من مناسبة، كأن يكتب نقلاً عن صهيوني آخر: «الجيران المسالمون في قريتي بيت ألفا وكوماي تضاعف عددهم بعد أن اختفت بعوضة الانوفليس، والبدو أصبحوا يرون الوادي أكثر جذبا الآن». والآن هو عشرينات القرن العشرين، كما لو كان دور اليهود في فلسطين هو القضاء على البعوض، الذي يفتك بحياة البشر، وإمتاع نظر البدو. وتبلغ «القحة» منتهاها، حين ينقل عن صهيوني آخر بإعجاب كبير: «أردنا أن تكون الصهيونية حركة استيطان لم تتلوث بالاستعمار، حركة قومية دون ندوب شوفينية، حركية تقدمية لم يحرفها الاغتراب المدني». أرادت الصهيونية استطياناً نقياً، لا علاقة له بمجزرة دير ياسين وقومية إنسانية، لا تقتل ولا تنهب ولا تحرق وتقدم لا انحراف فيه، يكتفي بترحيل العرب، أو جسّدت ، بلغة أخرى، «روح شعب الله المختار» في ظواهر متعددة،

بعيداً عن شعوب أرضية لم يخترها الله لا تعرّف خطاب شبيط المفتون بالقوة، التي تسوّغ ما لا يسوّغ، ولا تعترف بفاعلية السلطة الإعلامية، وبذاتية يهودية مفرطة الغرابة، تعتقد انها تنتسب إلى ملكوت الله، وتحرسه أيضاً.

٣ ـ الحرب والعرب:

اختصر المؤلف «مأساة إسرائيل» إلى ثنائية : الاحتلال والتهديد. فلو لم يقم اليهود بطرد الفلسطينيين في عام ١٩٤٨ لكانت دولتهم الوليدة عرضة للتهديد «المرعب»، ولولم يحتلوا بقية فلسطين عام ١٩٦٧ لظل وجودهم رهينة لإرادة غيرهم، ولم يلجأ الاستيطانيون إلى قضم الأرض الفلسطينية إلا لشعور غامض بتهديد مستمر. يصل شبيط إلى نتيجتين: الاحتلال وإعادة توسيع الاحتلال ضرورة «وطنية» للأمن الإسرائيلي وضرورة نفسية للروح الإسرائيلية القلقة، والدافع إلى الاحتلال التوسعي هم العرب، الذين لم يدركوا آماد القوة اليهودية ولم يدركوا أن إسرائيل لا تقبل بالتهديد. يبدو العناد والعدوان العربيان سبب «مأساة إسرائيل»، فقد كان بن غوريون على سبيل المثال، يأمل بأن «يرحل الفلسطينيون لوحدهم»، دون إجبارهم على الرحيل، ولأنهم لم يرحلوا طواعية أجبروا إسرائيل على فعل لا تريده، بقدر ما كان الإسرائيليون يأملون أن «لا تغزوهم الجيوش العربية» في حرب الغفران عام ١٩٧٣، وتزعزع ثقتهم بإمكانية السلام! تتاخم تصورات المثقف الإسرائيلي السخرية السوداء، ذلك أنها تضع العرب أمام خيارين: الاحتلال، البعيد عن التحديد، أو الاستسلام الطوعي الذي يلبيّ «سلام الصهيونية».

تتكشف الحرب، في التحديد الأخير، قدراً إسرائيلياً ثنائي الفضيلة: يكشف عن قوة الإنسان اليهودي المنتصر، القادر على ترميم ضعفه إن لم ينتصر في الجولة الأولى، ما جعل من حرب ١٩٧٣ حرباً أخيرة. لكن هذه الحرب، التي لا تأتلف مع الروح اليهودية، تكشف بدورها عن معنى السلام. فلولا الحرب اليهودية المنتصرة لما قبل العرب بالسلام، ولولا مآثرها لما أغوى الاستيطان الشباب اليهودي بتوسيع أرض إسرائيل من جديد!! لكأن في إسرائيل سراً جليلاً لا يستعلن إلا في زمن الحرب وبها. ولهذا نقرأ : «من المؤسف أن الحروب هي الدليل الوحيد على قوة القومية الإسرائيلية. يمثّل الانتصار المميّز عام ١٩٤٨ درجة الإرادة وحسن التخطيط اللذين تميّز بهما المجتمع الذي بنته الصهيونية في فلسطين خلال السنوات العشرين التي سبقت حرب الاستقلال. وانتصار إسرائيل المذهل عام ١٩٦٧ أظهر درجة التماسك والحداثة اللذين تمتعت بهما دولة الأمة التي صنعها بن غوريون خلال السنوات العشرين التي سبقت حرب الأيام الستة. ص: ٣٨٥». يبدو تعبير «من

المؤسف» زائداً، بسبب «قومية يهودية» تعيش بالحرب ومن أجلها تستعد للحرب قبل أن يكون لها دولة، وتعدّ لها العدّة، بضراوة أكبر، بعد أن تظفر بدولة كما لو كان زمن السلم هو زمن الحرب، وزمن الحرب هو زمن السلم الذي لا ضرورة له. يعلن المؤلف عن بصيرته اليهودية في الكلمات التالية: «في الشرق الأوسط، أي أمة لا يكون شبابها مستعداً للقتل أو الموت في سبيلها ، هي أمة تعيش في الوقت الضائع. ولن تعيش طويلاً. ص: ٣٨٤:» والسؤال البريء الضروري هو التالي: إن كان السلام عنصراً داخلياً في اليهودية، كما يقول المؤلف، فلماذا اختار اليهود منطقة جغرافية تفرض عليهم ما لا يؤمنون به؟

يُستهل فصل «السلام ١٩٩٣» بالشكل التالي: «مثل المستوطنات، كان السلام أيضاً، ثمرة من ثمار حروب ١٩٦٧ و١٩٧٣، في الخلاصة، الرغبة في السلام كانت دائماً جزءاً من الصهيونية». يأتي مباشرة سؤال بريء وضروري بدوره. إذا كان في السلام ما يساوي المستوطنات، وكانت المستوطنات فعلاً عدوانياً سافراً لا يفتقر إلى التعصب العنصري والنزوعات الفاشية، أليس السلام اليهودي، والحالة هذه لا يفتقر إلى العدوان والتعصب، ولا إلى ما يجعله سلاماً مناهضاً للسلام؟. إنها جماليات البلاغة مرة أخرى. كان اليهودي الألماني فالتر بنيامين يقول: تحوّل الشيوعية علم الجمال إلى سياسة،على خلاف الفاشية التي تحوّل السياسة إلى علم الجمال. يبدو أن مؤلف كتاب «أرض ميعادي» لا يتفق مع فرضية اليهودي الذي مات منتحراً، ويُعطي السياسة وعلم الجمال تعريفين لا يقبل بهما بنيامين.

يؤكد الكاتب «فلسفة السلام» في الفصل المعنون «المستوطنة، ١٩٧٥»، حين يكتب: «لا يستطيع المرء فهم المستوطنات دون فهم حرب الأيام الستة». قد يترجم الحس السليم هذه الكلمات بالشكل التالي: إن تمسك دولة إسرائيل بضم الأرض العربية، بعد ١٩٦٧، جعل من اغتصاب أراضي العرب منهجاً تربوياً صهيونياً، يسبق دعاوى إسرائيل زينغويل في ١٨٩٧ ويعقب عدوانية «غوش أمونيم» الكارهة لكل ما هو غير يهودي. غير أن شبيط، الذي يحوّل السياسة إلى علم جمال، يفتخر بالنصر الإسرائيلي المذهل» الذي يدعو إلى الفخار، ما جعل من المستوطنات «رد فعل نفسي لا يقاوم»، مثل رد فعل جده حين زار فلسطين ولم يرَ العرب. ينسى المؤلف التربية العدوانية ويتذكّر الحرب، الصانع الأول للذاكرة اليهودية، فيكتب من جديد: «كما أن المرء أيضاً لا يستطيع فهم موضوع المستوطنات دون أن يفهم حرب يوم الغفران». يشرح المؤلف ولادة المستوطنات بأربع كلمات كبيرة «من رعب الفناء إلى النصر المدوي»، عوضاً عن أن يشرحها موضوعياً بأسباب ثلاثة: التفوق العسكري الإسرائيلي المدعوم من الغرب، تداعي النظام العربي وعجزه عن نصرة الشعب الفلسطيني، وصورة العربي في الإيديولوجيا الصهيونية المسيطرة حيث هي مزيج من التخلّف والوحشية ومن «شهوانية الاغتيال»، بلغة المؤلف: إذا كان العرب يشتهون الاغتيال، فلماذا

لايشتهي اليهود قتل العرب وتدميرهم؟

يفترض في كتاب شبيط أنه يعالج الصراع الصهيوني ـ العربي، بلغة قديمة، أو الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، بلغة أكثر وضوحاً. بيد أن الكتاب، في منطقه الداخلي، لا يعترف بالعرب، فهم جنس من البشر بينهم وبين اليهود هوّة لا تقبل التجسير. ولذلك يرى القارئ آثار العرب، لا العرب، كما لو كانوا وسائل إيضاح تحتاجها الحقيقة اليهودية. آثار العرب ظاهرة في بيوت مهجورة في فلسطين، وفي هزائم عكسرية خارجها. ولعل تغييب العرب الفلسطينيين هو الذي أملى على المؤلف «تفسيره البسيط»، والجريء في بساطته، لقيام دولة إسرائيل، واستكماله الأكثر جرأة لتفسير المستوطنات الإسرائيلية فوق الأرض الفلسطينية.

يأخذ الفلسطيني صورة قوامها الاستهانة والتزوير والفكاهة السمجة: يظهر كأعشاب سامة في بيارات البرتقال، وكيد عاملة تقتلع الأعشاب الضارة، وكحفنة من الفقراء المرضى الذين يعالجهم الخير اليهودي، أو قوة غاشمة دامية في ثورة ٣٦-٣٩، وكمخلوقات غريبة تشبه الهنود الحمر (صورتهم خلال الثورة الكبرى ضد الإنجليز). غير أن الفلسطيني، فوق كل هذا، له دوره الشرير الذي أجبر اليهود على الحرب: «كان بن غوريون يأمل أن يرحل الفلسطينيون لوحدهم» عوضاً عن أن يزرعوا في روح اليهودي شعوراً بالإثم لا يريده، حال أهل اللد، الذين قتلوا أنفسهم، قبل أن يقتلهم اليهود في تموز عام ١٩٤٨. هكذا يتم تأثيم الفلسطينيين لأنهم لم يهربوا طواعية وأصبحوا «ضحايا» الحق اليهودي، محوّلين اليهود إلى ضحايا من نوع آخر، أي ضحايا ضمائرهم، ما يوزّع المأساة، بشكل متساوٍ، على العرب واليهود معاً.

تتكشّف فلسفة شبيط السلمية في فصل عنوانه: « شاطئ غزة، ١٩٩١». يلامس المؤلف انتفاضة ١٩٨٧، التي عمّت الضفة والقطاع، وأجبرت إسرائيل على فعل ما لا تفعله: «نقلت جيشها ودربته على التحوّل إلى قوة شرطية فاعلة». لولا الانتفاضة لما تحوّل «جيش الدفاع»، الذي أنجز عشرات المجازر، إلى قوة شرطية فاعلة، ولما رزح «آلاف المدنيين الفلسطينيين في مخيمات الاعتقال». ولكي لا يخطئ القارئ ويظن أن مؤلف الكتاب يتأسى على أحوال الفلسطينيين، يسارع الكاتب ويقول: «لقد كان اعتقالهم سبباً لتلويث صورة إسرائيل الديمقراطية. ص: ٢٦٧». لم يرحل الفلسطينيون طواعية، في البدء، وأجبروا جيش الدفاع على القتل، وانتفضوا بعد ثلاثة عقود و»لوّثوا» الصورة الديمقراطية لإسرائيل. والمطلوب من الفلسطينيين، في الأحوال جميعاً، هو «العبودية الطوعية»، التي تقيهم شرور السجن وتحفظ صورة الديمقراطية الإسرائيلية. مع ذلك فإن تعذيب الفلسطيني ، بأكثر من سبعين طريقة ، كما يعترف الكاتب، لا يجعله ، على مستوى المعاناة، مختلفاً عن الإسرائيلي. يكتب شبيط: «هذا السياج يحيط بالفلسطينيين والإسرائيليين على حد سواء، معاً وبنفس الوقت». تساوي

البلاغة العنصرية بين الضحية والجلاد دون أن تسأل لماذا احتل الإسرائيليون الضفة والقطاع؟ وما هو رعب الفناء الذي مثّله أهل غزة للمجتمع الإسرائيلي؟ والأرجح أن الكاتب الصهيوني يتدرّب على تسويغ الإرهاب الصهيوني بقدر ما يتدرب الجندي الإسرائيلي على إرهاب الفلسطينيين.

لا يسائل المؤلف تاريخاً دامياً أنتج ضحية وجلاداً،إنما يلجأ إلى عقيدة «رعب الفناء» : «عندما نهاجم علينا الرد...، ما أبقانا على قيد الحياة هنا هو استعدادنا لاستعمال القوة»، دون أن ينسى أن يضع جرائم الإسرائيليين على كاهل الفلسطينيين: «هذا أوصلنا إليه الفلسطنيون بانتفاضتهم: لقد حرمونا من وهم وجود احتلال محتمل!!»، أو «لقد سقطوا في فخنا وسقطنا في فخّهم.. ص: ٢٧٨». يتساوى فقراء غزة، الرافضون للاحتلال، وجنود الجيش الإسرائيلي الذين يمارسون الاحتلال، ويعاقبون الذين يتمردون عليه. تفضي عقيدة «رعب الفناء» إلى عقيدة تسويغ العنف الإسرائيلي الذي لاخطأ فيه، فإن أخطأ سارعت يهوديته إلى إصلاح خطأه.

يظهر التسويغ في هذا الكتاب الضخم، حوالي خمس مائة صفحة، في أشكال متلاحقة متكاملة: إن وجود إسرائيل استجابة لإرادة إلهية وانصياع قديم لحق إلهي واستئناف لحضارة مبدعة قديمة وإرضاء لدافع داخلي مشبع بالغموض ورد على وحشية فلسطينية، ودفاع مشروع عن الذات.. يتراءى في المنطق الدخلي للكتاب تلك القسمة الدينية الباترة التي تفصل بين المقدّس والمدنس وتفصل، تالياً، بين البطل اليهودي وحياة فلسطينية لا قيمة لها، كأن يذبح الصهيوني الفلسطيني في مدينة اللد ويأمر فلسطينياً آخر أن يحفر قبراً جماعياً ثم يطلق عليه النيران ليلتحق بغيره من الضحايا. في مقابل ضحية جماعية، محرومة من الظل والماء واللوذ بالمقدسات يأتي اليهودي القتيل مفرداً ، محدد الاسم، يشعل قتله «جنون اليهود»، كما حصل مرة في حيفا، دون أن يعي القارئ سبب الجنون، طالما أن المفرد القتيل كان يعلن عن وجوده مسلحاً قبل قيام «الدولة» وبعدها. لا يلبث الجواب أن يأتي من سؤال منتظر: كيف يقتل الذين لا وجود لهم يهودياً معترفاً بوجوده؟

سرد الكتاب في حكايات متلاحقة أشكال الوجود اليهودي المبدع، من القرن التاسع عشر إلى اليوم، دون أن تصطدم حكاياته إلا بعمّال عرب، لا وجوه لهم ولا أسماء، كما لو كان تاريخ فلسطين ، في أي زمن محتمل، تاريخاً يهودياً خالصاً. أعلن الكتاب عن فرادة اليهودي الجدير بالحياة بشكلين موسّعين: لو لم يقتل اليهودي غيره لما ولدت إسرائيل واستمرت في الوجود ما يرفع القتل إلى تخوم الواجب، ولو لم يكن اليهودي فريداً لما قتل غيره وانتصر.. لن تكون حكايات الكتاب، وتقع في سبعة عشر فصلاً ، إلا حكايات الإبداع المنتصر المتنوعة: المزارع، الصناعي، العالم، التقني، العسكري، الإداري، الأدبي، المصرفي، الذكوري والأنثوي معاً.

٤ـ المستقبل: هواجس إسرائيلية:

ربط المؤلف مسار إسرائيل بثنائية: الاحتلال والتهديد. أخذت إسرائيل بسياسات حافظت على الأرض وهزمت التهديد إلى أن تلامحت، في العقود الأخيرة، ظواهر لم تألفها، على المستويين الخارجي والداخلي: نقرأ: «سبعة دوائر من التهديد تحيط بنا: إسلامية، عربية، فلسطينية، داخلية، ذهنية، أخلاقية، وعلى أساس الهوية. ص: ٤٦٦». التهديد الإسلامي، والمقصود إيران، لا يزال موضوعاً للاجتهاد الإسرائيلي، أما العربي فلا يعني شيئاً كثيراً منذ أن أصبحت الأمة العربية «أشبه بخيول نافقة». يتبقى التهديد الفلسطيني المتزايد والخطر في تزايده الذي يترجمه التزايد السكاني واحتجاجات متتالية «تسئ إلى صورة الديمقراطية الإسرائيلية». لهذا يبدو التهديد، في معناه الحقيقي، إسرائيلي المصدر، وله عناوين كثيرة: تراجع الصهيونية العلمانية، تزايد النزعات الدينية المتعصبة، ذبول المثال الصهيوني القديم، ضعف الحكومة الإسرائيلية، المستوطنون الذين يشكلون دولة داخل الدولة، الإشكالية الديمغرافية، علاقة المركز بالشتات، عجز الدولة عن حل «المسألة الفلسطينية»، التي تبدو مستعصية على الحل.

يبدو المؤلف، في المطاف الأخير، متشائلاً: واثقاً كل الثقة من العبقرية اليهودية التي دحرت كل ما هدّدها، وغير واثق من مجيء السلام. كتب: «علينا أن عيش لأننا عادلون وأقوياء وعصريون. نعم إسرائيل صخرة وحيدة في محيط عاصف. لكن اليوم وبعد ست وستين سنة من ظهورها المذهل، تبدو هذه الصخرة أكثر صلابة من المياة الهائجة التي تحيط بها. إن إسرائيل مصممة على إصلاح نفسها. ولهذا السبب نحن لسنا مبدعين ومبادرين فحسب، ولكن أصليون، مباشرون، دافئون، حقيقيون، ومثيرون. ولهذا السبب العلاقات الإنسانية هنا استثنائية، والاتصال البشري مميّز ص: ٤٧٨». يمر المؤلف على وجوه من السلب كثيرة في المجتمع الإسرائيلي، محتفظاً بالاستثنائي الذي لا يشبه غيره، ما يجعل إسرائيل قادرة على الحياة متقدمة ومنتصرة، وقادرة على إصلاح ذاتها.

غير أن هذه «الاستثنائية»، التي لا يكفّ المؤلف عن تبيان وجوهها، لا تمنح الأخير ثقة بقدوم السلام، ولا ثقة بمستقبل مجتمعه، فتلك الثقة مرتبطة بالفلسطينيين الذين لم يغادروا أرضهم، والمرتبطة أيضاً بهؤلاء الذين غادروا ولم يغادروا. نقرأ: «أكثر ما يثير السخرية، أن معظم القرى الفلسطينية قد دمرّت، واحدة من القرى القليلة التي بقيت هي تلك التي تشكل الرمز المركزي للكارثة الفلسطينية، دير ياسين، ما زلت حجارتها الصامتة تروي الحكاية: ما كان هنا وما حصل هنا عندما أصيب اليهود بالجنون». وما أصابهم من جنون منتصر لا ينتهي: «فالأقلية العربية، التي تزداد عدداً وثقة، تهدد هوية إسرائيل كدولة للأمة اليهودية. إذا لم يحل هذا الموضوع قريباً، فإن الفوضى حتمية. ص: ٤٦١».

يبدو أن ما يبدأ بالجنون ينتهي به، وما ينتهي بالجنون لا يعرف السلام. فالسلام كما تقرّه الصهيونية وتعترف به لا يقبل به إلا الصهاينة، لأنها قامت على فكرة العدوان، واستمرت بها. كتب الإسرائيلي الفخور بمجازر جيشه وبمفاعله النووي وبجيشه الذي لا يقهر وبيارات البرتقال التي سرقها من الآخرين: «امتلكت إنجلترا كل ما لم نحصل عليه، وربما كل ما لن نحصل عليه أبداً: السلام.».

إشارات

١ـ ظهر كتاب شبيط أولاً باللغة الإنجليزية: My PROMISED LAND, Ari Shavit. Spiegol and Grau, 2013.
وأصدرته في اللغة العربية في ترجمة ممتازة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٨ (٤٨٦ صفحة).

2- ILAH PAPPE: Ten myths about ISRAEL VERSO, LINDON, 2017.
وصدر حديثاً باللغة العربية لدى المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ترجمة سارة ح. عبد الحليم.

٣ ـ ماري روجرز: رحلات ماري روجرز في فلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٣.

مفهوم التمكين في الشرط الفلسطيني

جميل هلال*

جزء هام من الخطاب التنموي المتداول، محليا وإقليميا ودوليا، يستخدم مفاهيم مستقاة من تاريخ وتجارب مستقرة وتسيطر إلى حد ملموس على مواردها الطبيعية وقادرة على التحكم، وإن بتفاوت، على اقتصادها وعلى إقليمها الوطني. وتشرف على حقولها المختلفة (السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية...) مؤسسات وطنية مستقلة إلى هذا الحد أو ذاك. الالتباس يبان عندما يجرى تبني مفاهيم تولدت في سياقات تاريخية ومجتمعية نمت في سياقات لها شروطها الخاصة التي تتطلب التدقيق والتمحيص عند استخدامها في سياق مختلف. من هذه المفاهيم مفهوم «التمكين» الذي شاع استخدامه في أدبيات التنمية.

نحو بلورة «نموذج قياسي» للتمكين

يرد التمكين في أدبيات التنمية الدارجة كمفهوم تشخيصي وسياساتي، إذ تتم رؤية التنمية البشرية باعتبارها عملية تمكين تقوم بتوسيع خيارات أو قدرات الناس. وبالتالي فإن حجب التنمية أو استلابها يعني تغييب أو تعطيل إجراءات التمكين. المسألة هنا ليست لغوية تستدعي التدقيق في مدلولات وأصول كلمة «تمكين» بما هي ترجمة لمفردة (empowermen) الإنجليزية، بل المطلوب التدقيق في مفهومها الشائع في الأدبيات الراهنة وفي استخداماتها في الشرط الفلسطيني تحديدا، وبالتالي مدى جدواها كأداة تحليلية وفي اشتقاق توجهات سياساتية منها.

يمكن تمييز أربعة أبعاد لمفهوم التمكين، يمكن أن تُشكل نموذجا «قياسيا» أو مفاهيميا في توصيف واقع الحال «التنموي» القائم في مجتمع ما في لحظة تاريخية معينة. ويشكل في الشرط الفلسطيني معينا

* كاتب وباحث - فلسطين

هاما في عدم إغفال قضايا جوهرية قد لا تبدو كذلك في شروط أو ظروف أخرى. وهذه الأبعاد هي:

أولا، التمكين الفردي، وهو ما يعني توفير شروط توليد وتجديد قدرات ومهارات أفراد المجموعة البشرية المستهدفة عبر توفير الفرص وأدوات إكساب الفرد المعارف والمهارات التي يحتاجها (أي رأسمال معرفي وثقافي ومهني)، وعبر إيجاد ما هو ضروري من روابط وأطر مختلفة (اجتماعية وسياسية ونقابية وثقافية ورياضية، وغيرها). ومن الواضح أن الأداة الرئيسية لتوليد القدرات الضرورية على صعيد الفرد هي مؤسسات التعليم بمستوياتها المختلفة ومؤسسات التدريب والتأهيل الفني والمهني المتنوعة، وكذلك مؤسسات البحث العلمي (المرتبطة بالجامعات والمعاهد أو خارجها)، والمؤسسات الثقافية (بالمعنى الواسع للثقافة) بما يحافظ على علاقة وثيقة وحيوية بين استهلاك المعرفة والثقافة وبين إنتاجهما. أما توليد «الرأسمال الاجتماعي» (أي أشكال مختلفة من التكافل الاجتماعي والعمل التطوعي والجمعي) فيتم، في العادة عبر التنظيمات السياسية والاتحادات والتعاونيات والنقابات والجمعيات والروابط والنوادي الثقافية والرياضية، وعبر الحركات الاجتماعية.

ثانيا، التمكين الذي يستدعي توسيع مجالات المشاركة، والمقصود هنا أولا، مشاركة الأفراد المباشرة في النشاطات المختلفة على الصعيد المحلي والموقعي، وثانيا، المشاركة غير المباشرة عبر ممثلين منتخبين وخاضعين بالتالي للمساءلة. ويفترض أن يتم توسيع حدود المشاركة لتشمل المشاركة في صياغة القرارات التي تؤثر على حياة الناس ومستقبلهم. من هذه، على سبيل المثال، قرارات حماية البيئة والتسلح والتنوع الحيوي وحماية حقوق الإنسان. ويترتب على المشاركة المباشرة وغير المباشرة، بما هي من حقوق المواطنة والإنسان، مسؤوليات وواجبات، كالمشاركة في الانتخاب والترشيح وفي احترام حقوق وحريات الآخرين، وفي المساهمة في بناء مجتمع تكافلي بكل ما يعنيه ذلك من مشاركة في الأنشطة والأعمال التطوعية، ومن انتساب إلى مؤسسات وتنظيمات وأحزاب ونقابات، أي ممارسة الحق في الانخراط في كل ما من شأنه أن يعزز ويوسع من المشاركة في الشأن العام، وفي تنمية وتجديد قدرات المجتمع وتعزيز دوره التضامني والتكافلي، وما يساهم في تنمية المعرفة والثقافة والفنون. وتشمل كذلك مسؤولية المقتدرين من أصحاب رؤوس الأموال في استثمار هذه لتوسيع فرص ومجالات العمل والمشاركة في الحياة الاقتصادية وبشكل يساهم في تقليص اللامساواة البنيوية ويوسع من قدرات وصمود المجتمع أمام التحديات المختلفة.

ثالثا، التمكين بما هو امتلاك لحقوق أساسية، أهمها الحقوق المنصوص عليها في المواثيق الدولية. وهي حقوق تخص الأفراد، بما فيها الحق في الحياة وفي التعليم والسكن الملائم والعمل والبيئة النظيفة والحياة الصحية المديدة وفي التمتع بالضمان الاجتماعي، والحق في التنظيم والتعبير عن الرأي والمعتقد. ومنها حقوق جماعية بما فيها حقوق أقليات أثنية، وقومية ودينية ونوع اجتماعية،

كما تخص حقوق مجتمعات بكاملها أو شعوب بمجموعها كحق تقرير المصير والتحرر من السيطرة الخارجية والحق في التنمية، وغير ذلك.

رابعا، التمكين بما هو في الجوهر العيش في مجتمع آمن ويعلي قيم الحرية والمساواة والتكافل. والمطلوب أن يشمل هذا ليس مجتمعا بعينه فقط بل وكهدف المجتمع البشري بأكمله وبحكم أن العولمة الرأسمالية باتت تشمل البشرية جمعاء. على الصعيد المرئي فهدف التمكين هو العيش بطمأنينة توفر الأمن الحياتي والغذائي والبيئي، وتوفير مستقبل آمن في مجتمع ديمقراطي عادل متحرر من التبعية والسيطرة الخارجية ومن تسلط فئة أو طائفة أو أثنية أو مجموعة بعينها داخلية وخالٍ من الاستغلال والفساد والاستبداد. مجتمع يمارس الفصل بين الحقلين السياسي والحقل الديني ويحترم استقلالية الحقل الثقافي كونه يدرك انه بدون هذا الفصل والاحترام لن تقوم قائمة لنظام ديمقراطي.

«النموذج القياسي» للتمكين الذي حددت مضمونه أعلاه يوفر أداة قياس لمدى التمكين المتحقق في مجموعة بشرية واحدة ويمكّن من المقارنة بين مجموعات بشرية مختلفة في لحظة تاريخية معينة ولقياس التحول الذي يجري على هذه خلال فترات زمنية مختارة، ليس فقط معايير اقتصادية كالدخل القومي وما شابه، بل وفق ما يتم عبره الفرد والمجتمع من فرص وحريات وإمكانات. بتعبير آخر لا جدوى من الحديث عن تنمية بشرية دون إبراز موقع هذه من الحقوق وفرص الحياة. ولا جدوى من الحديث عن تمكين أو تنمية دون ربطهما بتوسيع قدرات وخيارات البشر ومن توسيع مستدام لفرص حياتهم. ومن الواضح أن التمكين هو مسيرة لعمليات وتدابير متشابكة ومتصلة تتسع حلقاتها لتشمل البشرية كلها. كما أنه مفهوم يرتبط، بالضرورة، بمدى تطور العلوم والثقافة والفنون والحريات والحقوق والمسؤوليات والواجبات تجاه الذات والآخرين. وبالمعنى التاريخي لا يخص التمكين مجتمعات بعينها ويستثني مجتمعات آخري. فالتمكين يعني فيما يعني المساواة في فرص الحياة والحقوق للجميع وهذا يعني إزالة كل ما من شأنه توليد وإعادة إنتاج اللامساواة البنيوية.

وفي الحال الفلسطيني ينبغي توسيع المفهوم ليشمل ليس فقط المجتمع القائم في الضفة والقطاع، ولكل منهما سمات على درجة عالية من الخصوصية، بل ليشمل مكونات الشعب الفلسطيني الأخرى (كما تشير، على سبيل المثال، حملة مقاطعة إسرائيلBDS). كما يمكن التفكير في توسيع دائرة التمكين لتشمل العالم العربي، وهذا ما تحاول تقارير التنمية الإنسانية في العالم العربي تلمسه وتحديد شروطه وأدواته. كما يمكن أن يشمل البشرية بمجموعها، كما تسعى إليه تقارير التنمية الإنسانية التي تصدر عن هيئات الأمم المتحدة المختصة. وهذا أمر تتسارع ضروراته بفعل العولمة

الرأسمالية (النيوليبرالية) التي باتت تشمل، كما ذكرت، كل أرجاء المعمورة والتي يرافقها تطور سريع جدا لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات وأسلحة التدمير الشامل، ومخاطر تراكمية على المناخ والبيئة وشروط الحياة على كوكبنا الأرضي. العولمة الرأسمالية بصيغتها النيوليبرالية عمقت من اللامساواة في توزيع الثروة والسلطة في العالم ككل وعلى صعيد كل مجتمع من مجتمعاته. وهو أمر كانت له عواقب تدميرية شهدت منطقتنا فصولا دموية منها في السنوات الأخيرة. كما ترك توازنات إقليمية ودولية جديدة تحمل مخاطر شديدة على مستقبل المنطقة والعالم.

أدوات التمكين

تتباين عمليات التمكين وفق أدواتها وآلياتها، فبعضها تشرف عليه وتتولاه مباشرة مؤسسات الدولة الوطنية أو السلطة المركزية المشرفة كحماية الحريات والحقوق الأساسية للمواطن، وهذا أمر يستدعي استقلالية وتوازن السلطات الثلاث واحترام القانون وتساوي الجميع أمامه. وهي تشمل ضمان وجود خدمات عامة أساسية، كالتعليم والرعاية الصحية، سواء من قبل سلطة حكومية أو قطاع خاص أو مجتمع مدني. وبعضها تنظمه وتشرف عليه مباشرة مؤسسات المجتمع المدني وتشمل هذه مؤسسات ذات سمة تمثيلية كالاتحادات والنقابات والحركات الاجتماعية بشكل عام، أو تنظيمات ذات وظائف تعبوية وتغييرية تطرح رؤى مجتمعية كالتنظيمات والأحزاب السياسية، أو من قبل منظمات حقوقية كمنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان، أو مؤسسات تتولى توفير خدمات مختلفة إغاثية، وتنموية وثقافية ورياضية وترفيهية. كما أن بعض تدابير التمكين تتم عبر مؤسسات اقتصادية (سواء من القطاع الخاص أو العام) قد تستهدف تنمية الاقتصاد الوطني، وتحديدا قطاعاته المنتجة، كما قد تستهدف توفير العمل لأكبر نسبة ممكنة من الأيدي العاملة في المجتمع. وقد تتم من خلال دعم مؤسسات التعليم العالي ومؤسسات البحث العلمي والمؤسسات والأنشطة الثقافية ووسائطها بما ينمي الاعتماد على الذات وموارد المجتمع.

ما ورد يعني أن عمليات وتدابير التمكين لا تستهدف فقط فئات أو شرائح معينة كالفقراء أو النساء أو الأطفال أو المسنين أو مجموعات ذات احتياجات خاصة، ولا تتوجه لمناطق جغرافية معينة بل تأخذ بعين الاعتبار حاجات وتطلعات كل أفراد وفئات الشعب أو المجتمع المعني، وإن خصت فئات أو مناطق معينة بتدابير محددة، لكنها تنطلق من رؤية تستند إلى بناء المجتمع التضامني والقائم على العدالة والإنصاف والمساواة. هذا يعني، من ضمن ما يعني، أن لا تتم عمليات التمكين من خلال وجهة نظر رؤية تنظر إلى الأفراد أو الشرائح الاجتماعية أو المجتمعات المحلية باعتبارها «ذوات» مسلوبة

الإرادة والتفكير والتطلعات تقف بانتظار أن يقدم لها العون والمساعدة والإرشاد، بل باعتبارها «ذوات» فاعلة ومشاركة في علميات التمكين من خلال موقعها في المجتمع المحلي وفي الاتحادات والجمعيات والأحزاب والنوادي والمؤسسات والمنظمات الأهلية المختلفة التي قد تنتمي إليها. أي أن عمليات التمكين تتم عبر المشاركة في مؤسسات وأطر وحركات متعددة الوظائف والتكوين والانتماء.

مفهوم التمكين المقترح هنا يتطلب إحداث تحول موضوعي يشمل الأبعاد الأربعة السالفة الذكر، وأن لا يختزل أياً منها. كما لا يصح اختزاله إلى مجرد تحسين أوضاع فئات اجتماعية معينة لفترات قد تطول أو تقصر. فهذا قد يحدث بشكل طارئ أو مؤقت ونسبي يزول مع زوال المصدر أو المحرك، لأنه لا يملك بنية مستدامة. فالتمكين ينبغي أن يقاس بتحولات بنيوية قابلة للاستدامة والتجدد، ومرتبطة ببنية المجتمع ككل. كما ينبغي أن لا يستثني أي من فئات المجتمع حسب حاجات وظروف موقع كل من هذه (نساء، أطفال، شباب، مسنين، مناطق محرومة، عمال غير مهرة، وعاطلين عن العمل، فئات مهمشة، وغير ذلك)، وأن يشمل التمكين البنى الاقتصادية ومؤسسات الدولة والأحزاب وبنيتها والاتحادات والنقابات ودورها وسائر مكونات المجتمع.

يتجسد التمكين في أشكال التنظيم والوعي والنشاط للأفراد والمجموعات والتجمعات، وفي أشكال المشاركة في الحياة العامة. ومن مهام سياسات التمكين السعي الدائم لتقليص أشكال ومظاهر اللامساواة بين أفراد المجتمع وطبقاته وأقاليمه ومكوناته، ومن أبرز تجلياته تنامي قدرات المجتمع ومؤسساته على التصدي للتحديات والكوارث الطبيعية والبشرية الصنع واعتماد سياسيات مستقلة. فعلى سبيل المثال لم ينعكس انخفاض نسبة الإفقار في الضفة والقطاع - كما حصل في النصف الثاني من عقد التسعينات – في تنمية ملموسة في المجتمع الفلسطيني في الضفة والقطاع كونهما بقيا تحت الاحتلال الاستيطاني، ومعرضان، بالتالي، إلى الانتكاس السريع سواء فيما يخص هذا المؤشر (الإفقار) أو غيره كالبطالة. كما لم يترتب عليه تحسن في واقع الحريات والحقوق، والمشاركة السياسية، ولا في مشاركة الأفراد في صناعة القرار أو في تنامي قدرات المجتمع على مساءلة قيادات مؤسساته وبخاصة مؤسساته العامة وفي انتخاب وتغيير قياداته المنتخبة، ولا في تحصين حرية الصحافة والإعلام والوصول إلى المعلومات. لقد حدث تراجع في هذه المجالات جميعا خلال سنوات الانتفاضة الثانية بحكم طبيعة التدابير القمعية والعقابية التي اتخذتها دولة الاستعمار الاستيطاني العنصري، والتي أدت لتراجع معظم نواحي الحياة في المجتمع الفلسطيني، والتي لم تقتصر على ارتفاع في معدلات الإفقار والبطالة، بل شملت تعميق التجزئة والتفتيت وزيادة في القيود الاقتصادية والأمنية والإدارية. وتكفي الإشارة إلى الحروب الثلاثة التي شنتها إسرائيل على قطاع غزة وحصارها له وما نتج عنها من خسائر بشرية عالية وتدمير مادي مخيف. هذا بالإضافة

إلى وقع الانقسام على المشروع الوطني التحرري.

التمكين ليس عملية تكنوقراطية ولا إدارية ولا نخبوية ولا متخارجة

لا يصح التعاطي مع التمكين باعتباره عملية أو سلسة عمليات تكنوقراطية يتولاها خبراء أو فنيين أو اختصاصين، ولا باعتباره شأنا إداريا يتولاه موظفوا الدولة أو القائمون على المنظمات غير الحكومية أو قادة منظمات المجتمع المدني دون استشارة ومناقشة أو مشاركة الناس المعنيين أصلا. فمثل هذا التوجه يعكس نفسا نخبويا، ويفترض سيادة نزعة اتكالية لدى الناس تعزلهم عن الهدف وتسلبهم وسائل التمكين وإمكانية تحسين فرص حياتهم. فالتمكين ينهض من خلال الوعي (الرأسمال العلمي والثقافي) والتنظيم (الرأسمال الاجتماعي والسياسي الديمقراطي) وعبر اكتساب مهارات واختصاصات متنوعة، وجميع هذه تفترض المشاركة وتوسع وتنمي من أدواتها وأنواعها.

ولا يصح افتراض أن التمكين (بما هو تغيير لواقع قائم) لا يتم إلا من خلال التوافق والحوار بين القوى المعنية. ففي الكثير من الأحيان، وهذا ما تقترحه التجربة التاريخية، لا يتم التوصل لشروط ملائمة لعمليات التمكين إلا بعد صراع واعتماد أشكال مختلفة من الحراك والمقاومة (كالإضراب، والمسيرة، والمظاهرة، والعصيان المدني، والمقاومة السلمية والثورة الشعبية والمقاومة المسلحة إن دعت الضرورة وعبر أشكال من المواجهة الفكرية والثقافية). ولعل هذا يعود لسببين رئيسيين: يتمثل الأول في كون المجتمع، أي مجتمع، يضم فئات وشرائح وطبقات متباينة المصالح والرؤى والتوجهات، ومتباينة من حيث ما تملكه من ثروة وسلطة ومعرفة. بتعبير آخر تعدد المصالح والرؤى والتوجهات في المجتمع قد يتولد عنها ميل الفئة المسيطرة والمتنفذة اعتماد سياسات وإجراءات تراعي مصالحها بالأساس (القومية أو الطبقية أو الأثنية أو الدينية أو الطائفية أو الحزبية أو العشائرية) قبل مصالح الفئات الأخرى. ومن الطبيعي أن يتولد عن هذا أشكال من الاحتجاج والتظاهر والضغوط والمقاومة المتعددة الأشكال رافضة لهذه السياسة. ويتمثل السبب الثاني في حالة الصراع التي تنشأ عن خضوع مجموعة بشرية لسيطرة خارجية قد تأخذ أشكالا مختلفة، نجد أشدها في الحالة الفلسطينية حيث أخضع الفلسطينيون في الضفة الغربية لنظام استعماري استيطاني عنصري وتسييج في معازل («باتنتوستانات» أو «غيتوات»)، ووضعوا في قطاع غزة تحت حصار إرهابي وممارسة إبادة جماعية بطيئة، ويقع الفلسطينيون في الأراضي التي احتلت عام ١٩٤٨ لنظام تمييز عنصري له سمات «أبارتهياد»، ويحرم الفلسطينيون في الشتات من حق العودة والعديد منهم من حقوق مدنية وإنسانية.

تغيير الواقع الذي تعيشه مكونات الشعب الفلسطيني وصولا لممارسة حقه في تقرير المصير في وطنه يحتاج أشكالا متنوعة من المقاومة. ومن البديهي القول أن المقاومة الأنجع هي تلك التي تنتج ميزان قوى جديد يفرض على المستعمِر التراجع عن سياساته ومساند لتحرر المستعمَر، وممارسته لحق تقرير المصير.

التمكين فلسطينيا؛ المقاومة الشعبية بأشكالها المتنوعة كأداة تمكين جماعية

لا يستقيم، إذن، فصل عمليات التمكين في الشرط الفلسطيني عن المقاومة شرط ما دامت تبعد عما يحول الجمهور الفلسطيني (والمتضامين معه) إلى جمهور لا دور له سوى الترقب، وتحمّل تبعات سياسات لم يشارك في صنعها والموافقة عليها. لقد أثبتت المقاومة الشعبية المنظمة نجاعتها في الانتفاضة الأولى كما في انتفاضة القدس العام المنصرم وفي مسيرات العودة وإنهاء الحصار في قطاع غزة خلال العام الحالي. كما ظهرت نجاعتها في مجتمعات متباينة النظم التسلطية إذ ينطبق الربط بين التمكين والمقاومة الشعبية على المجتمعات التي تعاني من استعمار داخلي حيث تتسلط فئة صغيرة على مقدرات الشعب والدولة وقراراتها المصيرية.

وتشير التجربة النضالية الفلسطينية أن أحد الشروط الضرورية، وإن غير الكافية، لفعالية المقاومة كأداة تمكين هو استنادها إلى قاعدة جماهيرية منظمة، أي إلى جمهور يشارك، حسب وضع فئاته ومؤسساته وإمكاناتها في المقاومة وفي صياغة إستراتيجيتها وأهدافها. وهنا تظهر أهمية الأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية في عمليات التغيير بما في ذلك في تنظيم المقاومة والانخراط في صياغة أهدافها وأدواتها، واعتمادها الأسس الديمقراطية في تنظيم صفوفها.

هناك رأي أن الاحتلال الكولونيالي الاستيطاني الإسرائيلي للضفة والقطاع والقدس غير قادر على تعطيل عمليات التمكين في هذه الأراضي ولا في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨. مدى صحة أو خطأ هذا القول تقرر وفق مضمون التمكين الذي يتم اعتماده. فالبعض يختصر التمكين في عملية إجراء إصلاح لأجهزة ومؤسسات السلطة الفلسطينية، والبعض الآخر يختصره في إجراء انتخابات عامة تجدد القيادة وتمنحها الشرعية التي فقدتها مع تأخر الانتخابات الرئاسية والتشريعية، والبعض يختصر التمكين في قيام مجموعات صغيرة مدربة تدريبا لعمليات استشهادية أو قصف لمواقع إسرائيلية تتولى خلق «توازن رعب» يمنح الطرف الفلسطيني ميزات لا تتوفر بوسائل المقاومة الشعبية السلمية. ويراهن بعض آخر على إستراتيجية تقوم بالأساس على التفاوض تتولاه قيادة سياسية ودبلوماسية باعتبار بأن لا طريق آخر في ظل موازين القوى المحلية والإقليمية والدولية

الراهنة. والبعض يرى أن التمكين يتجسد في الثبات على الأرض الفلسطينية عبر توفير مقومات الصمود، ويرى أن التوازن السكاني القائم (عدد الفلسطينيين في فلسطين التاريخية بات حاليا يعادل عدد اليهود الإسرائيليين) هو الذي سوف يفشل المشروع الصهيوني في استكمال استعمار واستيطان أرض فلسطين وتشريد سكانها. البعض يركز على منع انهيار السلطة، وهناك من يرى شرط التمكين هو إعادة بناء منظمة تحرير على أسس تمثيلية (للكل الفلسطيني) ديمقراطية بديلا عن التركيز على مؤسسات السلطة التي باتت محاصرة كسلطة حكم ذاتي إداري على أجزاء صغيرة من الأراضي الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٦٧.

بتعبير آخر تتوزع استراتيجيات التمكين في التفكير الفلسطيني السائد في المرحلة الراهنة إلى ثلاث إستراتيجيات رئيسية، وإن تفرع عنها استراتيجيات تجمع بين عناصر من هذه الاستراتيجيات الثلاث، وهي: إستراتيجية صمود وبقاء، وإستراتيجية مقاومة وإستراتيجية تفاوض. ولذا فإن رؤية كل منها للتمكين مصاغة لخدمة الإستراتيجية التي تتبناها في مواجهة إسرائيل بشكل رئيسي. ورغم التباين بين هذه الاستراتيجيات إلا أنها تتفق على ضرورة إزالة الاحتلال عن الضفة والقطاع وإقامة دولة فلسطينية مستقلة عليها وعاصمتها القدس الشرقية، دون التفريط بحق العودة. ليس من مهام هذا المقال مناقشة الاستراتيجيات الفلسطينية الأنسب لمواجهة إسرائيل كاستعمار استيطاني يمارس التمييز العنصري والتطهير العرقي ضد الشعب الأصلي لفلسطين، إذ تنحصر وظيفة المقال في مناقشة وتوضيح مفهوم التمكين ووضعه في سياق الشرط الفلسطيني على أن يشمل الكل الفلسطيني وليس فقط الجزء المقيم في الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧. ولذا فإن الأشكال الأنجع لمقاومة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ستخضع للنقاش والتداول على ضوء واقع كل مكون من مكونات الشعب الفلسطيني وسمات النظام السياسي المتواجد فيه.

إعادة بناء الحقل السياسي الوطني شرط أولي للتمكين الجامع

من تداعيات العولمة النيوليبرالية سيادة نظرة للمجتمع كمجموعة من الأفراد وحسب. وبالتالي فمفهوم التمكين لا يخرج عن تمكين الفرد أولا وأخيرا وباعتماد ما يوفر له موقعه الطبقي والخاص من إمكانات وفرص حياة، وتحديدا من نفقات تعليم وتأهيل ورعاية صحية، وهذه الإمكانيات باتت تتعرض للخصخصة وفق توجيهات السياسة النيوليبرالية التي تمنح القطاع الخاص (الرأسمال الخاص) الموقع الرئيسي في إدارة المجتمع والاقتصاد، وتعطي الدولة أو السلطة المركزية دور الحارس والكفيل للرأسمال الخاص. ما يغيب هنا هو دور البنى والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية

والسياسية والثقافية والقرابية التي تحدد فرص حياة الفرد منذ لحظة ولادته حتى لحظة وفاته. وتجدر الملاحظة هنا أن الفرد يرث أو يورث لغة وتراثا وثقافة معينة، وهو يولد في حقل سياسي له سماته الخاصة، وفي موقع جندري (نوع اجتماعي) وفي مكان معين له خصائصه وإمكاناته. وقد يولد دون أن تكون له دولة وطنية تخصه كما هو حال الشعب الفلسطيني حيث تعيش مكوناته في حقول سياسية متباينة الخصائص والشروط. كل هذه تترك تاثيراتها على فرص ومسيرة حياته.

في الشرط الفلسطيني، بالإضافة إلى موقع الفرد الطبقي ونوعه الاجتماعي (الجندر)، وموقعه السكني، هناك الشرط السياسي التاريخي المتمثل في نكبة الشعب الفلسطيني المستمرة منذ ما قبل العام ١٩٤٨ وحتى اللحظة. وقد ترتب على هذا الشرط تواجد التجمعات الفلسطينية في أوضاع ما زالت تتأثر، بشكل مباشر أو غير مباشر، بالواقع الذي تولد عن النكبة والقيود المفروضة على إقامة مكونات الشعب الفلسطيني في فلسطين التاريخية وخارجها. وهو واقع يمنح أولوية للصراع ضد القوى التي تقف ضد ممارسة الشعب الفلسطيني حريته وتقرير مصيره.

تشترط الإستراتيجية التمكينية (بالمعنى الوارد في المقال) للشعب الفلسطيني إعادة بناء حقله السياسي الوطني الجامع على أسس ديمقراطية وتمثيلية. هذه باتت مدخلا ضروريا لمواصلة نضاله التحرري بعد أن جرى تفكيك هذا الحقل على أثر اتفاق أوسلو حيث انصبت الجهود على بناء مؤسسات سلطة حكم ذاتي باعتبارها نواة مؤسسات الدولة الفلسطينية المستقلة. وقد استكملت حماس تفكيك هذا الحقل عند تفردها بالسيطرة على قطاع غزة وفرض سيطرتها عليه في منتصف العام ٢٠٠٧. وهكذا تفكك الحقل السياسي الوطني إلى حقول فرعية وفق مكوناته الجغرافية-السياسية (فلسطينيو الضفة الغربية، فلسطينيو القدس الشرقية، فلسطينيو قطاع غزة، فلسطينيو ٤٨، فلسطينيو الأردن، وفلسطينيو الشتات أو المنافي).

إعادة بناء الحقل السياسي الوطني يعني إعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية لتمثل الكل الفلسطيني ولتمثل كل مكوناته السياسية والقطاعية والمهنية على أسس ديمقراطية علمانية وطنية. لقد أوجدت منظمة التحرير، رغم ما شاب تجربتها من نواقص وثغرات، حقلا سياسيا موحدا أتاح ازدهار الوطنية الفلسطينية وتوليد لغة سياسية موحدة بين مكونات الشعب الفلسطيني وحمى التنوع الأيديولوجي والتنظيمي وأجاز التباين في الرؤى الإستراتيجية وحافظ بالتالي على وحدة الشعب الفلسطيني الكفاحية.

لكن منظمة التحرير بتشكيلها وفهمها السابق لم تعد قادرة على أداء الدور الجديد المطلوب منها دون تجديد فعلي. لأسباب عدة، منها تشكيل سلطة حكم ذاتي على أجزاء من الضفة والقطاع

تحت سيطرة نظام استعماري استيطاني، ومنها تغييب اتفاق أوسلو لفلسطينيي الأرض المحتلة عام ١٩٤٨ وفلسطينيي الشتات، ومنها اقتحام الحقل السياسي الفلسطيني من قوى تشكلت خارج منظمة التحرير (من جماعة الإخوان المسلمين) لها برنامجها السياسي والفكري المتميز، ومنها انتقال مركز الفعل الوطني الفلسطيني من الشتات إلى أرض فلسطين التاريخية حيث يقيم نصف الشعب الفلسطيني تحت سيطرة نظام استعماري استيطاني يمارس الفصل العنصري. ومنها وصول المفاوضات الثنائية، بإشراف الولايات المتحدة، لطريق مسدود تماما، وانغلاق فرص قيام دولة فلسطينية مستقلة على الأراضي الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٦٧، ومواصلة إسرائيل سياسة سلب الأرض والاستيطان والتهويد والتنكيل والاعتقال والقتل وبناء الجدران العازلة وحصار غزة وعزلها عن الضفة الغربية وعزل كليهما عن القدس، والسيطرة على الموارد الطبيعية والأجواء والمعابر والاقتصاد وحركة البضائع والأفراد. لقد بات الشعب الفلسطيني بدون دولة وطنية مستقلة وبدون حركة تحرر وطني جامعة وفاعلة بمؤسسات وطنية ديمقراطية قائمة على الفصل بين الحقل السياسي والحقل الديني (حيث لكل لغته ومرجعياته ومؤسساته وأدواته وطقوسه) وهو ما كان قائما في منظمة التحرير قبل أوسلو.

بعد تفكك حقله السياسي الوطني بات الشعب الفلسطيني يعيش في تجمعات منعزلة سياسيا وجغرافيا واقتصاديا وإداريا عن بعضها البعض. وهذا أمر، بالترافق مع أمور أخرى ليس هنا مجال التطرق اليها، ضاعف من انكشاف هذه التجمعات لمخاطر عدة سواء من الدولة الاستعمارية الاستيطانية العنصرية أم من قوى أخرى حيث تقيم هذه التجمعات، كما شهدنا في العقود الثلاثة الأخيرة (في الكويت ولبنان، وسوريا، وغزة والضفة والقدس والنقب والجليل وغيرها). الشرط الضروري (وإن غير الكافي) لمواجهة حالة الانكشاف الشديد هذه هو إعادة بناء الحركة الوطنية الفلسطينية على الأسس الديمقراطية والتمثيلية الوارد أعلاه، باعتبار هذه من أدوات تمكين تجمعات الشعب الفلسطيني المختلفة من جهة والكل الفلسطيني من جهة أخرى، كونه يسهل من خلق وشائج وعلاقات متبادلة بين هذه التجمعات تتولى إسناد الوطنية الفلسطينية التي حافظت على حيويتها رغم تفكك حقلها السياسي الوطني الموحد بسبب حيوية الحقل الثقافي الفلسطيني وتواصل تعرض الشعب الفلسطيني للنكبة والتمييز والتشرد واستلاب حقوقه الإنسانية والوطنية والتاريخية، ومواصلته النضال من أجل حقوقه التاريخية والراهنة في أماكن تواجده المختلفة.

هناك، بشكل عام، مؤسسات وقوى وتنظيمات وأطر ونشاطات تولّد وشائج بين أفراد ومؤسسات المجتمع الواحد (تنتج بالتالي رأسمال اجتماعي وثقافي)، وهي؛ المؤسسات الوطنية الجامعة (منظمة التحرير حتى تشكيل السلطة الفلسطينية) والأحزاب السياسية والحركات الاجتماعية والأطر

والنشاطات الثقافية والبرجوازية الوطنية.

تاريخيا تولت البرجوازية الوطنية، بإسناد من الدولة القومية (الوطنية) مهمة تنشئة اقتصاد وطني عبر خلق سوق موحد للعمل والإنتاج والتوزيع. ونتيجة لاستعمار فلسطين وإخضاعها للتطهير العرقي وما تعرض له أهلها منذ النكبة، لم يكن ممكنا نشوء برجوازية وطنية بسبب غياب المجتمع الواحد والدولة المستقلة على إقليمها الوطني. ومن هنا غلب على هذه البرجوازية السمة المحلية والعائلية أو المعولمة. ومع بدء تشكل نواة برجوازية وطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال النصف الثاني من التسعينات، اعتمدت الدولة المستعمِرة المحتلة تجزئة هذه الأراضي وتشديد السيطرة الأمنية والاقتصادية عليها وتعطيل أي جهد لبناء بنية تحتية حاضنة لاقتصاد وطني. هذا الواقع لا يلغي الحاجة لتشييد اقتصاد مقاوم يربط بين هذه الأراضي وبين الأنشطة الاقتصادية الفلسطينية في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ والاقتصاديات العربية والإقليمية.

كان للاتحادات القطاعية والشعبية وللنقابات العمالية والمهنية دورها الهام في توليد الترابط بين التجمعات الفلسطينية قبل الانتفاضة الأولى وخلالها. وهي تولت هذا الدور استنادا إلى كونها تشكلت كأذرع لمنظمة التحرير وفصائلها الرئيسة في الخارج وكواجهات للمنظمة وفصائلها في الداخل المحتل حيث كانت المنظمة وفصائلها مطاردة من إسرائيل. لكن دورها هزل وغاب بعد اتفاق أوسلو ونشوء السلطة الفلسطينية، إذ هي فقدت دورها وجمهورها السابق دون أن تكون لنفسها دورا جديدا بعد أن غابت عنها الاستقلالية التنظيمية والمالية والديمقراطية الداخلية وبحكم فصائلية تكوين هيئاتها القيادية. لقد فقدت قاعدتها الجماهيرية وقدرتها على التمثيل الأفقي وعلى توليد روابط جدية بين القطاعات والفئات والمهن التي عليها تمثيل مصالحها وتطلعاتها. حاليا يشكل الطلبة الجامعيون الاستثناء الوحيد تقريبا، لكن تشكيلهم قائم على أساس الجامعة الواحدة (أي محلي) وليس على أساس وطني، مما لا يؤهل مجالس الطلبة في الجامعات الفلسطينية لأن تكون المحرك لروابط وطنية في مواجهة عملية التفتيت والتجزئة الجارية. نحن أمام حاجة لتفكير جديد يعيد إحياء الروابط والاتحادات والنقابات الوطنية كحركات وطنية جامعة.

للأحزاب والتنظيمات السياسية دور هام ومؤثر على صعيد بناء صلات وروابط بين التجمعات الفلسطينية المختلفة رغم التجزئة الجغرافية. فللأحزاب الأدوات التنظيمية والفكرية وتطرح برامج سياسية قد تجمع بين مصالح وتطلعات هذه التجمعات. لكن إنجاز هذا يشترط أن تنشط الأحزاب السياسية في نطاق حقل سياسي وطني موحد - من حيث اللغة والأهداف والاستراتيجيات وتنظم العلاقة بين قواه السياسية - يحترم التعددية السياسية والفكرية وأسس الديمقراطية ويلتزم بالأهداف المشتركة. والواقع أن المسؤولية الأولى في بلورة حقل سياسي وطني تقع على عاتق الحزبين أو التنظيمين

السياسيين الأكبر (حركتي فتح وحماس) واللتين تحظيان، حتى اللحظة (ووفق استطلاعات الرأي)، بتأييد ما لا يقل عن نصف الجمهور الفلسطيني في الضفة والقطاع. أما التنظيمات الأخرى الصغيرة (إذا ما استثنينا الجهاد الإسلامي والتي من المتوقع أن يبقى تحالفها مع حركة حماس للتقارب في الأيديولوجية والبرنامج) والتي شكلت جزءا من منظمة التحرير فلم تعد تحظى بتأييد ٥٪ من هذا الجمهور، ونمو دورها مرهون بقدرتها على صياغة ما يميزها عن التنظيمين الكبيرين واستعدادها لبناء أطر توحيدية تجعلها قادرة على الحضور المؤثر في الحقل السياسي الوطني.

تنشيط دور التنظيمات السياسية في توليد روابط بين التجمعات الفلسطينية يشترط تفعيل الديمقراطية في حياتها الداخلية وبينها وبين الجمهور الأوسع، والتخلي عن سياسة تخليد قياداتها وموسمية عقد المؤتمرات وتكريسها للمركزية البيروقراطية في العلاقة بين أعضائها. ما حدث بعد اتفاق أوسلو لم يساهم في تعزيز الديمقراطية الداخلية في التنظيمات السياسية الفلسطينية، بل ازدادت ظاهرة مركزة صنع القرار وحصره بيد عدد قليل من الأفراد. وسبب ذلك في أن التنظيمين الأكبر تحولا إلى سلطتين حاكمتين (واحدة في الضفة وأخرى في غزة) مع بقاء سيطرة الدولة الاستعمارية، وبسبب اعتماد، وبشكل رئيسي، كل من السلطتين على المساعدات والتحويلات المالية الخارجية وبسبب فشل إستراتيجية كل منهما في تطوير وقيادة الحركة السياسية الفلسطينية، التي قادا إلى انقسامها.

للثقافة بمفهومها الواسع (شعر، قصة، رواية، فيلم، فيديو، لوحة، صورة فوتوغرافية، مقال، بحث، مسرحية، أغنية، قطعة موسيقية، رقصة، ومنحوتة ونقش، وغير ذلك) دور حيوي في تفعيل وإدامة التفاعل بين تجمعات الشعب الفلسطيني. فمعظم مكونات الحقل الثقافي قادر على تخطي قيود وحواجز الجغرافيا السياسية وموازين القوى العسكرية والاقتصادية والديموغرافية. ولذا فالثقافة في الشرط الفلسطيني، وهي بصفتها الغالبة ثقافة ديمقراطية علمانية تحررية، مكانة خاصة في توفير وسائل التعارف والتفاعل بين التجمعات الفلسطينية المختلفة وفي حفظ وإثراء الرواية التاريخية الفلسطينية بفصولها المتعددة وواقعها المستمر. هذا يعني السعي لتوفير وسائل التواصل الثقافي بين المؤسسات والأفراد داخل فلسطين التاريخية وبين هذه وتجمعات الشتات الفلسطيني. وللحقل الثقافي الفلسطيني مكانة خاصة كونه جزءا من حقل ثقافي عربي أوسع، مما يعني أن تأثيره أوسع بكثير من الوزن السكاني للتجمعات الفلسطينية، مع الآخذ بعين الاعتبار أن الأخيرة لها امتداداتها في القارات الخمس.

ياسر عرفات: بنّاء الجسور الذي استعاد الإسم

عزيز العصا

مقدمة

لا شك في أن الحديث عن ياسر عرفات يضع المتحدث أمام مسؤوليات تاريخيّة كبيرة؛ فهو رجل المهمات الصعبة، وهو صانع الصعوبات ومذلّلها في آن معًا. كما أن الكل يكون رقيبًا على حديثك؛ فياسر عرفات يتمتع بمكانة في نفوس معارضيه، لا تقل علوًّا وشموخًا عنها في نفوس مؤيديه. فمعارضوه اختلفوا معه ولم يختلفوا عليه، ومؤيدوه اتفقوا معه واتفقوا عليه. ووفق هذه المعادلة نجد أن هناك إجماعًا، لدى الشعب الفلسطيني على الأقل، في الاتفاق على هذا القائد وعدم الاختلاف عليه.

ولعلّ أوضح صورة لهذا الرجل كانت لحظة وداعه إلى مثواه الأخير؛ عندما تجلى الأثر الذي تركه في حياة شعبه بحجم لم يسبقه فيه أحد. ففي تلك اللحظة قرأنا حجم ذلك القائد البراغماتي العملي، الذي لا يلتفت لما يقوله النقاد حول سلوكياته وتصرفاته، وإنما وضع نصب عينيه هدفاً واضحاً، لا لبس فيه، وهو «وضع فلسطين على الخريطة الجيوسياسية»، بعد أن كادت تذوب بين مطارق المتآمرين على الشعب الفلسطيني ووجوده وهويته، على المستويات الدولية والإقليمية والعربية.

لقد اشتهر الشهيد ياسر عرفات بالقدرة الفائقة على التحرك بين الألغام، دون أن يتمكن منه العدو، كما قاد مركب الشعب الفلسطيني، بأحزابه وطوائفه وشرائحه المجتمعية كافة، دون أن يغرق أو يُغرق من معه. كما أنه كان ذا بصر وبصيرة تمكنه من رؤية ما وراء الأفق، كما تمكنه من قراءة الممحي في سلوكيات وتصرفات قادة العالم وزعمائه، الذين تعامل معهم. إذ كان، رحمه الله، لا يكل ولا يمل في محاولاته الدؤوبة من أجل استقطاب الأنظمة والمؤسسات والشخصيات لصالح القضية

* كاتب - فلسطين

العادلة للشعب الفلسطيني، الذي يسعى إلى العودة والدولة وتقرير المصير.

إذا كانت هذه بعض من سمات وصفات وخصائص القائد ياسر عرفات، وفق آراء مراقبين لم يتعاملوا معه مباشرة، فإن لمن رافقوه وعايشوه وعاشوا معه توثيقا لحياته اليوميّة، وانفعالاته وتفاعلاته، وإدارته للأزمات، وما أكثرها في حياة ياسر عرفات الصاخبة.

لقد قدر لي الاطلاع على ما كتبه قادة فلسطينيون عملوا تحت إمرة ياسر عرفات مباشرة، وهم: أحمد عبد الرحمن، وشفيق الحوت، ويحيى يخلف. فلكل من هؤلاء صولات وجولات في الحديث عن ياسر عرفات في مذكراته، ما عدا يخلف الذي لم ينشر مذكراته حتى تاريخه، وإنما استندت إلى ما كتبه في الذكرى الثالثة عشرة لاستشهاد قائده ياسر عرفات.

أحمد عبد الرحمن: أينما يُذكر ياسر عرفات.. يعود جنديًا خلف قائده

أحمد عبد الرحمن؛ هو ذلك القائد الفلسطينيّ الذي عمل إلى جانب ياسر عرفات، لمدة زمنية طويلة، ولأنه مستشاره الإعلامي، لم يكن الرجلان ليفترقا كثيرًا. أصدر «عبد الرحمن» مذكراته في كتابيْن، عن دار الحرية، يحملان إسم ياسر عرفات، هما: الأول: «عشت في زمن عرفات» في العام ٢٠١٤، والثاني: «عرفات حياته كما أرادها» في العام ٢٠١٦. وقد قدِّر لي البحث المعمّق في ثنايا هذيْن الكتابيْن، لأجد «ياسر عرفات» يتحرك بين السطور، بل يحرك حروفها وكلماتها ليصوغ منها تاريخ مرحلة صاخبة من حياة الشعب الفلسطيني. وأما الصور التي اجتهدت بالتقاطها في رؤية «عبد الرحمن» لقائده، فتتلخص فيما يأتي:

أولًا: ياسر عرفات: الجذور التاريخية.. والقائد الصلب

تعود الجذور التاريخية لشخصية «ياسر عرفات» إلى طفولته المبكرة ومرحلتي صباه وشبابه التي شهدت النكبة، ساعة بساعة ويوماً بيوم، فقد عاش الدمار والموت والمجازر والتشريد القسري لشعبه، وغياب القيادة والوحدة والقوة الذاتية، أمام عدو أعد عدته للحرب والعدوان منذ زمن بعيد، ومارس عشرات المذابح بحق شعبه، حتى أن بيغن يتحدث عن واحدة منها، وهي مذبحة دير ياسين، فيقول: «كانت قواتنا تتقدم في البلدة كما السكين في الزبدة». أما شعبه فقد تم تجريده من السلاح، ونفيت قيادته ومنعت من اتخاذ القرارات الوطنية، وإن اتخذ القرار فإنه يخضع للوصاية الرسمية.

عاش ياسر عرفات مهزلة الحرب ومأساتها التي أعلنتها سبع دول عربية، بعد إعلان قيام إسرائيل في ١٥ أيار ١٩٤٨، حيث أضاعت هذه الحرب (الوهمية) فلسطين، وقررت الوصاية الرسمية ضم الضفة الغربية للأردن، ووضع قطاع غزة بإمرة حاكم عسكري مصري، ولم يمض وقت طويل حتى

شُطبت فلسطين من خريطة الشرق الأوسط ومن الأمم المتحدة وأصبحت قضية لاجئين، وأنشأت لهم الأمم المتحدة وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين. فبادر ياسر عرفات على الفور إلى الالتحاق شاباً يافعاً بالجهاد المقدس، الذي تم تجريده من سلاحه لاحقًا، ثم تلقى التدريب مع طلاب الجامعات المصرية، وحمل رتبة ضابط احتياط في الجيش المصري(١).

أدرك «ياسر عرفات»، مبكرًا، ضرورة حمل الشباب الفلسطيني للسلاح دفاعًا عن فلسطين؛ فقام بتدريب الطلبة الفلسطينيين (في مصر) على حمل السلاح واستخدامه، ومنذ العام (١٩٥٣)، حيث انتخب رئيسًا لرابطة الطلبة الفلسطينيين، فأعلنها إطارًا سياسيا-نقابيًا، التف حولها طلبة فلسطين(٢)، واتّخذ لنفسه نمطًا خاصًا تميز فيه بلباسه العسكري وبالكوفية والعقال(٣) ويحمل المسدس والرشاش بعد الانطلاقة في العام ١٩٦٥، علمًا بأنه وهو طالب كان يتردد على مقر المفتي (الحاج أمين الحسيني) وحكومة عموم فلسطين برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي(٤).

منذ العام (١٩٥٩) تصدر مجلة «فلسطيننا نداء الحياة»، التي دعت الفلسطينيين إلى الانخراط في الكفاح لتحرير فلسطين، وما بعدها من أحداث، اتخذت شخصية ياسر عرفات القيادية مكانتها، وفق قناعات راسخة، ذات عمق استراتيجي، يتمثل في العديد من الشعارات والآراء والتصريحات والمواقف، التي حملته ليحتل مكانة خاصة في حياة شعبه الفلسطيني، ويحظى على احترام قادة العالم.

وقد رصد «أحمد عبد الرحمن» العديد من القناعات التي كانت تسيّر «ياسر عرفات» وتشكل الهادي والدليل له عبر تلك الأنفاق المظلمة التي تجاوزها نفقاً وراء نفق، منها:

شعار «التحرير طريق الوحدة»(٥).

كان «ياسر عرفات»، يقول: «نحن حركة تحرر وطني، ليست تابعة ولا خاضعة لأحد، وإن قوتنا تكمن في عدالة قضيتنا وفي قرارنا المستقل»(٦).

تتسارع الأحداث، فيصبح «ياسر عرفات» رئيسًا لـ «م. ت. ف»، وينشئ شبكة ضخمة من العلاقات مع الزعماء العرب والعالميين، حتى يحقق ما أطلق عليه «أحمد عبد الرحمن» «موسوعة ياسر عرفات في الدبلوماسية الناجحة»(٧).

"ياسر عرفات" مسكون بالحيوية، ولأن "الأفعال صوتها أقوى"، فقد رد على العديد من المؤامرات ومحاولات اغتيال الشرعية بإيلاء العمل الجماهيري في الضفة وغزة الأولوية، وفق برنامج عمل شامل لتعزيز الصمود الوطني على أرض فلسطين، في المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والزراعية والإسكان والصحة، وقام بجولات لتأمين الدعم المالي لتلك المشاريع، وأعطى الأولية للتعليم، فأنشئت الجامعات في الضفة وغزة والقدس(٨).

تميز "ياسر عرفات" بعقله البراغماتي؛ فهو لا يغلق الأبواب أمام اجتهادات قد تجد مخرجًا من المأزق، إنه يقبل بالتغيير، ولكن دون أن يتغير، ويقبل بالتكيف مع واقع سلبي دون أن يتكيف(٩).

ثانيًا: سيرة ياسر عرفات تعني سيرة الثورة الفلسطينية المعاصرة

إذا اعتمدنا أن الثورة الفلسطينية المعاصرة قد بدأت في العام (١٩٦٥)، فإنه علينا أن نعي بأن ياسر عرفات في تلك اللحظة كان مهندسها وحادي مسارها ومسيرتها. وعليه؛ فإن السرد التاريخي والسّيري الذي قام به "أحمد عبد الرحمن" للثورة ولقائدها، لا يمكن فصله بأي حال. وهذا ما لمحته بين سطور كتابه "عرفات: حياته كما أرادها"؛ فسيرة "ياسر عرفات" تعني سيرة مقدمات الثورة الفلسطينية المعاصرة، والظروف التي أوصلت الوضع إلى الرصاصة الأولى، أضف إلى ذلك أربعة عقود من الزمن (١٩٦٥-٢٠٠٤) وهو يلبس الكاكي، ويعتمر كوفية تلك الثورة ورمزها، الذي حفر في صخور التاريخ ما يستحيل محوه.

كما أن سيرة هذه الثورة ذات صلة، مباشرة أو غير مباشرة، بسيرة "ياسر عرفات"؛ إذ لا يمكن للباحث في شأن هذه الثورة الخروج، قيد أنملة، دون ذكر "ياسر عرفات"، كما أنه لا يمكن الحديث عن "دقيقة" واحدة من حياته خارج نطاق الثورة وهمومها وشؤونها وشجونها؛ فقد كان "ياسر عرفات" يمسك بالأوراق كافة، أي يدير دفتها مهما صغرت أو كبرت.

ويفسّر "أحمد عبد الرحمن" الظاهرة (العرفاتية)، عبر المفاهيم والرؤى التي يطول الحديث فيها، للحد الذي يصح فيه القول: إذا كان وراء كل إيطالي يقف قداسة البابا، فإن وراء كل فلسطيني يقف قداسة "ياسر عرفات"(١٠).

ثالثًا: المحافظة على رمزية القائد: في جميع فصول كتابيْه؛ حافظ "أحمد عبد الرحمن"، على رمزية ياسر عرفات و"كاريزميته" التي كان لها، في جميع مراحل كفاحه، الأثر الأكبر في الخروج من المآزق المتتابعة والمتتالية؛ التي لم تتوقف لحظة، والتي كان أسوأ أشكالها ومستوياتها تلك التي يتلاحم فيها (الشقيق!!) (١١).

فأينما ورد ذكر ياسر عرفات وجدنا "أحمد عبد الرحمن" يأخذ دور الجندي المنضبط أمام قائده وهو يحفظ له مهابته، محيطاً قائده بسياج متين-متماسك يحصر مساحة خاصة به، تتسع لقراراته السريعة والخاطفة، عندما كان يدلهِمّ الخطب وتكاد تبلغ القلوب الحناجر. هذه المساحة التي لم يسمح الكاتب لنفسه و/أو لغيره اقتحامها والعبث فيها، حتى لو كانت (خاطئة) من وجهة نظره ونظر الأغلبية العظمى للقيادة.

رابعًا: ما يراه "عبد الرحمن" خطأ، تصوّبه بصمة ياسر عرفات: فعندما أُعلن عن اتفاق أوسلو، من الفلسطينيين من أُسقط في يده، من بينهم «أحمد عبد الرحمن» نفسه، حتى أن عدداً من الفدائيين، من بينهم مرافقين لأبي عمار، تركوا القوات وطلبوا اللجوء السياسي إلى أوروبا. وفي هذا الجانب يصف «أحمد عبد الرحمن» مشاعره تجاه ذلك الاتفاق كما يلي(١٢):

الاتفاق يخلو من الكلمات السحرية التي قضينا كل هذه السنوات من أجل نقلها من عالم الأحلام إلى أرض الواقع؛ فلم أجد كلمة الانسحاب، ولم أجد اقتلاع الاستيطان، ولم أجد قضية اللاجئين، ولم أجد القدس؛ بل وجدت في اتفاق أوسلو أن هذه الكلمات -الأهداف- قد أبعدت تحت عنوان «قضايا الوضع النهائي»، ويجري التفاوض حولها بعد مرور سنتين من الفترة الانتقالية المقررة بخمس سنوات.

في هذه الحالة من الإرباك الداخلي، رحت أغرق في صمت عميق أمام أجهزة الإعلام وأنا مسؤول الإعلام، والناطق الرسمي باسم المنظمة، ورئيس تحرير المجلة المركزية «فلسطين الثورة». ولا أجد ما أقوله دفاعا عن هذا الاتفاق.

إلا أن ثقتي المطلقة بوطنية أبو عمار، تفرض عليّ احترام قرارات هذا الرجل في هذا الوضع الصعب، حيث المنظمة تعاني من حصار خانق سياسي ومالي. ولا أدعي أنني قد أدركت سلبيات ونواقص اتفاق أوسلو، بينما أبو عمار لا يرى هذه السلبيات والنواقص. مما يعني أن ياسر عرفات كان يدرك سلبيات أوسلو ونتائجها الكارثية على القضية الفلسطينية.

خامسًا: ياسر عرفات لم يُفشل السلام؛ وإنما نفّذ إرادة شعبه: يرى «أحمد عبد الرحمن» أن «إيهود باراك» دمر عملية السلام قبل أن يتوجه إلى كامب ديفيد؛ حين أطلق العنان للمستوطنين، وحين رفض تنفيذ الانسحابات المقررة في مذكرة «واي ريفر».

أما بشأن الاتهامات القائلة بأن المرحوم ياسر عرفات هو من أفشلها، فإن «أحمد عبد الرحمن» يوضح للتاريخ مجموعة من الحقائق التي لا يمكن تزويرها إلى الأبد، وعلى رأسها: إن إسرائيل، بقيادة غلاة اليمين ليست مستعدة لقيام دولة فلسطينية مستقلة وذات سيادة في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس (الشرقية) عاصمتها، أي في جميع الأراضي الفلسطينية التي احتلتها في العام ١٩٦٧(١٣).

شفيق الحوت: منظمة التحرير الفلسطينية هوية الفلسطينيين التي لا يجوز التنازل عنها.. وعرفات إلى جانب ملوك ورؤساء الدول العربية والأجنبية

شفيق إبراهيم الحوت (١٩٣٢-٢٠٠٩)؛ قائد لبناني الأصل والفصل، فلسطيني المولد والنشأة والهوى

والهوية والمشاعر والشعور.. وهو صحافي متمرس في مهنة الصحافة، وامتهنها منذ شبابه المبكّر فأجاد وأبدع ولمع نجمه، حتى أصبح محط إعجاب كبار القادة في الوطن العربي، الذين يسعون لخطب ودّه واتّقاء قلمه، ولم ينجح أحد «بشرائه»، حتى لقي وجه ربّه حرًّا كريمًا. تزاوجت الصحافة-المهنة مع السياسية-الفطرة لتنجب « شفيق الحوت» الذي يتقن الإمساك بالقلم ويوجهه حيث يريد هو، دون خوف أو وجل من أحد، ودون أن ينافق هذا أو ذاك، مع ميل «شبه فطري» باتجاه كل ما هو قومي صادق. بتلك الخصائص والسمات والمواصفات، تسلّم مواقعه الوظيفية والنضالية المتقدمة في منظمة التحرير الفلسطينية، وعمل تحت إمرة ياسر عرفات.

أما العمل الأدبي و/أو الفكري الذي نحن بصدده، فهو مؤلَّفه، بعنوان: بين الوطن والمنفى-من يافا بدأ المشوار، الصادر عن مركز الأبحاث/ منظمة التحرير الفلسطينية، في العام ٢٠١٥، في طبعته الثانية. علمًا بأن الطبعة الأولى صدرت عن دار الريّس للنشر والكتب في بيروت، سنة ٢٠٠٧.

تطرق «شفيق الحوت» إلى تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، التي جمعت التيه الفلسطيني، وما صاحبها من أحداث جسام، كالحروب الداخلية مع الأشقاء، ومع إسرائيل التي كادت أن تطفئ جذوة المنظمة وتنهيها إلى الأبد، فكانت معركة الكرامة في العام ١٩٦٨ وحتى العدوان على الثورة في لبنان في العام ١٩٨٢، وما تبعه من مذبحة صبرا وشاتيلا وخروج الثورة من لبنان لتتشتت على الأقطار العربية، وما قامت به المنظمة من مفاوضات ومؤتمرات دولية وعربية. وأما ياسر عرفات، وفق شفيق الحوت، فيراه من زوايا مختلفة، تتلخص فيما يأتي:

أولًا: ياسر عرفات: قائد منظمة التحرير الفلسطينية يختلف عن أسلافه

بعد تسلمه مهمة رئاسة اللجنة التنفيذية للمنظمة، دعا ياسر عرفات مديري المكاتب للاجتماع به في عمّان، وكان «شفيق الحوت» مدير مكتب بيروت. حينئذ أدرك « الحوت» أنه أمام شخص مختلف عن سلفه، لا يقل عنه «كاريزما» لكن بنكهة غريبة، وأنه شديد الثقة بنفسه، ويتصرف كمحترف، ينوي المضي حتى النهاية، وأنه رجل صعب، وأستاذ في العلاقات العامة وكسب الأصدقاء والأنصار. وتعمقت العلاقة بين الرجلين، عندما انكشفت خطة أحد القيادات لاغتيال «شفيق الحوت»، فانبرى «ياسر عرفات» مدافعًا عن « الحوت»[١٤]، وأعاد له حقه المعنوي بالاعتذار والمصالحة من قبل صاحب الخطة([١٥]).

في جميع المواقف التي يُذكر فيها ياسر عرفات، حتى في المواقف النقدية التي تنم عن خلاف واختلاف بينهما، نجد أن «الحوت» يرى فيه ذلك القائد الحذر والمتيقظ دومًا؛ الذي كان دائم

التنقل، حتى أنه في أثناء اجتياح لبنان في العام ١٩٨٢ لم يعد يقيم بمكان أكثر من ساعة أو بضع ساعات(١٦)، صاحب الكاريزما التي ينفرد بها دون غيره، كما يذكر «الحوت» زيارة عرفات له قادما من عمّان، وطلب «غفوة»؛ لأنه لم ينم منذ يومين(١٧).

كما أن «الحوت» يشيد بالقدرات القيادية الفذّة لياسر عرفات الذي وضع قضية شعبه في صدارة الأحداث وفرضها على أجندات العرب والعجم والأصدقاء والأعداء، بما أشاعه من أجواء المهابة والتقدير لمنظمة التحرير الفلسطينية على الطاولات الرسمية والشعبية. فيذكر أنه في حرب تشرين في العام ١٩٧٣م، على الجبهتين السورية والمصرية، قام ياسر عرفات بفتح جبهة ثالثة، بدفع جيش التحرير الفلسطيني إلى المشاركة على الجبهتين، تم التعتيم الإعلامي عليها، إلا أن العدو اعترف بنفسه بهذه الجبهة، عندما اشترط مندوب (اسرائيل) في الأمم المتحدة «التزامًا عربيًا بإيقاف النار على الجبهة الثالثة التي يحارب فيها الفلسطينيون(١٨).

ثانيًا: علاقة الحوت-عرفات علاقة مدّ وجزر

استمرت العلاقة بين عرفات والحوت بين مد وجزر، وقد كان أول (جزر) عندما لم يقم أبو عمار بإدراج إسم «شفيق الحوت» في عداد الوفد الفلسطيني الذي عقد الاتفاق الفلسطيني-اللبناني في القاهرة في تشرين الثاني/ ١٩٦٩م. ثم تستمر العلاقة بينهما؛ ياسر عرفات رئيسًا للجنة التنفيذية و»شفيق الحوت» عضوًا للجنة التنفيذية و/أو مسؤولًا لمكتب المنظمة في بيروت، التي شهدت أكثر الأحداث سخونة ووجعًا، بالنسبة لفلسطينيي الشتات.

ويتوقف «شفيق الحوت» عند اللحظة التي سقطت فيها طائرة عرفات، وكيف شكلّت هزّة عنيفة في كل أركان المنظمة، التي وجدت نفسها بلا راعٍ ولا هادٍ ولا دليلٍ لقادم الأيام، كما يتوقف عند موقفه المعارض لاتفاقية أوسلو الذي عبر عنه خلال اجتماع المجلس المركزي في تشرين أول/ ١٩٩٣، بحضور ياسر عرفات، وما نشب بينهما من خلافات حادة حول تفاصيل تلك الاتفاقية. وعلى إثرها قدم «شفيق الحوت» استقالته، وفي اليوم التالي توجه إلى ياسر عرفات في مكتبه وودعه، وكأن شيئًا لم يكن، حيث قال «الحوت» لعرفات، في ذلك الموقف: «... سياسيًا سأعارضك، وبطريقتي التي تعرفها. أي بصراحة وبعيدًا عن الغدر، فلا تصدق وشاية وسواس ولا تنصت لدسيسة دساس»(١٩).

وأما اللقاء الأخير بينهما فكان في العام ٢٠٠٠، حيث فوجئ الحوت بدخول ياسر عرفات عليه وهو على سرير المرض في أحد مستشفيات نيويورك، وهنا يقول «شفيق الحوت»: «أكبرت للرجل زيارته على الرغم مما صنعته أوسلو بيننا(٢٠). ويجزم « الحوت» أنه على الرغم من كل الخلافات التي وقعت

بينه وبين «ياسر عرفات»، ومواقف المعارضة العلنية التي كان يقفها منه، سواء من خلال التصريحات الصحافية أو المداخلات في المجلس الوطني، لم ينقطع حبل الود والمحبة والتقدير بينهما[٢١].

رحم الله «شفيق الحوت» الذي ترك فينا مالا ينسى من قيم البطولة والفداء والتضحية، وقيم التقدير والاحترام للقائد الذي علينا أن ننفذ ثم نناقش، كما كان رحمه الله يفعل في تعامله مع قائده المرحوم «ياسر عرفات»، فكان ينفذ التعليمات بدقة، ثم يناقش قائده، وهو حافظ له آداب الحوار بأبهى وأجمل صورها.

يحيى يخلف: ياسر عرفات والثقافة.. شئ من سجاياه

يحيى يخلف؛ قائد فلسطيني، جمع بين مهام السياسي والكاتب والأديب والروائي، وانصهرت تلك المهمات معًا لتنجب «يحيى يخلف» المثقف؛ الذي سعى إلى جمع شتات الثقافة الفلسطينية، في الوطن والمهجر، وتدرّج، نقابيًا، في مجالات الثقافة والأدب إلى أن أصبح وزيرًا للثقافة خلال الفترة (٢٠٠٣-٢٠٠٦).

عرف «يحيى يخلف» ياسر عرفات، أواخر ستينات القرن الماضي، قابله في الأغوار، وفي جبال السلط، وقواعد الفدائيين في شمال الأردن، وعاش معه في الفاكهاني في بيروت، وفي تونس، ورافقه في مهمات عديدة، وكان مستشاره الثقافي لعدة سنوات، وسافر معه عدة مـرات.

وفي الذكرى الثالثة عشرة لرحيل قائده –أي في العام ٢٠١٧م-، نشر مقالًا تناول فيه شيئًا من سجاياه وعلاقته بالثقافة والمثقفين، في الحقبة التي أطلق عليها «يخلف» أيام العصر الذهبي للكفاح المسلح. وقد تمكنا من اصطياد ما يأتي من بين سطور «يحيى يخلف» تلك:

أولًا: عرفات قائد استثنائي

يرى «يخلف» بأن ياسر عرفات قد تمكن من قيادة الدفة، ومصارعة الأمواج، والتكيف مع المستجدات، وأن يصمد في معركة الصراع من أجل البقاء، وأن يطوع الفكر السياسي نحو الواقعية السياسية، وان يقدم أحياناً بعض التنازلات، ولكن دون أن يفرط بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني كما أقرتها الشرعية الدولية. وظل ياسر عرفات قائداً استثنائياً وتاريخياً فيه مزايا وعنده أخطاء، لكنه يمتلك حصانة خاصة، تستمد خصوصيتها من غبار معارك مرحلة الكفاح المسلح، ومن انعكاس ظلال الأمجاد التي حققها للقضية الفلسطينية على امتداد الساحة الدولية، ومن

وهج الانتفاضتيْن: الأولى (١٩٨٧م) والثانية (٢٠٠٠م)، وكان الرمز الدائم للانتفاضتين، ومن صموده الأسطوري في المقاطعة عندما تعرض لقصف المدافع والصواريخ والحصار والتهديد، دون أن تلين له قناة، ودون أن تنحني قامته الكفاحية والإنسانية.

ويذكر «يخلف» من الصور الاستثنائية في شخصية القائد ياسر عرفات، أنه اختلف معه إبّان محنة الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين، والتي انتهت بتوحيد الاتحاد، وإجراء مصالحة عامة في صفوفه في الجزائر عام ١٩٨٧، وعندما التقاه عانقه ياسر عرفات وأجلسه في مكتبه لساعات طويلة استقبل خلالها مبعوثين دوليين، وسفراء، وشخصيات وطنية، وبعد أن فرغ من عمله، وبقيا وحدهما، حاول «يخلف» أن يفتح معه موضوع الخلاف، ويشرح له موقفه، ويستمع منه إلى ملاحظاته.. أذكر أنه ابتسم، وقال لماذا نتحدث عن الماضي، لماذا لا نتحدث عن المستقبل.. وتلا ياسر عرفات قوله تعالى: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» (آل عمران: ١٠٣).

ثانيًا: ياسر عرفات نصير الثقافة والمثقفين

يؤكد «يحيى يخلف» على أن ياسر عرفات كان ينحاز للمثقفين المميزين الذين يرفعون اسم فلسطين عالياً؛ فكان فخوراً بمحمود درويش، ومعين بسيسو، وسميح القاسم، واسماعيل شموط وغيرهم من الأدباء والشعراء والروائيين والفنانين.

لم يكن أبو عمار قارئاً للأدب، فاهتماماته سياسية بالدرجة الأولى، لكنه يدرك أهمية الأدب والفنون في الحياة الفلسطينية، فكان يقول: الثورة ليست بندقية ثائر فحسب، بل هي أيضاً قلم أديب، وخيال شاعر، وريشة فنان.

وكان اهتمامه بالإعلام يطغى دائماً على اهتماماته الأدبية أو الفنية، وهو، كأي زعيم آخر، يدرك أنه يستطيع أن يوظف الإعلام أكثر من إمكانية توظيف الأدب والأدباء. وكمثال على اهتمام ياسر عرفات بالأدب، واهتمامه بالأدباء، يستحضر «يحيى يخلف» الحدث التالي، إذ يقول:

عندما كنت أميناً عاماً للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، قررنا إقامة ملتقى شعري فلسطيني عربي، وعندما طرقت باب القائد العام أبو عمار، وشرحت له أهمية الملتقى، وربطت فكرته باحتفالات فلسطين بذكرى انطلاقة الثورة، فأصبحت الفكرة ثقافية إعلامية، مما جعله يوافق على صرف تذاكر السفر للمشاركين، وتغطية جزء من نفقات الإقامة لهم.

أطلقنا ذلك الحدث (ملتقى قلعة الشقيف الشعري)، وكان واحداً من أهم الملتقيات الشعرية

العربية، وقد شارك فيه كبار الشعراء الفلسطينيين والعرب، منهم: محمود درويش، ومعين بسيسو، وأحمد دحبور، ومريد البرغوثي إلى أمل دنقل، وأدونيس، وممدوح عدوان، وشوقي بزيع، وسعدي يوسف، ونزيه أبو عفش، وسليمان العيسى وغيرهم.

وعشية افتتاح الملتقى، استدعاني القائد العام ياسر عرفات إلى مكتبه، فذهبت على الفور، ووجدت عنده وفداً من الحركة الوطنية المصرية. وكان من بين الحضور: لطفي الخولي والبابا شنودة.. حدث شيء من الوجوم عندما دخلت، وبادرني القائد العام قائلاً: هل دعوت شاعراً مؤيداً لكامب ديفيد؟! نفيت على الفور، فقد كان الموقف الوطني الفلسطيني والعربي آنذاك، مناهضاً لسياسات الرئيس السادات واتفاقيات كامب ديفيد المصرية الإسرائيلية. فالتفت القائد العام إلى لطفي الخولي، وقال له: تكلم يا لطفي! شعرت أن لطفي الخولي قد أصيب بشيء من الحرج، فقال بارتباك: أن الشاعر أمل دنقل مصنف على أنه من جماعة كامب ديفيد.

دافعت بالطبع عن أمل دنقل، وأثناء الحوار فهمت أن السيدة جيهان السادات كانت قد توسطت لمعالجة أمل -كان مصاباً بالسرطان-. ويبدو أن القائد العام قد تفهم المسألة، ولم يشأ أن يحرج ضيوفه، فغيّر الموضوع، وأدار الحوار مع ضيوفه حول قضايا أخرى.

في مساء اليوم التالي، كان الافتتاح الكبير للملتقى في قاعة اليونسكو في بيروت. وقد حضر القائد العام وضيوفه الافتتاح، وتعمدت أن أقدم في الافتتاح الشاعر أمل دنقل.

في اليوم التالي، وقف أمل دنقل على المنصة، بكبريائه وهيئته الصعيدية المصرية الأصيلة، وبصوته الواثق وألقى قصيدته (لا تصالح)، التي هزت الجماهير المحتشدة في المكان، وقاطعته بالتصفيق، فالتفت إليّ ياسر عرفات، وقال: كلام لطفي غير صحيح. فكرمه في اليوم التالي، وأصدر أمراً بتغطية نفقات علاجه.

ومن اللمسات الأخرى التي يرويها «يحيى يخلف» عن ياسر عرفات:

رعايته للكاتب السوداني الرائع جيلي عبد الرحمن، فقد مرض جيلي وأصيب بالفشل الكلوي، وفقد وظيفته كأستاذ جامعي، وفقد تقاعده لأن النظام في بلده السودان أوقف صرف راتبه التقاعدي بسبب انتمائه إلى الحزب الشيوعي السوداني. وجد جيلي عبد الرحمن نفسه ضائعاً، مريضاً، فقيراً، لا يملك ثمن وجبة الطعام أو ثمن الدواء. فأصدر ياسر عرفات قراراً بالموافقة على صرف راتب شهري، وزاد من عنده أمراً إلى الهلال الأحمر الفلسطيني بشراء جهاز تنقية الكلى، لكي يتم علاجه في منزله، ولا يتحمل عناء ومشقة الخروج إلى المستشفيات.

ثالثًا: ياسر عرفات الاجتماعي.. صاحب النكتة الرشيقة

يشير «يحيى يخلف» إلى أن ياسر عرفات كان في لحظات الصفاء، وبعيداً عن الاجتماعات الرسمية، والزيارات الميدانية، يتصرف كإنسان بسيط وعادي، يحادثنا كأصدقاء، ويستمع إلى آرائنا وأفكارنا، ويستمع حتى إلى آخر النكات والطرف، وكان يتابع أخبار الأدباء والكتاب والفنانين وأخبار الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، وحتى آخر أخبار الشعراء الذين أطلقوا على أنفسهم «شعراء الرصيف»، وأصدروا مجلة «الرصيف»، التي كان يُنشر فيها الشعر الناقد، المتمرد على القوافي والمألوف، ولا يأبه بالوقار، بل وينزع إلى العبث.

كان شعراء الرصيف يرفعون شعار التمرد على المؤسسة وعلى اتحاد الكتاب، ولكنهم كانوا يحبون القائد العام. وفي لقاء جمعهم به وكنت حاضراً، شكوا له من إهمال الاتحاد لهم وعدم إشراكهم في ملتقى قلعة شقيف الشعري. فطلب ياسر عرفات أن نقيم لهم أمسية في قاعة عبد الناصر في جامعة بيروت العربية. وقد أقمنا الأمسية بالفعل وحضرها رحمه الله، وشارك بها نخبة منهم، مثل: علي فودة، ورسمي أبو علي، وآخرون، والقوا أمام أبو عمار قصائدهم العجيبة، القصيدة المائية، وقصائد تحمل عناوين طريفة، وكان أبو عمار يبتسم، بل ويضحك ويصفق لهم. وأحدهم قرأ قصيدة عن رأسه المحشو بالفاليوم، وكيف أنه زهق من رأسه، فخلعه ووضعه على الطاولة. وعند ذلك صفق أبو عمار ضاحكاً وقال له: أعد.. أعد.

لقد اعتبر أبو عمار تلك الظاهرة المتمردة على الوقار ظاهرة إنسانية، ورأى فيها تياراً يحاول أن يصنع الحداثة على طريقته الخاصة، وكان يريد من حضوره الأمسية أن يؤكد لهم اعترافه بظاهرتهم.

خلاصة القول،

هذا ما يقوله القادة الفلسطينيون في قائدهم ياسر عرفات، وقد توزّعوا على المجالات الإعلامية والسياسية والثقافية. فقد أجمعوا على أن قائدهم يمتلك من السمات والخصائص ما يجعلهم يتغنّون به وبالعمل تحت إمرته، إلى أن يلقوْا الله. وقد وجدنا لكل منهم ما يقوله من خلال علاقته المباشرة مع قائده، الذي تمتّع بقدرة عالية على إدارة الأزمات، وتفكيك حلقاتها، وإضعاف ضررها على شعبه إلى مستوى الحد الأدنى من الضرر. وأما على المستوى الشخصي، فنجد أن ياسر عرفات من نوع القائد الذي يتسامح مع معارضيه، ويتحاور معهم بروح الديمقراطية، دون أن تُمسّ هيبته وسلطته. وأن ما قام به من زيارة لشفيق الحوت المعارض لسياسته، لخير دليل على نقاء معدن هذا القائد وصلابة شخصيته وثقته بنفسه وبمن حوله.

وقبل أن نغادر، لا بد من الإشارة إلى أن المصادر والمراجع التي استقيتُ منها ما ورد أعلاه من

معلومات وبيانات ومشاهد تتعلق بياسر عرفات، تزخر بالمزيد من الأحداث. وفي معظم تلك الأحداث، مهما صغرت أو كبرت، تجد لياسر عرفات بصمة واضحة، وذات أثر فاعل.

الهوامش

١- عبد الرحمن، أحمد (٢٠١٦). عرفات: حياته كما أرادها. دار الحرية للثقافة الوطنية. البيرة. فلسطين. ص: ١٥.

٢- استطاع ياسر عرفات أن يؤمن دعوة للرابطة، للمشاركة في مهرجان الشباب العالمي في وارسو في العام ١٩٥٤، كانت نتيجتها خروج ياسر عرفات بحصيلة من العلاقات والأسماء التي فتحت أمامه الساحة الدولية، وهو يردد: إن حصر قضيتنا في الإطار المحلي الضيق، إنما يفقده دعمًا وتضامنًا دوليًا نحن في أمس الحاجة إليه (عبد الرحمن (٢٠١٦)، ص: ١٧-١٨).

٣- رمز لفلسطين، ورمز للمقاوم الفلسطيني منذ ثورة ١٩٣٦ (عبد الرحمن (٢٠١٦)، ص: ١٦). وهنا بدأت رمزية «ياسر عرفات»، التي صاحبته إلى أن انتقل إلى جوار ربه.

٤، عبد الرحمن (٢٠١٦). مرجع سابق. ص: ١٥-١٧.

٥، عبد الرحمن (٢٠١٦). مرجع سابق. ص: ١٩.

٦، عبد الرحمن (٢٠١٦). مرجع سابق. ص: ٢١.

٧، عبد الرحمن (٢٠١٦). مرجع سابق. ص: ٤٧.

٨، عبد الرحمن (٢٠١٦). مرجع سابق. ص: ١٧٣.

٩، عبد الرحمن (٢٠١٦). مرجع سابق. ص: ٤٠١.

١٠، عبد الرحمن (٢٠١٦). مرجع سابق. ص: ٤٠٣.

١١، عبد الرحمن، أحمد (٢٠١٤). عشت في زمن عرفات. دار الحرية للثقافة الوطنية. البيرة. فلسطين. الطبعة الأولى.

١٢، عبد الرحمن (٢٠١٤). مرجع سابق.

١٣، عبد الرحمن (٢٠١٤). مرجع سابق.

١٤، يشير «شفيق الحوت» إلى أن «أبو عمار» أشاد به، وقال: «من يرمي أبو هادر بالمي نرميه بالنار» (الحوت (٢٠١٥)، ص: ١١٨).

١٥، الحوت، شفيق (٢٠١٥)، بين الوطن والمنفى- من يافا بدأ المشوار. منظمة التحرير الفلسطينية. رام الله. فلسطين. ط: ٢. ص: ١١٥-١١٨.

١٦، الحوت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ٢٥١.

١٧، الحوت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ١١٥.

١٨، الحوت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ١٧٤.

١٩، الحوت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ٤٧٩.

٢٠، الحوت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ٥٠٨.

٢١، الحوت (٢٠١٥). مرجع سابق. ص: ١١٦.

ملف خاص
حول قانون قومية الدولة الإسرائيلي

ما بعد قانون القومية الإسرائيلي

عبد الغني سلامة*

مقدمة

في ١٩ تموز٢٠١٨، وبعد نقاش طويل دام سبع سنوات، أقر الكنيست الإسرائيلي «قانون القومية».. وبهذا القانون، تكون الحكومة قد حددت هوية الدولة وطابعها كما يشتهي غلاة اليمين (الديني والقومي)، أي بوصفها دولة يهودية قومية؛ ولكنها أيضا تكون قد وضعت مسألة الدولة والمشروع الصهيوني برمته في سياقه الأصلي، أي في سياقه الاستيطاني. وأزالت آخر الرتوش عن مكياجها الزائف، لتظهر على حقيقتها، بوصفها دولة دينية قائمة على أساطير ميثولوجية، وتمارس التفرقة العنصرية.

رغم أن قرار التقسيم (١٩٤٧) أشار إلى دولتين (عربية ويهودية)؛ إلا أن إسرائيل حينها لم تهتم كثيرا بتسمية نفسها دولة يهودية، بيد أنها منذ نحو عقد من الزمن، أخذت تركز في خطابها الإعلامي على مسألة يهودية الدولة. وتحديدا بعد أن طرحت أميركا خارطة الطريق، وكاد قطار المفاوضات أن ينطلق، حينها ارتفعت وتيرة ترديد مصطلح «يهودية الدولة»، كما لو أنه مجرد وسيلة للضغط على المفاوض الفلسطيني، وآلية للالتفاف على الاستحقاقات المتوجبة على إسرائيل في سياق الحل السلمي المطروح.

وقد حرص رؤساء الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، بدءاً بشارون، وانتهاء بنتنياهو، على ترديد المطالبة بيهودية الدولة. ففي الرابع من حزيران ٢٠٠٣، ألقى شارون خطاباً في مدينة العقبة، طالب فيه الاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية. ثم ارتفعت وتيرة المطلب الإسرائيلي في أثناء توجّه الفلسطينيين للأمم المتحدة للحصول على اعتراف دولي بالدولة الفلسطينية، واتخذ نوعاً من

* كاتب - فلسطين

التحدي؛ حيث توجّه نتنياهو، في كلمة له أمام أعضاء من الوكالة اليهودية في القدس، إلى الرئيس الفلسطيني محمود عباس مطالباً إيّاه بأن يردّد جملة من أربع كلمات «أنا أقبل دولة يهودية». وكان رد الرئيس الفلسطيني، في الجلسة الافتتاحية للمجلس المركزي الفلسطيني (تموز ٢٠١١) من أربع كلمات: «لن نقبل بها مطلقاً».

ولكن مسألة يهودية الدولة، لم تكن موجهة للطرف الفلسطيني وحسب؛ بل كانت في بعض الأحيان، تُطرح في سياقات الصراع الداخلي بين التيارات السياسية الإسرائيلية حول النشاط الاستيطاني في المناطق الفلسطينية المحتلة والتقدم في عملية السلام.

جاءت مبادرة تقديم القانون من النائب عن حزب كاديما، آفي ديختر، الذي شغل سابقا منصب رئيس الشاباك، وأييليت شكيد، وزيرة القضاء المتطرّفة، ونفتالي بينيت، رئيس حزب البيت اليهودي، الذي يُمثل تيارًا قوميًا دينيًا، وانضمت إليهم ثلةٌ من أحزاب اليمين. لكن القانون في النهاية مرّ بعد أن تبنّاه بنيامين نتنياهو شخصيًا. ٢

وقد تأخر هذا القانون لأسباب داخلية وخارجية، أهمها أن المجتمع الدولي، وخاصة الولايات المتحدة لم تكن متحمسة له في ظل الإدارات السابقة، ما يعني أن تغير الأوضاع الدولية، خاصة بعد مجيء ترامب، والصعود المتنامي لليمين والخطاب الشعبوي في أوروبا، ساهم في إنضاج الظروف لإخراج هذا القانون إلى حيز الوجود.. فبسبب دعم إدارة ترامب غير المسبوق لإسرائيل، ونتيجة لضعف الأمم المتحدة، التي يفترض أنها حامية القانون الدولي والشرعية الدولية فيما القانون اليهودي يتعارض كليا معهما، ومع استفحال حالة الضعف العربية، التي تصل أحيانا لدرجة التآمر على القضية الفلسطينية، وأيضا بسبب الانقسام والضعف الفلسطيني.. صار بوسع نتنياهو الإعلان عن هذا القانون.

وثمة عامل آخر ساهم في إنضاج الظروف لسن قانون القومية اليهودي، وهو العامل الاقتصادي؛ فقد أدت التحولات الاقتصادية والاجتماعية العميقة التي مرت بها إسرائيل مؤخرا إلى صعود اليمين الاقتصادي والسياسي بقيادة نتنياهو، وبالتالي أدت لتثبيته في الحكم، ومن ثم قادت إلى سن مثل هذا القانون، فالسياسات النيوليبرلية التي انتهجها نتنياهو تستدعي وتحتاج الشعبوية اليمينية، ذلك أن النيوليبرالية اقتصاديا تعني تفكيك المجتمع من أشكال التضامن الجماعي وتعني إعلاء شأن الفرد بدلا من الجماعة، ونتاج هذا النظام هو إفقار الفقراء وإغناء الأغنياء وفك روابط المجتمع، بما يجعل الفرد مشغولا بصراع البقاء متحولا إلى مستهلك. بالمقابل يقوم الخطاب الشعبوي اليميني بسدّ الفراغ الذي يتركه تدمير المجتمع، إذ أنه يعطي للناس تبريرا لبؤسهم، وعنوانا لغضبهم، وتفسيرا لسوء معيشتهم اليومية، وكثيرا ما يتجلى ذلك بمهاجمة النخب والمهاجرين والأقليات

والأعداء من الداخل والخارج، الحقيقيين أو المختلقين. وفي إسرائيل طبعا فإن الأعداء حاضرون وماثلون للعيان ولا حاجة للتفتيش عنهم أو اختلاقهم، وهم الفلسطينيون.

من هنا عند الحديث عن سنّ مثل هذا القانون علينا أن نرى فيه تعبيرا عن مشروع اكتمل ونضج، فالسياسات الاقتصادية والاجتماعية خلقت القواعد الانتخابية اللازمة لنجاح المشروع، والديناميّات الداخلية المتعلقة بالتنافس الحزبي سرّعت الانزياح نحو اليمين. ٣

وقد أقر الكنيست القانون (بأغلبية ٦٢ صوتا) باعتباره (قانون أساس)، أي أنه بمثابة دستور جديد لإسرائيل، ما يعني أننا على أعتاب مرحلة سياسية جديدة، سيكون لنتائج وتداعيات هذا القانون أثر واضح على المعادلات السياسية القادمة. لنتابع..

قراءة أولية في قانون القومية اليهودي

بداية، لنلق نظرة على أهم البنود التي جاءت في القانون، وهي باختصار:

- تكريس يهودية الدولة.
- التعامل مع اليهودية كقومية وليس كدين.
- الحديث عن أرض إسرائيل التوراتية، وليس إسرائيل التي اعترفت بها الأمم المتحدة .
- تجاهل قرارات الأمم المتحدة، ومشاريع التسوية حول القضية الفلسطينية.
- الاعتماد على الرواية التوراتية في زعم أحقية الوجود التاريخي لليهود في فلسطين.
- حصر حق تقرير المصير باليهود فقط.
- اعتبار القدس الموحدة والكاملة عاصمة لدولة إسرائيل.
- شرعنة الاستيطان وقوننته ودعمه.
- اعتبار حق العودة لإسرائيل لليهود فقط، (قانون لم الشتات).
- اعتبار اللغة العبرية اللغة الرسمية للدولة، وإقصاء اللغة العربية (منحها مكانة خاصة).

أول ملاحظة أن القانون لا يشتمل على التعبير الذي تُستَهلّ به جميع القوانين الأساس السابقة، وهو «إسرائيل دولة يهودية وديمقراطية». فكلمة «ديمقراطية» لا تظهر في هذا القانون إطلاقًا؛ إذ إنّ أصحابه ومتبنّيه قرّروا التركيز على الجوهر اليهودي للدولة حصرًا، والتخلي عن العبارة المركّبة «يهودية وديمقراطية»؛ لغاية واضحة ومعلنة ممثلة بالتصدّي لما اعتبروه «إخلال المحكمة العليا بالتوازن» بين المركّبين: اليهودية والديمقراطية، لصالح الديمقراطية.

وقد أكّد المبادرون للقانون، أنهم يريدون تضييق الهامش على الجهاز القضائي؛ بحيث تخضع الديمقراطية لليهودية، وليس العكس. والحقيقة أنهم أرادوا ترجمة التوازن المختل أصلًا ضد الديمقراطية في الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي المعاش إلى قانون. ٤

أي أن أصحاب هذا القانون يرون أن إسرائيل في جوهرها دولة يهودية، وفي شكلها فقط ديمقراطية. والشكل متغير خلافًا للجوهر، ويجب أن يخضع لهذا الجوهر، أي إظهار «الرسالة الصهيونية الأبدية» لدولة إسرائيل، وهدف قيامها. ٥

لا يتحدث قانون القومية الإسرائيلي، عن قوميةٍ إسرائيلية، بل عن قوميةٍ يهودية، دولة قومية للشعب اليهودي. وهو في غالبية عناصره بياني إعلاني ذو طابع أيديولوجي محض.

مثلًا البند الأول من القانون ينص على ما يلي: (أ) أرض إسرائيل هي الوطن التاريخي للشعب اليهودي التي قامت بها دولة إسرائيل. (ب) دولة إسرائيل هي الدولة القومية للشعب اليهودي التي يحقق فيها حقه الطبيعي والثقافي والديني والتاريخي في تقرير المصير. (ج) تقتصر ممارسة حق تقرير المصير قوميًا في دولة إسرائيل على الشعب اليهودي». ٦

أما البند الثاني، وعنوانه «رموز الدولة»، فيحدّد اسم الدولة وتصميم علمها ورمزها ونشيدها الوطني. وينص البند الثالث على أن عاصمة الدولة هي «القدس الكاملة الموحدة». وينص البند الخامس على أن «الدولة ستكون مفتوحة للهجرة اليهودية ولجمع الشتات»، وينص البند السادس على ما يلي: «(أ) ستهتم الدولة بتأمين سلامة الشعب اليهودي ومواطنيها الواقعين في ضيق أو في الأسر بسبب يهوديتهم أو مواطنتهم. (ب) تعمل الدولة في الشتات للحفاظ على العلاقة بينها وبين أبناء الشعب اليهودي. (ج) تعمل الدولة على الحفاظ على الإرث الثقافي والتاريخي والديني للشعب اليهودي بين يهود الشتات».

أي أن إسرائيل نصبت نفسها ممثلة عن اليهود في شتى أنحاء المعمورة.

ثم يأتي البند التاسع: «(أ) يوم الاستقلال هو يوم العيد القومي الرسمي للدولة»، و»(ب) يوم ذكرى شهداء معارك إسرائيل، ويوم ذكرى الكارثة والبطولة هي أيام الذكرى الرسمية للدولة». ويأتي البند العاشر الذي يحدد أن «يوم السبت، وأعياد إسرائيل هي أيام الراحة الثابتة للدولة، ولمن ليس يهوديًّا الحق في أيام راحة في الأعياد ويوم أسبوعي [سبته الخاص، أي بحسب دينه]، وتحدد قانونيًا تفاصيل ذلك». ٧

وهنا تصبح أعياد إسرائيل القومية هي نفسها الأعياد الدينية.

أما مسألة حصر حق تقرير المصير في الشعب اليهودي فقد جاءت لتُجهض أي مطالبة لأي جزءٍ من مواطني إسرائيل بتقرير المصير؛ بمعنى منع أي جماعة من اعتبار أنفسهم جماعةً قومية، حتى لا تتحوّل الدولة إلى دولة ثنائية القومية. فالقانون ينص على «حق تقرير المصير للشعب اليهودي» وحده في هذه الدولة. وكان قد حدّد في البند الذي سبق أن مكان تقرير المصير هو ما يسمى «أرض إسرائيل»، ومعلوم للقاصي والداني أن تعريفات اليمين الإسرائيلي لأرض إسرائيل موسعة جدًا وأنها تشمل «يهودا والسامرة». ٨

يؤكد هذا القانون أنه لا وجود لحقوق جماعية للعرب، بل إنّ هذه الحقوق هي لليهود فقط. وهذا يعني أيضًا أن بعض الحقوق الفردية لا يمكن ممارستها بشكل كامل. فالحق الفردي في الثقافة والهوية هو حق لا يمارس إلا جماعيًا؛ وهذا يعني أن نفي الحقوق الجماعية يدل بالضرورة على سلب بعض الحقوق الفردية. ٩

جذور فكرة الدولة اليهودية

عند صدور قرار التقسيم عن الأمم المتحدة في العام ١٩٤٧، الذي يدعو إلى قيام دولتين في فلسطين، عربية وأخرى يهودية، لم يكن قادة الييشوف اليهودي قد اعتمدوا اسماً للدولة التي يسعون لإقامتها، بل إن هوية الدولة لم تكن محسومة، إذ تجاذبها آنذاك تياران، الأول يريدها دولة يهودية، والثاني يريدها عبرية.

وحتى العقد الأخير السابق لإعلان قيام الدولة، كانت أسهم تيار الهوية العبرية هي الأقوى، ففي تلك الفترة كثر استخدام تعابير ومصطلحات مستمدّة من الهوية العبرية مثل: العمل العبري، الشبيبة العبرية، حركة العصيان العبري، الوطن العبري، القوات العبرية، الحكومة العبرية، الدولة العبرية، الجامعة العبرية. ومن الواضح أن مفهوم العبري «الحديث» المنبثق من هذه التعابير يحمل بعداً إثنياً أو قومياً أكثر مما يحمل مفهوم اليهودي الذي اكتسب حديثاً البعد القومي، أو الإثني، إلى جانب البعد الديني.

ولكن، بعد قيام الدولة أخذ مفهوم العبري المنافس القوي لمفهوم اليهودي كهوية يتراجع مع مرور الوقت، ويفقد البعد القومي الذي أضفي عليه، ويكتسب محتوى لغوياً في إطار إحياء اللغة العبرية.١٠

وقبل يومين من قيام «دولة إسرائيل» (١٩٤٨/٥/١٢)، وفي أثناء عقد الإدارة القومية (التي أصبحت حكومة مؤقتة) اجتماعاً في تل أبيب، لتدارس موضوع إعلان الدولة، ووضع اللمسات الأخيرة عليه، دارت نقاشات مطولة حول الاسم الذي ستحمله الدولة، دون التوصل إلى نتيجة. وقد طرحت حينها عدة أسماء، مستمدّة من مفاهيم ورموز توراتية، أهمها: دولة يهودا، دولة صهيون، دولة أرض إسرائيل، دولة عابر.

خضعت هذه الأسماء لنقاشات مطولة، واستبعدت الواحدة تلو الأخرى، لكونها تحدث خلطاً في المفاهيم، فضلاً عن إثارتها مشاكل تتعلق بالمواطنة والأيديولوجية. وأخيرا حسم رئيس الوكالة اليهودية، دافيد بن غوريون، الأمر عندما طرح اسم الدولة التي سيعلن عن قيامها، «دولة إسرائيل».١١

أهداف القانون

ولفهم أوضح لمآرب الحكومة الإسرائيلية من وراء طرح قانون القومية، إذا استثنينا عامل الرغبة في المماطلة والتسويف في المفاوضات، وصولاً إلى عرقلتها أو نسفها، تهرباً مما قد تتمخّض عنه من استحقاقات يخشاها الطرف الإسرائيلي، نجد أن نتنياهو، واليمين الإسرائيلي، يرمون من وراء ذلك الى تحقيق أربعة أهداف، وهي الأخطار المتأتية عن الاعتراف بيهودية الدولة، اثنان منها مكشوفان، هما:

- شطب حق العودة للاجئين الفلسطينيين، الذي كفلته الأمم المتحدة وفق القرار ١٩٤، والسعي للالتفاف حوله لإفراغه من مضمونه.
- مس مكانة المواطنين العرب في إسرائيل، سواء عن طريق الطرد، أو عبر التبادل السكاني، علماً أنهم مواطنون في دولة، تخرجهم هي من إطارها بتعريفها لذاتها كـ «دولة اليهود». هذا فضلاً عن شرعنة الواقع التمييزي الذي يتعرضون له منذ قيام هذه الدولة.

والآخران مستتران، هما:

- الاعتراف بالفكرة الصهيونية.
- الاعتراف بالرواية الصهيونية لموضوعة الصراع العربي الإسرائيلي. ١٢

ويمكن إضافة هدف ثالث مهم جدا، بل لعله الهاجس المقلق الذي ظل يلح على عقلية صناع القرار في إسرائيل، وهو ما تسميه الخطر الديموغرافي.

فوفقاً للعديد من الدراسات الإسرائيلية، فإن اليهود سيصبحون أقلية ابتداء من نهاية العقد الحالي. وستنحسر نسبتهم مع نهاية العام ٢٠٢٠ إلى نحو ٤٠٪ من السكان، مقابل ٦٠٪ من مجمل الفلسطينيين في فلسطين التاريخية. أما داخل الخط الأخضر، فإن الفلسطينيين يشكلون الآن نحو ٢١٪ مقابل ٧٩٪ من اليهود، ما يعني أن اليهود سيفقدون امتياز كونهم أغلبية سكانية.

هذا المشهد الديموغرافي المرعب لقادة الكيان الإسرائيلي يجعلهم دائمي التفكير لإيجاد حل يحافظ على الأكثرية اليهودية داخل «إسرائيل». ومن هنا، فإن «يهودية الدولة»، حسب قانون القومية، تفرض تحقيق يهودية مستقرة متحررة من خطر تزايد ديموغرافي عربي، وأي شيء عكس ذلك يمكن

أن يحوّل إسرائيل إلى دولة ثنائية القومية، الأمر الذي يعني فشل المشروع الصهيوني الذي قام على شعار بناء «وطن قومي لليهود» في فلسطين. ١٣

مخاطر وتداعيات قانون القومية

في ندوة نظمها ملتقى فلسطين الثقافي في متحف ياسر عرفات، قال النائب الفلسطيني في الكنيست أيمن عودة، أن فكرة يهودية الدولة طرحت لأول مرة من قبل شارون في العقبة (٢٠٠٣)، ثم طرحتها تسيفي ليفني في العام ٢٠٠٧، في محاولة للضغط على المفاوض الفلسطيني، لكن إدارة بوش، (ومن بعده أوباما) أيدت الفكرة، ودعمتها إعلاميا، لكنها ظلت رافضة لفكرة ضم الضفة، أو مناطق C، مع استمرار الموقف الأميركي التقليدي الرافض للاستيطان، والمؤيد لحل الدولتين.. والسبب يعود إلى فهم أميركي خاص لحل الصراع، قائم على ضرورة أن تظل إسرائيل بأغلبية يهودية، وهذا التصور مبني على توصية من المخابرات الأميركية جاءت على إثر سقوط الشاه (١٩٧٩)، ومفادها أن أميركا لا يمكن لها الاعتماد، أو المراهنة على أي حليف في الشرق الأوسط، سوى إسرائيل، وأن إسرائيل يجب أن تظل بأغلبية يهودية، لضمان ولائها، وبالتالي فإن فكرة الضم، والإعلان عن دولة يهودية ستؤدي في نهاية المطاف لفقدان إسرائيل الأغلبية اليهودية.١٤

لكن، إدارة ترامب تخلت عن هذا الفهم، الأمر الذي شجع إسرائيل على المضي قدما بالقانون المذكور.

الأمر الثاني، والذي أشار إليه أيمن عودة في نفس الندوة، يتعلق بتغير نظرة الإسرائيليين للفلسطينيين المقيمين في الدولة، أي فلسطينيي الداخل، ففي السابق، وتحديدا بعد النكبة، استهان الإسرائيليون بهم، بسبب قلة عددهم آنذاك (بحدود ١٧٠ ألف مواطن)، وبسبب نظرة التعالي تجاههم، والتي كان يعبر عنها بكلمات نابية، بوصفهم بدائيين. وكانت إسرائيل حينها مهتمة بإظهار الصورة الديمقراطية للدولة الوليدة، الأمر الذي يقتضي إستيعاب المواطنين العرب بدرجة معينة، ودمجهم في مؤسسات الدولة (بالرغم من القوانين العسكرية التي حكمت العلاقة بهم، والتي استمرت حتى العام ١٩٦٧، ثم تغيرت تدريجيا على شكل قوانين وممارسات عنصرية).

اليوم صار عدد الفلسطينيين داخل الخط الأخضر ١,٨ مليون مواطن، وصاروا يشكلون قوة انتخابية مهمة، لدرجة أنهم أسقطوا نتنياهو في ثلاث دورات انتخابية لصالح حزب العمل، ومن ناحية ثانية صار لهؤلاء الفلسطينيين حضور نوعي ومتصاعد في مختلف مؤسسات الدولة ومرافقها، بدءا من القطاع الخاص، وحتى الكنيست الذي يضم ١٦ نائب عربي.. أي أنهم لم يعودوا مجرد «رابيش»، أو سكان بدائيين كما كانوا في التصور الإسرائيلي، بل إنهم صاروا ينادون بقوة ووضوح بدولة لكل مواطنيها، وصاروا يطالبون بالعدالة والمساواة مع اليهود، الأمر الذي سيعني تفريغ إسرائيل والمشروع

الصهيوني من البعد اليهودي الديني، وتشكل دولة ثنائية القومية، وهذا يشبه إلى حد كبير حل الدولة الواحدة، التي ترفضه إسرائيل بقوة (اليمين واليسار على حد سواء). وهذا ما يعنيه «الخطر الديمغرافي»، التي نظمت إسرائيل عشرات الندوات والمؤتمرات والأبحاث لدراسة السبل لمواجهته.

المسألة الأخرى، وربما الأخطر والأهم تتعلق بمستقبل الصراع، ورؤية إسرائيل لحله، فحاليا، الحل السياسي المطروح، والذي يحظى بموافقة وإجماع عالمي هو حل الدولتين، وخطورة هذا الحل من وجهة نظر إسرائيل أنه حل واقعي، وممكن، وهناك تقبل دولي له.. والحل الثاني (وهو حاليا مجرد تصورات)، هو حل الدولة الواحدة، أي الدولة التي يعيش فيها العرب واليهود تحت مظلة قانون مدني غير عنصري، ولا صهيوني، وعلى أساس المواطَنة.. وكلا الحلين مرفوضين كليا من قبل صناع القرار في إسرائيل؛ فهم لا يريدون دولة ثنائية القومية، ولا يريدون أغلبية فلسطينية، ولا يريدون تفريغ الصهيونية من مضمونها الأيديولوجي والسياسي، ولا يريدون التخلي عن أراضي الضفة الغربية، ولا الانسحاب من القدس، ولا أي حل لقضية اللاجئين... ببساطة يريدون إبقاء الأمور على ما هي عليه الآن، مع تغييرات دائمة ومستمرة على الأرض بما يحقق الرؤية الصهيونية اليمينية لإنهاء الصراع.

ومن هنا فإن قانون القومية يمهد الطريق، ويوفر الأرضية (القانونية) لأي إجراء عسكري تعسفي تتخذه الحكومة (أو ستتخذه مستقبلا) بما ينهي الوجود الفلسطيني في البلاد، ويقوض الحقوق الوطنية والسياسية للفلسطينيين، بما في ذلك ترانسفير جماعي. ودليل ذلك، الفقرة الأولى من القانون التي جاء فيها مصطلح «أرض إسرائيل»، وليس دولة إسرائيل، وهذا ربما أخطر ما في قانون القومية اليهودي؛ فأرض إسرائيل في المشروع الصهيوني قد تمتد من النيل للفرات، وليس هناك حدود نهائية لأرض إسرائيل، وهذه الأرض (على الأقل حاليا) هي أراضي الضفة الغربية، ما يعني ببساطة أن إسرائيل لن تنسحب من الضفة الغربية، بل تعمل بكل جهدها على ضمها بصورة رسمية.

الأمر الآخر يتعلق بنظرة إسرائيل ونهجها في التعامل مع الفلسطينيين، سواء داخل الخط الأخضر، أو في الضفة الغربية (بما فيها القدس طبعا)، وهذا القانون يحوّل الممارسات التعسفية والاعتداءات المنهجية ضد الفلسطينيين وسياسات الاستيطان ونهب الأراضي التي تمارسها منذ قيامها.. إلى ممارسات تتم بغطاء قانوني.

صحيح، إن كل ما ورد في القانون بمواده العشر لم يخرج عن النهج والسلوك الإسرائيلي منذ تأسيس دولة إسرائيل، وهي نصوص مستمدة من العقيدة اليهودية والأيديولوجيا الصهيونية، إلا أن الجديد هو قوننة هذا السلوك العنصري الاستعماري وجعله مرجعية ملزمة وهادية لكل الحكومات الإسرائيلية.١٥

ما يعني أن خطورة القانون وتداعياته تطال كل الفلسطينيين؛ داخل الخط الأخضر على شكل قوانين

عنصرية، وتهديد بالطرد، وسد الطريق أمام أي تطلعٍ إلى أن تكون إسرائيل دولة جميع مواطنيها. وفي الضفة الغربية على شكل استيطان ونهب أراضي وقمع وتنكيل باسم القانون، وبالنسبة لفلسطينيي الخارج فإن خطورة القرار تتمثل بالالتفاف على حق العودة.

وبالطبع، فهذا القانون يقوض حل الدولتين، بل وينسف ما تبقى من مراهنة على أي تسوية سياسية للصراع. فضلا عن كونه يمثل انتهاكا للحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، وينفي الرواية الفلسطينية؛ فالقانون لا يذكر بتاتا كلمة العرب أو فلسطين، وبالتالي فإنه يلغي أي حق للشعب الفلسطيني، عدا أنه يضفي شرعية على المستوطنات ووجودها. ١٦

ما العمل؟

بالرغم من أهمية التصدي الإعلامي للقانون، وشجبه من قبل الهيئات القيادية والمؤسسات القانونية والفصائل.. بيد أنه لا يجوز أن تكون ردة الفعل الفلسطينية مجرد الرفض والتنديد ومناشدة العالم بالتدخل، فالمطلوب خطوات عملية، وحيث إن الأمر يتعلق بصياغة قوانين ووثائق أساسية استراتيجية فلا يُعقل ألا يكون عند الفلسطينيين وثيقة، أو قانون أساس محل توافق ويحدد الثوابت والمرجعيات ويضبط العمل السياسي داخليا وخارجيا. بمعنى أنه يتوجب بداية تحصين البيت الداخلي الفلسطيني، وهذا بالضرورة يتطلب إنهاء الانقسام، وتوحيد الموقف والخطاب السياسي.

الخطوة الثانية تنظيم هجوم دبلوماسي قانوني في المحافل الدولية يستهدف القانون، وفضح الجوانب العنصرية فيه، وما يساعد على ذلك طبيعة القانون نفسه، وحيث أنه يتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي. فالأمم المتحدة أطلقت على سياسات الفصل العنصري الجنوب إفريقي وصف جريمة ضد الإنسانية، لأنها متناقضة مع المادتين ٥٥، و٦٥، من ميثاق الأمم المتحدة. واعتمد مجلس الأمن ذلك الوصف في قراراته اللاحقة. ذلك لأن القانون الدولي يعرف الفصل العنصري على الوجه التالي: ممارسة وسياسات بغرض هيمنة مجموعة سكانية على أخرى واضطهادها بصورة منتظمة، وارتكاب أعمال قتل وتعذيب واعتقال تعسفي وفرض ظروف معيشية صعبة، وحظر التزاوج بين أفراد المجموعتين، وتقسيم المناطق وإخضاع كل منطقة لقوانين مختلفة عن الأخرى، وإصدار تشريعات تمييزية في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وإذا جرى تقييم النظام الإسرائيلي استناداً للقانون الدولي، سنجد ما يزيد ويفيض من الممارسات العنصرية الإسرائيلية التي تكفي لوسمه بالعنصرية، تشهد على ذلك تقارير مجلس حقوق الإنسان، و»أمنستي»، ومنظمات حقوقية إسرائيلية وعربية مثل بيتسيلم وعدالة وغيرها من جهات الاختصاص.

الآن وبعد اعتماد قانون القومية اليهودي، توضحت الصورة بما لا يدع مجالا للتأويل. وبالتالي

يستطيع العالم تقييم النظام الإسرائيلي بالاستناد لقانون القومية والقوانين الممهدة كنظام أبارتهايد. والآن يمكن إخضاع النظام الإسرائيلي لمعاهدة الفصل العنصري الدولية بالاستناد للقانون العنصري الجديد، فضلاً عن الممارسات التمييزية والتعسفية بحق الشعب الفلسطيني. ١٧

قانون القومية الجديد يؤكد على عنصرية إسرائيل بنسخة دينية أصولية، وفي الوقت نفسه يجسد الأطماع والنهب الاستعماريين. حيث لا يمكن الفصل بين السياستين العنصرية والاستعمارية اللتين دمجهما القانون في سياسة واحدة. فهذا القانون إنما يعبر عن تصالح الحركة الصهيونية مع جذورها التي طالما حاولت نفيها وإنكارها. كما أن إقرار إسرائيل هذا القانون العنصري يفتح المجال أمام منظمة التحرير لمراجعة اعترافها بإسرائيل، سيما وأنها أعادت تعريف نفسها كدولة يهودية.

كل هذا مهم، لكن الأهم مواصلة النضال الشعبي وتنظيم الاحتجاجات الشعبية خارج وداخل الوطن، وعلى جانبي الخط الأخضر.

الهوامش

١- عبد الحفيظ محارب، يهودية الدولة: الفكرة، الدولة، وإشهارها، موقع عرب ٤٨، ٢٩-١١-٢٠١١.

٢- عزمي بشارة، قانون القومية: كم مرة سوف يعلنون قيام إسرائيل؟ العربي الجديد، ٢٤ يوليو ٢٠١٨.

٣- سليمان أبو إرشيد، قراءة مغايرة لقانون القومية، عرب ٤٨، ٢٨-٧-٢٠١٨.

٤- عزمي بشارة، قانون القومية، مصدر سبق ذكره.

٥- المصدر نفسه.

٦- المصدر نفسه.

٧- المصدر نفسه.

٨- المصدر نفسه.

٩- المصدر نفسه.

١٠- عبد الحفيظ محارب، مصدر سبق ذكره.

١١- المصدر نفسه.

١٢- المصدر نفسه.

١٣- ماذا يعني أن تصبح إسرائيل دولة يهودية، موقع تلفزيون المنار، ١٤-٣-٢٠١٤

١٤- أيمن عودة، ندوة قانون القومية الإسرائيلي، متحف ياسر عرفات، تنظيم ملتقى فلسطين الثقافي، ٢٩-٨-٢٠١٨. رام الله.

١٥- إبراهيم إبراش، قانون القومية الإسرائيلي والميثاق الوطني الفلسطيني، الحوار المتمدن- العدد: ٥٩٤٣ - ٢٤/ ٧/ ٢٠١٨.

١٦- ندوة في رام الله حول قانون القوميّة، تنظيم لمركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار، وكالة وطن، ٢٦-٧-٢٠١٨.

١٧- مهند عبد الحميد، ما بعد قوننة العنصرية الإسرائيلية، الأيام، ٢٠١٨-٠٧-٣١.

قانون القومية، الخلفية والابعاد والاسقاطات

هنيدة غانم*

أقر الكنيست الاسرائيلي في ١٨ تموز ٢٠١٨ بالقراءة النهائية قانون أساس "اسرائيل الدولة القومية للشعب اليهودي " الذي جاء فيه أن "أرض إسرائيل هي الوطن التاريخي للشعب اليهودي، وبها قامت دولة إسرائيل التي ينحصر فيها حق تقرير المصير على الشعب اليهودي، وأن القدس الكاملة والموحدة هي عاصمة إسرائيل التي تكون مفتوحة أمام الهجرة اليهودية، وجميع الشتات اليهودي، حيث يعد الاستيطان اليهودي قيمة قومية، يوجب تشجيعه وتطويره." ولم يذكر الفلسطينيون او العرب في القانون، فيما ذكرت لمرة واحدة اللغة العربية على طريق السلب من حيث تخفيض مكانتها من لغة رسمية الى لغة ذات مكانة خاصة.

تعالج هذه الورقة المعاني والابعاد السياسية والقومية والقانونية لسن قانون أساس القومية وتفحص علاقته بالتغيرات الداخلية في إسرائيل، وذلك من خلال التطرق الى ثلاثة أسئلة أساسية تتفرع منها أسئلة ثانوية ترتبط بسن القانون وهي:

المنطلقات المركزية لقانون القومية

تنطلق الرؤية الأساسية الموجهة لقانون أساس "إسرائيل الدولة القومية للشعب اليهودي" كما تجلت في بنوده المختلفة، وكما عبرت عنها تصريحات السياسيين المبادرين والداعمين له من حقوق ومصالح الشعب اليهودي في إسرائيل والعالم وسط استبعاد أي قيم مواطنة احتوائية تضمن مساحة للمشاركة للمواطنين الفلسطينيين في الداخل. تشكل حصرية الحقوق في "ارض/دولة إسرائيل في العالم" الناظم المركزي للقانون، حيث يتم اعتبار اليهود شعبا وحيدا يستحق الحقوق القومية والجماعية في إسرائيل التي يشار اليها انها تقع في ارض إسرائيل دون إشارة الى حدودها.

وقد جاء في البند أ من المبادئ الأساسية لقانون القومية أن "ارض إسرائيل هي الوطن التاريخي للشعب

* باحثة في الشأن الإسرائيلي - مدير عام مركز مدار.

اليهودي، وفيها قامت دولة إسرائيل"، اما في البند ب فجاء "ان دولة إسرائيل هي الدولة القومية للشعب اليهودي وفيها يقوم بممارسة حقه الطبيعي والثقافي والديني والتاريخي لتقرير المصير. وفي البند ج تم التحديد: "ممارسة حق تقرير المصير في دولة إسرائيل حصرية للشعب اليهودي". وفي البند الثالث جاء "القدس الكاملة والموحدة هي عاصمة إسرائيل". وتم في البند الخامس الإشارة الى ان إسرائيل تكون مفتوحة " أمام قدوم اليهود ولمّ الشتات." وفي البند السادس التأكيد على علاقة إسرائيل بيهود العالم " تهتم الدولة بالمحافظة على سلامة أبناء الشعب اليهودي ومواطنيها، الذين تواجههم مشاكل بسبب كونهم يهودًا أو مواطنين في الدولة" ان الدولة "ستعمل في الشتات للمحافظة على العلاقة بين الدولة وأبناء الشعب اليهودي.

ولم يتم ذكر العرب في القانون الا من خلال "السلب" عبر تخفيض مكانة اللغة العربية من لغة رسمية الى لغة ذات مكانة خاصة كما جاء في البند الرابع ب "اللغة العربية لها مكانة خاصة في الدولة؛ تنظيم استعمال اللغة العربية في المؤسسات الرسمية أو في التوجه إليها يكون بموجب القانون."

القانون بوصفه نقطة فارقة

ويشكل هذا القانون نقطة فارقة في المسيرة التشريعية للدولة، يرتبط ذلك باعتماده على ثنائية الحضور الطاغي للعنصر اليهودي مقابل تغييب المواطن الفلسطيني واسقاطه من حساباتها. وفي هذا السياق يشكل الشعب اليهودي الوحدة الوحيدة التي يحق لها حق تقرير المصير في الدولة، لكن هذا الشعب لا يقصد به المواطنون الفعليون في إسرائيل بل يشمل كل اليهود الموزعين في العالم، بغض النظر عن علاقتهم ومدى انتمائهم او حتى رغبتهم في ان يكونوا جزءا من هذه الكينونة، بالمقابل يغيب عن هذه الوحدة المواطنون الفلسطينيون أبناء البلاد الذين يشكلون حوالي ٢٠٪ من المواطنين، هذه حالة فريدة بالتأكيد من حيث تغييب "وحدة المواطنة"، وتحويلها من وحدة للاحتواء وأساس لديموس جماعي ومواطنة جامعة في الدولة، الى وحدة مبنية بدئيا على الاقصاء والابعاد لجزء من المواطنين على أساس قوميتهم، في هذا السياق يتم تشكيل وحدة المواطنة بوصفها "اثنوس عابر للحدود"، يضم بشكل اوتوماتيكي اليهود في كل العالم لدائرة "المواطنة الممكنة" التي تنظم وتهندس اثنو-عرقيا، متمحور حول فكرة الشعب اليهودي وفوقيته، حيث يتم نحت القيم الموجهة للدولة والحقوق وفق عامل الاثنية العرقية اليهودية التي لا تميز فقط ضد الفلسطينيين بل لا تراهم اصلا.

من المهم هنا الاخذ بعين الاعتبار ان عامل الحصرية اليهودية لا يستثني فقط المواطنين العرب في الداخل من منظوره بل أيضا يبقي باقي الفلسطينيين في أراضي ال٦٧ في منطقة معتمة لسبب بسيط انه حين يتحدث عن حصرية حق تقرير المصير لليهود في إسرائيل لا يعين لنا ما هي حدود إسرائيل ولكنه يعين لنا انها تقع في ارض إسرائيل أي ارض فلسطين التاريخية الممتدة من البحر الى النهر وهو ما يعيد للاذهان فكرة الفرق التوراتية بين مملكة إسرائيل التي أسسها يهوشواع بن نون والأرض الموعودة، اذ تشكلت هذه المملكة وفق الرواية التوراتية على جزء من الأرض الموعودة وليس كلها، ووفق التحليلات الدينية للحاخامات اليهود فان ما لم يحتل

من الأرض الموعودة ظل بمثابة ارض ممكنة للاحتلال شرعا.

ويشكل الفلسطينيون في "ارض إسرائيل" حوالي نصف السكان ويشكل اليهود نصفهم الثاني، اما في حدود دولة إسرائيل التي اشير في القانون الى انها قامت في ارض إسرائيل (دون تحديد حدودها) فيشكل الفلسطينيون ٢٠٪ من سكانها ومواطنيها، وهي نسبة سيالة وغير نهائية ويمكن ان تتقلب لو قررت إسرائيل ضم مناطق إضافية من "وطنها التاريخي" ارض إسرائيل لحدود دولة إسرائيل! .

اخراج المواطنين الفلسطينيين من ديموس المواطنة

تتأسس الرؤية الحصرية لحق تقرير المصير لليهود في اسرائيل على فكرة الاثنوس اليهودي، والمتمركزة على الذات اليهودية رغم الواقع ثنائي القومية في دولة إسرائيل، هذه الفكرة كما اسلفت مبنية وفق مبدأ "الاحتواء/الابعاد، حيث تحتوي الجماعة اليهودية كل من يعرف بانه يهودي وفق قانون العودة من العام ١٩٥٠ وقانون الجنسية وتنظيم الدخول لإسرائيل من عام ١٩٥٢ ووفق تعريفات إجرائية مبنية بالأساس على هوية الدم الاثنية التي يتم اجتراحها وتعديلها كل الوقت، ولا يعرف الفلسطيني وفق هذا المنطق الا من خلال "غيابه" حيث يتم التغييب الى أداة للابعاد والاسقاط خارج حدود هوية الجماعة /القبيلة، ويتم دفعه الى خارج دائرة النظر الأخلاقي والحسابات الأخلاقية والحقوقية والخير العام التي يتم هندستها وفق مصلحة الشعب اليهودي "جماعة المواطنة " بغض النظر عن مكان تواجدها، واعتبار كل من لا ينتمي لها بانه خارج مجال الاعتبار. تكمن أهمية هذه العملية الهندسية في المخاطر الاستراتيجية الممكنة مستقبلا بسببها، وفتحها لباب على مصراعيه للتنكيل بهم وليس فقط التمييز ضدهم.

لفهم هذه الابعاد من الممكن الاستعانة بما اسمته الباحثة هلن فاين ب"حدود الالتزام" وهو عبارة عن جماعة من الناس تربطهم التزامات متبادلة لحماية بعضهم البعض وتوحدهم مرجعية مقدسة او اله مقدس، اذ ان "عالم الالتزام " يشير الى الحدود الخارجية للفضاء الاجتماعي الذي تطرح فيه القضايا الأخلاقية، حيث لا يكون لهذه القضايا أي معنى خارج هذه الحدود، ولا تكون الوصايا الأخلاقية ملزمة خارج هذا العالم، بحيث لا يبقى سوى طرد الضحايا من عالم الالتزام حتى يتم إخفاء انسانيتهم، ولكن في حالة الفلسطينيين فقد مرت عملية طرد الفلسطينيين من عالم الالتزام على مراحل، بدأت بطردهم من المكان عام النكبة ومنع عودتهم وبالتالي اخفائهم فعليا عن مجال نظر الإسرائيلي، فيما تم اخراج المتبقين العرب الذين نجوا من النكبة من عالم الالتزام مباشرة مع الإعلان عن إسرائيل دولة يهودية ووضعهم تحت الحكم العسكري الذي انتهى عام ١٩٦٦. تحول اخراج الفلسطينيين من عالم الالتزام الى المخيمات الى جزء مؤسس لإسرائيل، وطبقة لا وعيها الحاملة لأخلاقياتها الحصرية، وكان رفع الحكم العسكري عن البقية خطوة باتجاه تحويل حدود عالم الالتزام الى حدود غير مفكر فيها راسخة، عبر محاولة ادخال العرب في إسرائيل ضمن هوامش حدود الالتزام مقابل ترسيخ طرد اللاجئين من حدود الالتزام ونزع أي شرعية عن مطالب اعادتهم الى بلداتهم التي هجروا منها

باعتباره خطاب تهديد ومكمن خطر على جماعة الالتزام.

ضمن هذه الرؤية الاثنو-قومية العرقية لخط حدود جماعة الالتزام، أخرج الفلسطيني من الجماعة بداية جسديا ثم اغلق في عتم المخيم وخانة اللامبالاة لا يرى ولا يحسب ولا يعتبر وشكلت هذه المرحلة أولى مراحل إقامة الدولة اليهودية الديموقراطية بمفهومها الصهيوني، اذ ان طرد العرب شكل فعل عنف مؤسس لخلق أكثرية "يهودية ديموقراطية" وهو ما كان مستحيلاً لو بقي الفلسطينيون كأكثرية حيث كان من المستحيل احتمال مشاركتهم بلعبة ديموقراطية وكان لا بد حينها من تأسيس منظومة سيادة عرقية واضحة. فعل التطهير الاثني والنكبة كانا الخلفية التي تم على أساسها صياغة وثيقة الاستقلال الاسرائيلية التي شكلت وفق الحقوقية الإسرائيلية روت جابيزون (٢٠١٨) "وثيقة يهودية صهيونية استيطانية تتحدث عن الرؤيا اليهودية للدولة" لكنها أيضا تتحدث عن قيم مساواة وديموقراطية عامة يمكن ان تشكل فتحة لبقايا الفلسطينيين الذين صاروا اقلية للدخول الى هوامش المواطنة مع عدم قدرتهم على التأثير على وجهتها التي تم تصليبها كيهودية بمجموعة من القوانين المركزية كقانون العودة. ظل الفلسطيني الذي اعطي على هامش جماعة الالتزام/ المواطنة المعتبرة بحكم القيم الموجهة التي صكت في وثيقة الاستقلال والقوانين اللاحقة، يتأرجح من على حفتها بين الدمج مرة والتهديد بالإخراج مرة أخرى وفق ما يبديه من "حسن سير وسلوك" وخنوع او مقاومة ـ تتجاذبه التيارات المتقاتلة في جماعة الالتزام وتخضع مكانته لحساباتها للربح والخسارة الانتخابية دون ان تدخله حقا الى عالم التزامها او تقر به كائنا متساويا ، بالمقابل وفي العقود الأولى من إقامة إسرائيل لم تنشغل المؤسسات بالموازنة بين ديموقراطيتها ويهوديتها اذ لم تكن حاجة لذلك طالما لم يقم العربي فعليا بالاستئناف على قيمها او تحديها بشكل جدي.

ما بين سؤال من هو اليهودي، ومعادلة الدولة "اليهودية الديموقراطية" حتى قانون القومية انشغلت مؤسسات الدولة في الفترة الأولى لإقامتها بأسئلة داخلية حول تعريف من هو اليهودي! ووفق اية معايير يمكن اعتبار شخص بانه يهودي او لا وما هي العلاقة بين الهوية الدينية والقومية؟ ومتى يمكن ان يتوقف اليهودي عن ان يكون يهوديا؟ انشغل المشرعون في هذه الفترة بنحت العلاقة بين الديموقراطية والتشريعات المرتبطة بالشرائع اليهودية، بتحديد ساعات العمل والعطل، قانون منع تربية الخنزير، قانون الأعياد وأيام العطل الرسمية، قانون الأحوال الشخصية وقانون المحاكم الدينية. وفي المجال القومي- الإثني بوضع نص قانون العودة من العام ١٩٥٠ وقانون المواطنة والدخول الى اسرائيل وقانون مكانة الهستدروت العمالية - الوكالة اليهودية لأرض إسرائيل ١٩٥٢- والذي يعطي دوراً رسمياً للوكالة في "تجميع شتات" اليهود وتحويلهم إلى أرض إسرائيل- وقانون أراضي إسرائيل ١٩٦٠ الذي يمنع بيع الأراضي التابعة للكيرن كييمت وأراضي الدولة لأية جهة كانت مع العلم أن أغلبية الأراضي التي صودرت بموجب قانون أملاك الغائبين هي أراض لفلسطينيين سواء أكان جزء منهم لاجئين في خارج الدولة أم كانوا لاجئين داخليين.

كان الفلسطيني مهمشا من كل هذا الخطاب يقبع تحت الحكم العسكري غير مرئي وغير مهدِّد، وظل غير ذي صلة بتعريف الدولة وقيمها ووجهتها القيمية والنقاشات الداخلية بين تيارات ارثوذوكسية وعلمانية وليبرالية ويمينية طالما كان كذلك. لكن هذا الوضع بدأ بالتغيير حين حصلت عمليتان موازيتان الأولى مرتبطة بصعود طبقة وسطى واكاديمية جديدة من الفلسطينيين في الداخل والثاني احتلال عام ١٩٦٧ الذي أدى الى التحول من سؤال هوية اليهودي الى سؤال حدود الدولة والاستيطان والتغير التدريجي الذي رافق ذلك في النخب العامة التي بدأت بالتحول من النخب التقليدية العمالية المؤسسة الى النخب القومية اليمينية التي تحولت لاحقا الى يمينية مسيانية واستيطانية. صعود الطبقة الوسطة المثقفة أدى أيضا الى تغير في الخطاب القومي وخطاب المواطنة وطرح فكرة الديموس مقابل صعود القومية الاستيطانية والتشديد على القيم اليهودية والاستيطان والاثنوس.

وإذا كانت إسرائيل قد انشغلت منذ اقامتها وحتى نهاية السبعينات بصياغة حدود الهوية الداخلية من خلال مناقشة من هو اليهودي، ومن يحق له الهجرة ومن لا يحق له، فان سنوات الثمانينات بدأت تشهد بدايات تحويل النقاش نحو مناقشة معادلة هوية الدولة القومية كيهودية وديمقراطية في مقابل المواطن الفلسطيني. في هذا السياق ظهرت لأول مرة توليفة دولة إسرائيل "يهودية وديمقراطية " قانونياً العام ١٩٨٥ للإشارة إلى طبيعة النظام في إسرائيل، وتم ذلك من خلال تعديل قانون أساس الكنيست (تعديل رقم ٩ فرع ٧ أ في القانون). جاء في التعديل الذي أقر في ٣١ تموز ١٩٨٥ في أعقاب قرار محكمة العدل العليا منع حركة كاخ والحركة التقدمية من خوض الانتخابات، وحدد التعديل عدم مشاركة أية قائمة تهدف أو تعمل على رفض وجود دولة إسرائيل كدولة الشعب اليهودي، أو ترفض الطابع الديمقراطي للدولة أو تحرض على العنصرية في انتخابات الكنيست.

لا تشترك بالانتخابات قائمة اذا كان من ضمن أهدافها او اعمالها رفض وجود إسرائيل كدولة يهودية او رفض طابعها الديموقراطي او التحريض للعنصرية .

ومنذ هذا التعديل تنشغل محكمة العدل العليا تقريباً في كل انتخابات للكنيست في قضايا يتقدم بها رؤساء قوائم، من العرب خاصة، ضد قرار لجنة الانتخابات منعهم من خوض الانتخابات، سواء بحجة التحريض حيناً أم بحجج عدم الاعتراف بيهودية الدولة حيناً آخر.

وفي العام ١٩٩٢ عادت توليفة الدولة اليهودية والديمقراطية للظهور مرة أخرى على خلفية تصاعد خطاب "دولة المواطنين" والتحدي الذي طرحته فكرة المساواة التامة في المواطنة امام بنية يهودية الدولة، وهو ما أدى الى سن قانوني أساس يستدمجان فكرة اليهودية والديموقراطية، حيث سن قانون أساس حرية العمل في شهر آذار ١٩٩٢، وجاء فيه:

ان هدف هذا القانون الحفاظ على حرية التشغيل من اجل إرساء بقانون أساس قيم دولة إسرائيل كدولة

يهودية وديموقراطية.

وكذلك تم سن قانون أساس حرية الانسان وكرامته الذي سن ذات العام وجاء في بند أهدافه أ١ :

ان هدف قانون الأساس هذا حماية كرامة الانسان وحريته، وإرساء قيم دولة إسرائيل كدولة يهودية وقومية في هذا القانون.

وفيما هدف القانونان إلى ضمان حقوق أساسية، إلا أنهما كانا أيضاً تأكيداً على أن هذه الحقوق تأتي في إطار القيم الأخلاقية لإسرائيل بوصفها دولة "يهودية وديمقراطية". وقد جاءت التوليفة بين العامل اليهودي الخاص وقيم الديموقراطية العامة على خلفية وجود ائتلاف حكومي حينها يشمل حزب العمل وميرتس وفي محاولة توفيقية بين الدمج والابعاد في معادلة واحدة، وأدى تقنين توليفة الدولة اليهودية والديمقراطية إلى صعود جدل داخلي حول المعنى العملي لدولة يهودية وديمقراطية، وحول الإمكانيات العملية للتوفيق بين المركبات الخاصة اليهودية من جهة، والالتزام في ذات الوقت بالمركبات العالمية للديمقراطية. وتدل هذه النقاشات على اعتراف ولو مضمر في الجانب الإسرائيلي بالدمج بين مركب قبلي بالغ في خصوصيته هو اليهودية، ومركب إنساني عالمي يساوي بين المواطنين هو الديمقراطية، الأول يقصي ويبعد والثاني يحمي ويحوي. غير ان هذين المركبين كما يشير كل من يوآف بيلد وغرشون شافير يغطيان على عامل بنيوي أساسي في تركيبة الدولة الإسرائيلية، ويحاولان عملياً إخفاءه أو استبعاده من النقاش وهو البعد الاستعماري الذي صبغ عملية بناء الأمة والدولة وشكّلها في الإطار الإسرائيلي. ان هذا البعد الذي تحول الى البعد الحاضر الغائب هو ما يظلل التجربة الإسرائيلية ويميزها عن تجارب دول العالم الأخرى التي تحاول إسرائيل الإشارة إليها في أثناء المحاججة بشأن حقها في أن يتم الاعتراف بها كدولة يهودية.

كانت سنوات التسعينات حبلى بالتناقضات الناتجة عن التحولات الاجتماعية والأيديولوجية والصراعات ومرحلة بدء صعود اليمين الجديد كقوة مركزية، ونقصد باليمين الجديد تآلف الأحزاب الحريدية (المتشددة دينيًا)، والأحزاب المتدينة القومية، والمستوطنين، وأعضاء الكنيست المتطرفين في حزب الليكود، والجماعات القومية المتطرفة المنضوية ضمن حزب "إسرائيل بيتنا"، وحركات مثل "إم ترتسو" وغيرها [١]. في هذه الفترة تصاعد الصراع بين توجه يقوده حزب العمل وميرتس "لحل سلمي" مع الفلسطينيين على أساس أوسلو، وتبني توليفة قيمية للدولة تدمج بين قيم اليهودية والديموقراطية واكثر انفتاحا امام العرب كمواطنين مقارنة بما سبقه، مقابل تيار يميني استيطاني يتصدره نتنياهو ومجلس الاستيطان يرى في هذا الانفتاح كارثة، وباعتبار اعتماد رابين على الأحزاب العربية لتمرير "أوسلو" شكلاً من خيانة الجماعة اليهودية، انتهى الصراع لصالح اليمين مع اغتيال رابين وانتخاب نتنياهو عام ١٩٩٦ رئيسا للحكومة، وافتتاح مرحلة من الاستقواء المتصاعد لليمين وخطابه المسياني والاستيطاني والشعبوي والذهاب باتجاه التشديد التدريجي على يهودية الدولة وبُعدها الاثني الحصري مقابل اقصاء متدرج للفلسطينيين ونزع الشرعية عنهم.

في هذا السياق لا بد من التوقف امام امرين مرتبطين بتحويل خطاب يهودية الدولة ليس فقط نحو فلسطينيي الداخل بل أيضا باتجاه الفلسطينيين عامة حدثا بشكل متقارب في ٢٠٠٧، وهما مطلب الاعتراف بإسرائيل دولة قومية للشعب اليهودي من منظمة التحرير وتحذيرات الشاباك للفلسطينيين في الداخل من الاستئناف حول يهودية الدولة في اعقاب نشر مشاريع الرؤى في الداخل.

١. الاعتراف بإسرائيل دولة يهودية للشعب اليهودي: طرحت الحكومة الإسرائيلية في نهاية ٢٠٠٧ غداة الآونة الأخيرة مطلب الاعتراف بإسرائيل كدولة قومية للشعب اليهودي باعتباره شرطاً لا يمكن الاستغناء عنه لأي اتفاق سلام إسرائيلي- فلسطيني، وقد حولته إلى قضية جوهرية، بل وجعلته متقدماً على قضايا جوهرية أخرى أبعد مدى، علماً بأن هذا المطلب لا يحظى بإجماع إسرائيلي داخلي، كما أنه غير مفصّل في صيغة واحدة. ومر مطلب الاعتراف بإسرائيل دولة يهودية بعدة تحولات، وطرح في عدة صيغ، وارتبط في عدة محطات بنقاشات داخلية مرتبطة بصراعات انتخابية بين الأحزاب اليمينية خاصة بين البيت اليهودي والليكود وإسرائيل بيتنا، وبعد ان طرح عام ٢٠٠٧ عاد رئيس الحكومة الإسرائيلية الحالي بنيامين نتنياهو وأكد عليه في إطار دعايته الانتخابية عشية انتخابات الكنيست ٢٠٠٩ لكنه بعد ذلك صار يطرح الاعتراف بإسرائيل دولة قومية للشعب اليهودي كشرط للتوصل إلى أي اتفاق سلام بين الجانبين.

٢. في ١٣،٣،٢٠٠٧، أي قبل أربعة اشهر من طلب ليفني الاعتراف بإسرائيل دولة قومية يهودية كتب رئيس جهاز الشاباك في حينه يوفال ديسكين لمحرر جريدة "فصل المقال"، التي يصدرها التجمع الوطني الديمقراطي من الناصرة، وفي رد على سؤال موجه من علاء حليحل، أن الشاباك سيعمل على "ملاحقة الأعمال التي تسعى إلى المس بطابع الدولة اليهودي حتى لو تمت بأدوات ديمقراطية". جاء هذا الخطاب على خلفية نشر وثائق الرؤى التي أصدرتها تباعا في ٢٠٠٦ مجموعة من مثقفي وقيادات المجتمع المدني الفلسطيني في إسرائيل، وشكلت محاولة لوضع تصور لهوية الفلسطينيين وعلاقتهم مع باقي الشعب الفلسطيني من جهة ومع الدولة التي يحملون مواطنتها من جهة أخرى. فقد نشر في العام ٢٠٠٦ تصور لجنة الرؤساء العرب التي تعد من أعلى الأجسام التمثيلية شبه الرسمية للفلسطينيين في الداخل، وأيضاً وثيقة مركز مساواة الذي يتابع حقوق المواطنين العرب في إسرائيل، ثم في العام ٢٠٠٧ نشر الدستور الديمقراطي الذي صاغه مركز عدالة، وكذلك وثيقة حيفا التي بلورها مدى الكرمل- المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية . في أعقاب نشر هذه الرؤى أعربت مصادر أمنية إسرائيلية رفيعة المستوى عن قلقها من "زيادة التطرف" بين المواطنين العرب واعتبرته بمثابة "خطر استراتيجي حقيقي على المدى البعيد".

كما قام رئيس الحكومة حينها إيهود أولمرت بعقد اجتماع لرؤساء الجهات الأمنية لمناقشة هذا التطرف، وقد نشرت جريدة معاريف في ١٣،٣،٢٠٠٧ أن أكثر ما يقلق الجهات الأمنية ظاهرة "وثائق الرؤى" التي تتكاثر بين النخب المختلفة لعرب إسرائيل، حيث توجد الآن أربع وثائق، "قاسمها المشترك هو النظر إلى إسرائيل كدولة

جميع مواطنيها وليس كدولة يهودية".

شكلت هذه الوثائق تحديا مهما للخطاب الصهيوني ولفكرة الدولة "اليهودية الديموقراطية"، وطالبت بالمواطنة الكاملة المتساوية، وكانت أهميتها أولا بزخمها والتفاف المئات حولها من النخب، وثانيا بانها شكلت تأشيرا للدولة بان الفلسطينيين في الداخل لم يعودوا مجرد اقلية هامشية قابلة للاخضاع بل انهم صاروا يشكلون تحديا، وترافق كل ذلك مع تعاظم حضور وقوة الفلسطينيين في الداخل بسبب تزايد نسبة التعليم، وقد كتب رون جيرلتس[٢] مدير عام جمعية سيكوي التي تعنى بتشجيع المساواة بين العرب واليهود عن وجود علاقة متينة بين تزايد العنصرية والشعبوية وازدياد قوة العرب وحضورهم في الحيز العام الإسرائيلي سواء الاقتصادي والتشغيلي والجمعيات او في الحيز السياسي ولم يعد قابلا للتجاهل، فقد وصل عدد الطلاب العرب في السنة الدراسية ٢٠١٤- ٢٠١٥ إلى ما يقارب ٢٧ ألف طالب عربي من مجمل ٣١١,٨ ألف طالب ويشكلون ١٤,٤٪ من مجمل الطلاب في إسرائيل. وتصل نسبتهم في جامعة حيفا الى ٢٥٪ من عدد الطلاب العام[٣]. وتشير معطيات مجلس التعليم العالي الاسرائيلي إلى أن ١٨٪ من طلاب الطب للقب الأول في الجامعات الإسرائيلية هم من العرب، ٣٨٪ من طلاب طب الأسنان هم من العرب، و-٣١٪ من طلاب الطب المساعد هم من العرب، ٤١٪ و-٣٩٪ من طلاب الصيدلة والتمريض على التوالي هم عرب[٤].

تعاظم قوة العرب في الداخل توازى مع التغيرات الديموغرافية الداخلية في إسرائيل والتحول التدريجي للمجتمع الإسرائيلي وبنيته الداخلية وصعود قوة اليمين الاستيطاني. فقد تحول المجتمع الاسرائيلي من مجتمع علماني بغالبيته العظمى غداة اقامة اسرائيل الى مجتمع اكثر تدينا ومحافظة حاليا. وفيما كان اغلب اليهود الاسرائيليين يعرفون انفسهم غداة اقامة اسرائيل بانهم علمانيون ينتمون لتيارات اشتراكية فان اقل من ٤٠٪ من اليهود اليوم يعرفون أنفسهم علمانيين بعد ان كان ١١ ٪ من اليهود اليوم يعتبرون أنفسهم حريديم، ٢٤ ٪ متدينون ومتدينون محافظون، ٢٣٪ محافظون غير متدينين. ١٤- ١٨٪ من اليهود في اسرائيل يعرفون انفسهم متدينين قوميين وعددهم حوالي ٧٥٠ الف شخص، وفيما تمحورت الصدوع المجتمعية الداخلية في إسرائيل حول الصدوع الاثنية (شرقي-غربي) التي هيمنت في اول خمسة عقود لاقامة اسرائيل فانها بدأت بالتمحور لاحقا حول الصدع الديني والعلماني المنضفر أيضا ببعد أيديولوجي. يرتبط هذا التحول الى حد بعيد باندماج أبناء المهاجرين الشرقيين واستيعابهم في النخب القائمة التي كانت اشكنازية خالصة وظهور تدريجي لفئة المستوطنين بعد احتلال ١٩٦٧ ، وتحولهم الى قوة سياسية يهيمن عليها التوجه الديني واليميني الاستيطاني، بالمقابل "صهينة " ويمننة تدريجية للحريديم وتعاظم اندماجهم في المشروع الاستيطاني حيث يشكل اليوم الحريديم ٣٠٪ من المستوطنين وهم اكثر حضورا من المستوطنين المتدينين القوميين الذين يشكلون حوالي ٢٧٪ من المستوطنين! وتعد بيتار عيليت اكبر مستوطنة في الضفة الغربية ويعيش فيها اليوم اكثر من ٦٤ ألف مستوطن حريدي.

وتنعكس هذه التغيرات بخبوّ النخب التقليدية التي أسست وقادت اسرائيل في مراحل التأسيس وهيمنت لعدة عقود على مفاتيحها، فقد شهدت إسرائيل افولا مستمرا للنخب التقليدية للصهيونية المؤسسة بقيادة حزب مباي التي حكمت اسرائيل حتى صعود اليمين "التنقيحي" للحكم عام ١٩٧٧ والذي حمل صعوده في ظل تصعيد المشروع الاستيطاني وتدينه- كما نوضح لاحقا- بذور افول حكم اليمين التنقيحي بصيغته الجابوتنسكية والذي يعتبر في إسرائيل ممثلا ل"اليمين العقلاني"، ويضم ما يسمى امراء الليكود من أبناء مؤسسي اليمين التنقيحي الحاكم على غرار دان مريدور وبيني بيغن، ورئيس الدولة رؤوفين ريفلين[٥] مقابل افول هذا اليمين، شهدت إسرائيل صعوداً مستمراً لـ "اليمين الجديد" الذي يتألف من الأحزاب الحريدية (المتشددة دينيًا)، والأحزاب المتدينة القومية، والمستوطنين، وأعضاء الكنيست المتطرفين في حزب الليكود، والجماعات القومية المتطرفة المنضوية ضمن حزب "إسرائيل بيتنا"، وحركات مثل "إم ترتسو" وغيرها[٦].

السيطرة على النخب مرت التغيرات بثلاثة انزياحات ادت الى تحول منتظم ومثابر وتدريجي في البنى الداخلية للدولة وتركيبة النخب. المرحلة الاولى التي يمكن تسميتها اسرائيل الاولى تعود جذورها لفترة الييشوف مرورا باقامة الدولة وبدء افولها مع انقلاب ١٩٧٧ وتميزت بسيطرة حزب مباي وتفريعاته وبطابعها العمالي الاشتراكي الأشكنازي الذي شكل امتدادا لبنية وتشكيلة مباي ذاتها، وهو ما انتهى مع صعود قوة الشرقيين ودعمهم لليكود بزعامة بيغن الذي وصل بفعل دعمهم لرئاسة الحكومة في اول مرة ينجح بها الليكود بالفوز ويخسر حزب مباي الانتخابات، وتكمن اهمية هذه الانتخابات بعلاقتها مع الصدع الاثني الداخلي اذ بلغ الشرقيون في عام ١٩٧٧ تقريبا ٤٤٪ من مجموع اليهود الاسرائيليين، وتجندوا لدعم بديل مباي بسبب سياساتها العنصرية تجاههم، وهو ما ادى فعليا الى انتهاء عصر اسرائيل الاولى وصعود اسرائيل الثانية التي تمازج بها البعد الايديولوجي لليمين مع البعد الطائفي والاحتجاج الاجتماعي وشكل بديلا لدولة حزب مباي الاشكنازية العمالية، واستمر هذا التمازج بين الشرقيين والليكود حتى تشكل حركة شاس على أساس هوية تدمج ما بين البعد الطائفي الشرقي والمركب الديني لتشكل حزبا جاذبا لكثير من الشرقيين دون ان تتحول الى بديل كامل للشرقيين عن الليكود بسبب بعدها الديني والانفصالي بالذات.

تميز التزاوج بين اليمين الليكودي والشرقيين الى حد بعيد بتوسيع الليكود لخطابه الاجتماعي كي يسمح باجتذاب الشرقيين الى جانب خطابه الايديولوجي اليميني، لكن انطلاق الانتفاضة الاولى وتزايد مشروع الاستيطان في الاراضي المحتلة ثم انطلاق عملية السلام في مؤتمر مدريد وتوقيع اتفاقيات اوسلو وما رافقها من استقطاب داخلي في اسرائيل انتهى باغتيال رابين وترافق مع التحريض على العرب ادى الى نكوص الخطاب الاجتماعي الذي يهدف الى استقطاب الشرقيين من قبل اليمين مقابل استشراس الخطاب القومي والايديولوجي الاستيطاني حيث بدأنا نشهد منذ صعود حكومة نتنياهو الاولى بدء صعود اسرائيل الثالثة التي تتميز بالنزوع نحو التدين ً والمحافظة مجتمعيا والفكر الاستيطاني اليميني القومجي سياسيا، وهذا ما لم يكن ممكناً دون تحولات في القماشة الانسانية والتركيبة الديموغرافية وتوسع مشروع الاستيطان وادماجه للحريديم .

انعكس هذا التغير بشكل مهم في إزاحة تدريجية للنخب التقليدية، وسيطرة القوى اليمينية المتدينة والاستيطانية بدلاً منها على مفاتيح الحكم في إسرائيل.

وفي لمحة سريعة للنخب الحاكمة، يمكن أن نلحظ سيطرة القوى اليمينية-دينية-استيطانية على السلطة التشريعية (الكنيست) منذ ٢٠٠٣ حتى اليوم، فثمة في الكنيست اليوم أغلبية دينية-يمينية-استيطانية، يمثّلها ٦٧ عضواً ينتمون إلى التيارات الدينية اليمينية، فيما ينتمي ١١ آخرون إلى تيار الوسط-يمين (ويمثله حزب يوجد مستقبل)، مقابل انكماش الوسط-يسار إلى ٣٤ مقعداً (ميرتس والمعسكر الصهيوني)، بالإضافة إلى ١٣ مقعداً للقائمة المشتركة. ويسيطر اليمين، بحكم ذلك، على مقاليد السلطة التنفيذية (رئاسة الحكومة والوزارات) ومفاتيح القرارات، وهو من يتحكم بوجهة المجتمع والدولة والمؤسسات، ويفرض الوقائع على الأرض ليحسم القضايا الخلافية حول حدود الدولة والمواطنة ويهودية الدولة عبر توسيع وتعميق الاستيطان، وتمرير قوانين ذات طابع عنصري، وتحديد مواطنة فلسطينيي الداخل، كما يسعى لضبط الثقافة السياسية كثقافة يمينية من خلال التشهير بمنظمات حقوق الإنسان والمناهِضة للاحتلال، واتهامها بالعمل لصالح "الأعداء" ونزع الشرعية عنها[٧].

ومع أن بدايات صعود اليمين تعود لـ"انقلاب" انتخابات ١٩٧٧، إلا أنه أحكم السيطرة فعليّاً على السلطة التنفيذية منذ ٢٠٠٣، وما زالت حكوماته تتعاقب عليها بشكل متواصل منذ أكثر من ١٤ عاماً، مع الإشارة إلى أن بنيامين نتنياهو موجود في رئاسة الحكومة منذ ٢٠٠٩ بلا انقطاع (بائتلافات مختلفة كلها يمينية الطابع). ويضاف إلى كل ذلك مساعي اليمين الاستيطاني، بزعامة وزيرة القضاء، أيليت شاكيد، للسيطرة على السلطة القضائية ونجاحها في إدخال شخصيات جديدة ذات ميول يمينية إلى تركيبة قضاة المحكمة العليا بدل الشخصيات التي خرجت[٨]، وادخالها تغييرا على دورها تضمن نقل قضايا مرتبطة بالاحتلال من معالجتها الى المحكمة المركزية[٩]. أي أن اليمين، وبدعم من شاكيد، استطاع أن يتسلل إلى آخر معاقل النخبة الصهيونية الأشكنازية الكلاسيكية. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار التغيرات التي تحصل في النخب العسكرية وتدين الجيش المستمر[١٠]؛ فمن الممكن القول إن اليمين نجح، إلى حد كبير، في إحكام قبضته على مفاتيح الدولة المركزية.

وفي ظل حكومات نتنياهو المتعاقبة منذ ٢٠٠٩ تشهد إسرائيل محاولات حثيثة من أجل ترسيخ بنيتها اليهودية حصرا، وينعكس هذا بطرح مجموعة كبيرة من القوانين والتشريعات التي شكل قانون القومية حوصلة لها.

للتلخيص يمكن القول ان قانون القومية جاء ليحسم نهائيا الجدل حول بنية إسرائيل القيمية امام ثلاث جهات: المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل الذين علا حضورهم في الحيز السياسي وفي الحيز العام، منظمة التحرير الفلسطينية باعتبار ارض إسرائيل وطن الشعب اليهودي والقدس الموحدة عاصمة إسرائيل ١٩٦٧، النخب "اليسارية العلمانية اليهودية" التي حاولت الموازنة بين قيم اليهودية والديموقراطية.

١. امام الفلسطينيين في الداخل هدف قانون القومية الى اغلاق أي فرصة لبناء دولة المواطنين والى اقصاء

الفلسطيني المواطن نهائيا خارج جماعة الالتزام ما يعني تحويله فعليا الى "رعية" تحت مسمى مواطن، وبإخراجه هذا من جماعة الالتزام يكون الفلسطيني فعليا مكشوفا لممارسات الاخضاع والقمع والعنصرية دون أي رادع، بلا اية حماية مستقبلية، كل شيء ممكن تجاهه، هدم ام العراقيب في النقب او الخان الأحمر في مناطق ج، من اجل إقامة القرى والمستوطنات اليهودية الحصرية هو نموذج الارشاد للدولة اليهودية القومية. العربي ليس الا مشكلة يجب ابعادها وازالتها عن الطريق كيف تحتفل جماعة الالتزام بنصرها وحقها في بناء ديموقراطيتها الحصرية على خرائب اهل البلد.

٢. امام منظمة التحرير باعتبارها الممثل للشعب الفلسطيني، باعتبار ارض إسرائيل الدولة القومية للشعب اليهودي هي الدولة التي يحقق فيها اليهود تقرير مصيرهم استنادا الى حقهم التاريخي في البلاد. ويتساوق قانون القومية مع أيديولوجيا نتنياهو وقد جاء في خطاب بار ايلان الأول لنتنياهو: "الحقيقة البسيطة هي أن جذور الصراع كانت وما زالت رفض الاعتراف بحق الشعب اليهودي بدولة خاصة به في وطنه التاريخي".... وفي تصريح آخر في ٢٤,٥,٢٠١١ قال "إن الشعب اليهودي ليس محتلاً أجنبياً في يهودا والسامرة. إننا لسنا كالبريطانيين في الهند أو البلجيكيين في الكونغو. إن الأرض هي أرض أجدادنا" . وتبعا لهذا المنطق الذي يشكل ديباجة قانون "القومية" فإن الفلسطيني هو من يحتل إسرائيل وليس العكس! إذ إنه من غير الممكن أن يحتل اليهود وطنهم التاريخي. هكذا جاء في تصريح لنتنياهو: "فيما يتعلق بالدولة اليهودية طالبت [الفلسطينيين] آنذاك بالاعتراف بها. وقد سألتهم آنذاك: لماذا لا توافقون على الاعتراف بالدولة اليهودية؟ إننا [إسرائيل] نوافق على الاعتراف بدولتكم القومية رغم أن الثمن باهظ للغاية كونها تحتلّ أراضي نعتبرها جزءاً من وطننا. إن هذا الأمر لا يجوز الاستهانة به وأرجو تكراره في هذه المناسبة أيضاً لأنه شديد الصعوبة بالنسبة لنا".

لا يحدد القانون حدود دولة إسرائيل لكنه يشير انها في ارض إسرائيل، ولا يحدد مكان الاستيطان الذي سيدعمه مما يعني ان كل "ارض إسرائيل" بمستوطناتها وبؤرها هي مساحة للاستيطان، ناهيك طبعا ان القدس الكاملة والموحدة تعرف بانها عاصمة اسرائيل! كما يهدف قانون القومية الى تصفية قضية اللاجئين الفلسطينيين الذين شردوا من بلادهم خلال نكبة العام ١٩٤٨، إذ إن إسرائيل كدولة قومية للشعب اليهودي لن تقبل عودة اللاجئين الى داخلها لتناقضه مع طابعها القومي!

٣. امام النخب اليسارية المعارضة للاحتلال والنخب العلمانية: يتميز اليمين الجديد الذي يهيمن على مؤسسات اسرائيل اليوم بتشرب الخطاب التوراتي-المسياني، وبسعيه الى اخضاع التيارات الثقافية المعارضة لذلك كما تتجلى في مساع حثيثة لضبط الهوية الثقافية والمدنية للجماعة اليهودية كهوية يمينية وذلك عبر إطلاق مجموعة من المبادرات لنزع الشرعية عن الحركات والمنظمات والشخصيات المعارضة للاحتلال، والتشكيك في ولائها للدولة وتمثيلها على حافة الخيانة. ونشرت في هذا الإطار حركة "إم ترتسو" اليمينية في ١٤ كانون الأول ٢٠١٥ تقريرا عنوانه "المدسوسون"[١١] ضمنته أسماء منظمات إسرائيلية تتلقى الدعم من ممولين خارجيين من

أجل "تشويه وجه إسرائيل وتحويل جنود إسرائيل إلى مجرمي حرب".

واتهمت "إم ترتسو" المنظمات التي تشترك بمعارضة الاحتلال بأنها تتلقى أموالا من منظمات معادية لإسرائيل وأخرى فلسطينية عبر تحوير كامل للحقائق. وقد نشرت الحركة صور وأسماء الناشطين في منظمات ضد الاحتلال كحركة "لنكسر الصمت" وحظيت باهتمام إعلامي وبمساحة تغطية واسعة وبدعم شخصيات سياسية مهمة. وبعد نجاح حملتها هذه أطلقت الحركة حملة "مدسوسون في الثقافة" سعت عبرها كما نشرت إلى "كشف المدسوسين من قبل الصندوق الجديد[١٢] ومنظماته"، وبالرغم من أن هذه الحملة لاقت استنكارا واسعا أدى إلى استقالة مدير المنظمة إلا أن هذه الحملة تشي بالأجواء المحيطة بعمل الحركات المعارضة للاحتلال، وتحول عملها إلى مهمة صعبة وسط استقواء الحركات اليمينية واليمين المتطرف.

ومن أجل تضييق الخناق على الحركات المعارضة للاحتلال، طرح حزب "البيت اليهودي" على جدول أعمال الكنيست، في ٢٠١٥/٠٧/١٣، مشروع "قانون الجمعيات"، وذلك غداة صدور تقرير لجنة تقصي الحقائق الدولية الذي اتهم إسرائيل بارتكاب جرائم حرب خلال العدوان على غزة في الصيف الماضي. ويهدف مشروع القانون إلى تضييق الخناق بشكل كبير على منظمات حقوق الإنسان، وخاصة في مجال التمويل، إذ ينص على أن الجمعية التي تحصل على تمويل حكومات أجنبية بمبلغ يزيد عن ٥٠ ألف دولار، سيتم تعريفها "جمعية خارج"، وستلزم بدفع ضريبة تعادل ٣٧٪ من المبلغ. ويلزم مشروع القانون الجمعيات بأن تضع على موقعها الالكتروني وأوراق مراسلاتها الرسمية اسم الدولة التي تمنحها الدعم. كما يطلب اقتراح المشروع من الوزارات والجيش الإسرائيلي الامتناع عن التعاون مع هذه الجمعيات[١٣].

وفي ٢٠١٥/١٢/٢٧، صادقت اللجنة الوزارية لشؤون التشريع على هذا الاقتراح، وعلى اقتراح آخر مماثل لعضو الكنيست الياتوف من "إسرائيل بيتنا"، بالإضافة إلى اقتراح قانون حكومي مماثل تقدمت به وزيرة العدل ـ إيليت شكيد ـ ووفقه تلزم الجمعيات التي معظم تمويلها من دول أجنبية التصريح بهذا بإصداراتها الرسميّة، ويتوجب على موظفيها أن يعلقوا شارة خاصة في الكنيست وفي كل لقاء يحضره ممثل جمهور[١٤].

وتتقاطع مشاريع التضييق على المعارضين للاحتلال وإظهارهم كمتطرفين غير موالين، ومشروع الولاء الثقافي لريغف، وغير ذلك من التشريعات، مع واقع إعلامي مجند طوعيا لترويج قيم اليمين وخطاب الولاء للدولة والتحريض ضد الفلسطينيين على جانبي الخط الأخضر، وذلك بالرغم من أن اقطاب اليمين يحاولون اتهام الإعلام والصحافة باليسارية[١٥]. وفيما تعبر صحيفة يسرائيل اليوم وموقع واللا الإخباري عن خط نتنياهو وتدافع عنه، فان جريدة يديعوت المنافسة وموقعها على سبيل المثال تسعى لتجاوزهما من اليمين، وكذلك الأمر مع صحيفة معاريف، وتظل هآرتس الصحيفة الوحيدة التي تتبنى خطا نقديا يدافع عن قيم "ليبرالية" مقابل قيم "القومية الفاشية" التي تروجها الصحف الأخرى.

خلاصة:

لم يولد قانون القومية بالصدفة، بل نتج عن صيرورة من التحولات الداخلية وديناميات مجتمع المستعمرين المرتبطة بعلاقته مع السكان الأصليين من جهة وبالتغيرات في تركيبته المجتمعية وتحول النخب من جهة أخرى. وقد شكل احتلال ١٩٦٧ وما نتج عنه من زحف المشروع الاستعماري الى داخل الأراضي التي احتلت عاملا مهما في تصعيد الخطاب الديني المسياني القومي ولقيامه باخضاع الفكرة القومية للفكر الديني بعد ان كانت الصهيونية اخضعت الدين للفكر القومي. السيطرة على الأراضي المحتلة وإخضاع الفلسطينيين فيها للاحتلال العسكري وتعاظم البناء الاستيطاني ، اسهم في التحول التدريجي من الانشغال بسؤال من هو اليهودي الى سؤال بنية الدولة القيمية وهو ما تجلى في اول مرة في استدماج هوية الدولة كيهودية وديموقراطية في تعديل قانون أساس الكنيست ١٩٨٥، وثم قانون أساس حرية الانسان وكرامته وحرية التشغيل عام ١٩٩٢ حيث تمت محاولة الموازنة بين هوية الدولة القومية اليهودية وقيم الديموقراطية . هذه المحاولة وصلت نهايتها مع تزايد الانزياح نحو اليمين الجديد وشرعنة الاستيطان حتى تحويله الى جزء من الاجماع العام وهيمنة اليمين الجديد على مفاصل الدولة ، في مقابل تزايد حضور الفلسطينيين في إسرائيل وتحولهم من لامرئيين الى قوة فاعلة سياسيا واجتماعيا، حيث لم تعد المزاوجة بين قيم عالمية كالديموقراطية وقيم اليهودية الحصرية ممكنة ،ليأتي قانون القومية من اجل اغلاق إي فرصة ولو نظرية لبنية الدولة اليهودية امام فلسطينيي الداخل، وفتح المجال لتغيير الوقائع في الأراضي المحتلة من خلال الاستيطان ، ومحاصرة المؤسسات والنخب سواء تلك التي تعارض الاحتلال او تنادي بتغليب قيم الديموقراطية.

الهوامش

1. أنطوان شلحت، م.س.
2. رون جيرلتس، 2015، "العرب يتقوون، واليمين يرفع درجة مهاجمتهم"، هآرتس، 2.8.2015، (بالعبرية) على الرابط التالي ://https www.haaretz.co.il/opinions/.premium-1.2696224
3. مهند مصطفى، اوراق اسرائيلية 68، «التعليم العالي وتشغيل الأكاديميين في أوساط الفلسطينيين في إسرائيل" مركز مدار 2016 ، على الرابط التالي: https://bit.ly/2KNK1AB
4. . مهند مصطفى/ المصدر نفسه.
5. أنطوان شلحت، "اليمين الإسرائيلي الجديد- عودة إلى الوقائع" المشهد الإسرائيلي، 2.2.2016 على الرابط التالي : https://goo.gl/yZIu4Y (آخر مشاهدة 2.3.2017).
6. أنطوان شلحت، المصدر نفسه.
7. للاستزادة انظر/ي أنطوان شلحت "الفصل السياسي" في هذا التقرير، وأيضاً هنيدة غانم 2016 "الملخص التفيذي" في تقرير مدار الاستراتيجي 2016 المشهد الإسرائيلي 2015، في الملخص تطرّق واسع لآليات التحكم عبر القانون بالمنظمات المناهضة للاحتلال، وعلى رأسها منظمة "يكسرون الصمت". لا بد من الإشارة هنا إلى أن عام 2016 شهد مثابرة في استهداف هذه المنظمات، فقد تمت مهاجمة رئيس منظمة بتسيلم حجاي إلعاد من قبل غالبية السياسيين من اليمين والوسط بعد خطابه عن الاحتلال في الأمم المتحدة

في 16 تشرين أول 2016 (يمكن مراجعة الخطاب على الرابط: http://www.btselem.org/hebrew/settlements/20161014_security_council_address، آخر مشاهدة 8.3.2017) وقد كان رئيس الائتلاف من حزب الليكود دافيد بيطان اقترح أن تسحب جنسية إلعاد، وبعد أن اتضح استحالة ذلك، بادر لقانون "حجاي إلعاد" يمنع بموجبه الإسرائيليين من الدعوة لمقاطعة إسرائيل في محافل دولية، انظر/ي دفنة ليئال، 2016، "بيطان يبادر: قانون حجاي إلعاد"، موقع mako، 22.10.2016، متوفر على الرابط التالي: http://www.mako.co.il/news-military/politics-q4_2016/Article-e9d8910f45de751004.htm (اخر مشاهدة 8.3.2017). وفي حالة منظمة "يكسرون الصمت"، التي هي منظمة لجنود خدموا في الأراضي المحتلة، وقرروا الحديث عن بشاعة القمع والاحتلال، فقد تمت ملاحقة المنظمة ونشطائها والتشهير بهم في الإعلام ومن قبل القيادات السياسية، كما تم في 8 كانون الثاني 2017 في لجنة التشريع إقرار قانون "يكسرون الصمت" الذي يمنع بموجبه نشطاء "ينقضون قيم الجيش"، وقصد بالذات نشطاء "يكسرون الصمت"، من إعطاء محاضرات في المدارس، وكان المبادران للقانون هما نفتالي بينت ويائير لبيد، للاستزادة انظر/ي يكي ادمكر، "جولة لهدم الديموقراطية"، في موقع walla، 8.1.2017، على الرابط: http://news.walla.co.il/item/3029757 (آخر مشاهدة 8.3.2017). وللاستزادة عن نشاط منظمة "يكسرون الصمت" انظر/ي : http://www.shovrimshtika.org/ (آخر مشاهدة 8.3.2017).

8. للمزيد انظر/ي عميت سيغل، "انتصار لشاكيد"، موقع mako، 22.2.2017، على الرابط التالي: http://www.mako.co.il/news-law/legal-q1_2017/Article-9ab899f0f276a51004.htm (آخر مشاهدة 4.3.2017).

9. للمزيد انظر/ي عميت سيغل، "رئيسة العليا ضد وزيرة العدل"، موقع mako، 3.11.2016، على الرابط التالي: http://www.mako.co.il/news-law/legal-q4_2016/Article-b01e8e095092851004.htm (آخر مشاهدة 3.3.2017). وانظر/ي أيضاً جالي غينات، "رئيسة العليا ضد شاكيد: اقتراحك بشأن تعيين القضاة كوضع مسدس على الطاولة"، على موقع walla, 3.11.2016، على الرابط التالي: http://news.walla.co.il/item/3010175 (آخر مشاهدة 3.7.2017).

10. للمزيد عن تدين الجيش والعلاقة بين التدين والتحولات الاجتماعية في إسرائيل، انظر/ي يغيل لفي، "القائد الأعلى: ثقرطة الجيش الإسرائيلي"، عام عوفيد: تل أبيب (بالعبرية).

11. ام ترتسو، تقرير المدسوسون، 2015، متوفر على الرابط التالي: https://goo.gl/uZIMaS (اخر مشاهدة 2016/3/6)

12. المقصود صندوق إسرائيل الجديد" وهو صندوق منح لدعم المشاريع المجتمعية " التي تدافع عن قيم الديمقراطية والمساواة والعدل لكل سكان إسرائيل" وذلك كما جاء على الصفحة الرئيسية للصندوق . للمزيد زور/ي الصفحة الرسمية للصندوق على الرابط التالي: http://www.nif.org.il/about

13. للاطلاع على اقتراح نص القانون يرجى زيارة موقع الكنيست على الرابط التالي:https://www.knesset.gov.il/privatelaw/data/20/1729.rtf(شوهد 01.02.2016)

14. يونتان ليس، «الوزراء صوّتوا مع قانون يحدد من عمل الجمعيات الممولة بالأساس من دول أجنبية،» هآرتس، 2015/12/27 على الرابط التالي http://www.haaretz.co.il/news/politi/1.2807596(شوهد 2016/2/1)

15. انظر/ي دان كسبي "الإعلام يميني" هآرتس، 2015/11/2: على الرابط التالي: http://www.haaretz.co.il/blogs/dancaspi/1.2766146 (شوهد 5.3.2016)

قانون القومية
أبرتهايد متخلف ولكنه يفتح الفرص

قانون سيء وخطير يدل على تدهور شديد وينطوي على ممارسات مستقبلية فظيعة، بدأنا نذوق طعمها في قرارات المحاكم، ومع ذلك فإنه يفتح الباب أمام فرصة تعاون وربما شراكة يهودية عربية داخل إسرائيل للكفاح ضده وربما كفاح لأجل قضايا أخرى اكبر. السهل هو الكفاح ضده والصعب والأهم هو استثماره لأجل واقع جديد

نظير مجلي

تعددت الإشارات التي تدل على أن إسرائيل، خلال حكم بنيامين نتنياهو، تتدهور إلى مصاف دول العالم الثالث، لكن قانون القومية، الذي سنه الكنيست (البرلمان الاسرائيلي) في ١٩ تموز ٢٠١٨، هو أحد أكبر البراهين على هذا التدهور. ونقول ذلك، ليس من باب التجني او التشفي أو المبالغة، بل من خلال قراءة «خريطة الطريق» التي رسمها معدو هذا القانون والمبادئ التي استند اليها أصحابه والظروف المحيطة بقرار سنه في هذا الوقت بالذات والأغراض المعلنة أو الخفية منه وسيرورة تطبيقه على الأرض حال إقراره. فهو قانون يعيد إسرائيل إلى الوراء بكل المقاييس القيمية لنظام الحكم. ويجعلها تنتمي إلى عالم قديم، يتناقض مع واقع عصرنا. ويعيد إلى الأذهان أنظمة غابرة في التاريخ القديم والحديث اعتمدت على مفاهيم «التفوق العرقي». ولذلك، لم يكن صدفة أنه شهد معارضة غير مألوفة في الشارع الإسرائيلي.

باحث في الشأن الإسرائيلي

لقد تراكمت الأسئلة التي طرحت بإلحاح في الشارع الإسرائيلي السياسي، لدى اقراره، ومنها:

لماذا؟

لماذا تم سن قانون كهذا، يتسبب في إثارة موجة عارمة من النقد في العالم تدور في فلك مقارنتها بنظام التفرقة العنصرية الأبرتهايد، الذي لفظه العالم وأسقطه في جنوب أفريقيا قبل ثلاثة عقود (١)؟ لماذا كان رئيس الوزراء، بنيامين نتنياهو، وحكومته بحاجة إلى سن قانون أساس، يحمل طابعا دستوريا، ليُعطي هذا التعريف لإسرائيل كـ «دولة قومية للشعب اليهودي». فهل هي بحاجة الى مثل هذا التعريف؟ أليس هذا الإصرار على التعريف تعبيرا عن حالة مَرَضِية من عدم الثقة بالنفس؟ ففي الوقت الذي يعلن عن إسرائيل انها الثامنة بين الدول العظمى في العالم (حسب التقرير السنوي لـ US News & World Report الذي نشر في شهر آذار ٢٠١٨ في الولايات المتحدة)، لماذا تشعر بحاجة الى الظهور كدولة عديمة الثقة بنفسها وبانتمائها إلى هذا الحد؟

وبعد أن انهارت معظم الجيوش العربية التي كانت تهدد إسرائيل مباشرة، وأصبح العالم العربي مشغولا في حروبه الداخلية، لماذا تشعر القيادة الإسرائيلية ان هناك خطرا يهدد طابعها، الذي حرصت طول الوقت على جعله يهوديا صرفا، في القوانين وفي الممارسة وفي السياسات؟

ثم وفي الوقت الذي توجد فيه «وثيقة استقلال» تعتبر أساسا لكل القوانين، وتحدد بشكل واضح إسرائيل كدولة يهودية وتوجد فيه عشرات القوانين القائمة التي تتحدث عن الطابع اليهودي للدولة، لماذا هي بحاجة الى قانون آخر يحدد مكانتها اليهودية؟

إذا كان لدى إسرائيل «نشيد قومي» لا يصلح إنشاده إلا لليهود وعلم لا يحمل الا رموزا يهودية وشعار دولة هو الشمعدان اليهودي في الكنيس وعملة تحمل صورة نجمة داود وغيرها وغيرها، فلماذا هي بحاجة الى قانون يزيد يهودية الرموز اليهودية؟

ثم وإذا كانت إسرائيل تحاول أن تميز نفسها عن المحيط العربي في الجوار، وتؤكد انها تنتمي إلى «العالم الحر» مقابل دول العالم الثالث، فلماذا تدخل في هذا الصدام المباشر مع العالم الحر الذي يدينها على قانون القومية ويعتبره تراجعا خطيرا عن الأسس والقيم الديمقراطية، كما جاء في تصريحات وبيانات عديدة للاتحاد الاوروبي ودوله؟

وإذا كانت إسرائيل دولة الشعب اليهودي، فلماذا تسن قانونا كهذا يفسخ المجتمع اليهودي داخل إسرائيل ويفسخ يهود العالم ويعمق الهوة بين إسرائيل ويهود الولايات المتحدة، الذين خرجوا بشبه إجماع ضد القانون؟

وفوق كل هذا، لماذا تحتاج إسرائيل إلى سن قانون تفوق عرقي كهذا، يجعل العرق اليهودي فوق كل الأعراق الأخرى، ويتسبب في الغضب لدى ثلث سكان إسرائيل (العرب ١٨٪ والقادمون الجدد من دول الاتحاد السوفييتي سابقا الذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين ويأمون الكنائس العربية في الناصرة وحيفا ويافا والقدس ٦٪ والتيار الإصلاحي في اليهودية، الذي يفرض قانون القومية عليه أن يكون مواليا للتيار الديني الأرثوذكسي ٧٪)؟

قد لا يصدق المراقب من بعيد، لكن رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو، تعمد افتعال هذه الأزمة بشكل محسوب، وغرضه منها هو شيء واحد فقط لا علاقة له باليهودية ولا بقومية إسرائيل ولا بمصالحها القومية أو الأمنية، بل صيانة كرسيه كرئيس حكومة مهما كان الثمن الذي تدفعه الدولة وناسها. وكما يقول الصحافي بن كسبيت، كبير المعلقين في صحيفة «معريب» اليمينية (٢): "نتنياهو كان يعارض هذا القانون ويخاف من ردود الفعل عليه في العالم الغربي ولذلك منع إقراره طيلة تسع سنوات، منذ عاد الى الحكم في سنة ٢٠٠٩. بل إنه في اللحظة التي كان فيها ممكنا إقرار هذا القانون بأصوات أكثرية الائتلاف الحكومي والمعارضة الصهيونية على السواء في سنة ٢٠١٥، أقدم نتنياهو على حل الكنيست وتوجه الى انتخابات جديدة. وهكذا تم إسقاط القانون في حينه.

ولكي ندرك معنى هذا التصرف، لا بد من العودة الى تاريخ هذا القانون.

لمحة تاريخية

كان أول من طرح هذا القانون بصيغته الأولى، نائبان اثنان، أحدهما كان في حزب «كديما» المعارض، آفي ديختر، والثاني هو الوزير زئيف الكين، من الليكود الحاكم، وذلك في سنة ٢٠٠٩. ديختر، الذي كان رئيسا لجهاز المخابرات العامة ويطمح للوصول الى منصب رئيس الحكومة، قال صراحة في حينه إنه يبادر الى هذا القانون لكي يضع حدا لتفكير بعض السياسيين العرب في إسرائيل بتحويل إسرائيل الى «دولة جميع مواطنيها». وفي حديث لنا أضاف في حينه: «أنا كنت منزعجا من رفض أبو مازن (الرئيس الفلسطيني محمود عباس) الطلب الإسرائيلي الذي طرحته وزيرة الخارجية آنذاك، تسيبي لفني، بأن يعترف الفلسطينيون ضمن التسوية النهائية للصراع، بإسرائيل كدولة الشعب اليهودي. وقد اشتبهنا بأن وراء هذا الرفض مطالب ونوايا خطيرة مستقبلا. ولكن ما أثار قلقي بشكل كبير هو عندما أصدر العرب «وثائق التصور المستقبلي» (٣). وقد رأيت أن أفضل رد عليهم هو في سن قانون يثبت مكانة إسرائيل بالقانون كدولة الشعب اليهودي».

أما إلكين، فقد رأى أن مثل هذا المجد لسن قانون أساسي للدولة اليهودية، يجب ان لا يقتصر

على نائب في المعارضة، فطلب ان يكون شريكا. ولاحقا انضم للقانون أريه الداد، وهو عضو كنيست من اليمين المتطرف. ثم قدمت كتلة «يسرائيل بيتينو» وهي كانت في المعارضة يومها، ويتزعمها أفيغدور ليبرمان، مشروع قانون آخر بنفس المضمون أسمته: «قانون أساس: إسرائيل الدولة القومية للشعب اليهودي»، وكان المبادر للقانون النائب شارون غال، ووقع معه كمبادرين باقي النواب في الكتلة وهم: النائب العربي ابن شفاعمرو، حمد عمّار، وأفيغدور ليبرمان وروبرت إيلاطوف وصوفا لاندفر وأورلي ليفي أبوقسيس.

في البداية تجاهل نتنياهو هذه المشاريع، لكن حزب المستوطنين، «البيت اليهودي»، برئاسة نفتالي بنيت، وضعه شرطا لدخول الائتلاف الحكومي عشية تشكيل حكومة نتنياهو في ٢٠١٥. وتقرر طرحه على مائدة الأبحاث في اللجنة الوزارية لشؤون التشريع، في أقرب وقت ممكن.

وعندما بدأ البحث فيه، تجلت خلافات عديدة بين كتل الائتلاف الحكومي. لقد ساد اتفاق على كل بنود القانون العنصرية الموجهة ضد الفلسطينيين في إسرائيل والضفة الغربية ولكنهم اختلفوا حول بنود أخرى في القانون، وأولها، مكانة الشريعة اليهودية. فبحسب عرض نتنياهو وأحزاب المستوطنين، فإن الشريعة هي مرجعية القضاء والقانون. وقوانين الشريعة اليهودية تصطدم برفض واسع في المجتمع الإسرائيلي، الذي لا يزال يعتبر ذا غالبية علمانية، ترفض كل ما تعتبره اكراها دينيا. كما أن اليمين العقائدي التقليدي رفض القانون، ولم ير فيه حاجة، لما فيه من جوانب ستثير قلق أبناء الديانة اليهودية في العالم. مثل أن القانون سيطرح من جديد مسألة «من هو يهودي»، وهي قضية تعلو وتخبو من حين إلى آخر، وتثير في كل مرة غضب التيار الإصلاحي الديني في اليهودية، وهو التيار المسيطر لدى يهود الولايات المتحدة وفرنسا، الذين يشكلون معا أكثرية بين اليهود في العالم. كما أن القانون بطابعه العنصري يخلق حالة حرج لليهود في أوطانهم في العالم (٤) .

وتحفظت كتلتا المتدينين المتزمتين «الحريديم» (الأرثوذكس) من القانون، من جوانب الشريعة اليهودية. فالحريديم يتخوفون من طابع القوانين «الدستورية»، أو تلك التي يطلق عليها مصطلح «قانون أساس»، فمثلا نص قانون «القومية» المتداول، يقول إن الكيان الإسرائيلي الحالي، هو دولة اليهود في العالم، وهذا ينقض رواية «مملكة إسرائيل» التوراتية، التي سيقيمها المسيح المخلص القادم حينما يأتي إلى العالم لأول مرّة، ولكن الحريديم لا يجاهرون بهذا الخلاف، ويكتفون بالقول إن مكانة الشريعة ليست بالقدر الكافي في هذا القانون.

وبعد اسقاط القانون في سنة ٢٠١٥، وعودة نتنياهو الى الحكم في الانتخابات، تم تشكيل لجنة وزارية، مع مختصين، للبحث في صيغة متفق عليها للقانون. وقد أكد مقربون من نتنياهو يومها ان

مهمة هذه اللجنة ستكون «قبر القانون» وعدم عرضه في الدورة البرلمانية الحالية.

وفي هذه الانتخابات نشأت «القائمة المشتركة»، التي ضمت في صفوفها جميع الأحزاب العربية الوطنية، وحظيت بـ ١٣ مقعدا وأصبحت ثالث أكبر كتلة برلمانية. وكان من بين أهم نشاطاتها محاربة قانون القومية، كما قال النائب أيمن عودة، رئيسها. وحسب النائب جمال زحالقة، رئيس الكتلة البرلمانية للقائمة، فإن هذه الجهود نجحت إلى حد كبير وتم اقناع غالبية نواب الكنيست بأن قانون القومية سيء ومضر ولا حاجة اليه. وبدا فعلا أن اللجنة سوف تقبره (٥) .

مفاجأة نتنياهو

ولكن، وبشكل مفاجئ صدم أقرب المقربين من نتنياهو، قرر في شهر أيار الماضي تسريع تشريع القانون. أحد المطلعين على عمله قال إنه شعر بأن وجود الرئيس دونالد ترامب في البيت الأبيض هو فرصة نادرة لتمرير عدة قرارات وإجراءات لصالح الفكر اليميني العقائدي، ولذلك قرر الإسراع. وهناك من رأى ان نتنياهو يحتاج إلى موضوع جديد يثير من حوله ضجيجا يغطي على مسار التحقيقات ضده في الشرطة بسبب قضايا الفساد. والمؤكد هو انه رأى في هذا القانون خطوة أخرى تعزز مكانته لدى قاعدته الانتخابية اليمينية. فاليوم يتمتع نتنياهو بكتلة من ٣٠ مقعدا فقط من مجموع ١٢٠، أي ربع المقاعد، وهذا يكفيه لتشكيل حكومة، لأنه لا يوجد أي حزب تمنحه الاستطلاعات عددا أكبر بل عدد قريب من هذا العدد. من هذا التأييد توجد له اليوم قاعدة ثابتة من ٢٤ مقعدا ويحتاج الى «خبطة اعلامية» تضيف له ٦ مقاعد أخرى ليصل الى ٣٠ مقعدا. وحسب أحد المقربين منه فإن الاستطلاعات التي اجراها خلال الأبحاث في قانون القومية دلت على انه يمكن ان يصل الى ٣٣ مقعدا . (٦)

وكما هو معروف، نتنياهو يريد تبكير موعد الانتخابات، على أمل أن يعود إلى كرسيه وهو أقوى. فيكون بذلك بمكانة أفضل أمام محققي الشرطة. فإذا كان وراء هذا القانون باحثون وعقائديون وأصحاب فكر أيديولوجي وخطط سياسية احتلالية وتوسعية واستيطانية، مثلما هو في الواقع وضع العديد من النواب المشاركين في طرح القانون، فإن هم نتنياهو الأساسي هو كرسيه والتحقيقات البوليسية معه أكثر من أي شيء آخر. وقد اختار موضوعا ملائما لغرائز أنصاره من اليمين، بالرغم من علمه اليقين بان الأمر سيثير ضجة محلية وعالمية من حوله. بل هناك من يؤكد ان مثل هذه الضجة أفادته في الماضي وتفيده اليوم أيضا لدى جمهوره. وأما الحرائق التي ترافق خطوة كهذه فيسعى لإطفائها لاحقا.

الحرائق

قانون القومية اليهودية، وبغض النظر عن أهداف نتنياهو منه، أسس لواقع جديد في إسرائيل. فالسياسة التي اتبعتها حكومات إسرائيل المتعاقبة خلال ٧٠ سنة من قيامها، باتت مبلورة في قانون دستوري، يتيح سن قوانين أخرى واتباع ممارسات أخرى في التمييز ضد المواطنين غير اليهود من جهة ويشرع سياسة تخليد الاحتلال للقدس الشرقية وغالبية أراضي الضفة الغربية. وسيتسبب لاحقا في إشعال حرائق غير محدودة في السبيلين.

وإذا كان نتنياهو قد أراد منه أداة لتثبيت حكمه وتقوية مكانته في مواجهة ملفات الفساد، فإن اليمين الأيديولوجي والتيار الديني الصهيوني العقائدي يأخذه بجدية كمرحلة جديدة في تاريخ إسرائيل، ويسعى لترجمته إلى مشاريع عملية لتقليص عدد الفلسطينيين في اسرائيل وفي الضفة الغربية وتوسيع نطاق تهويد الأرض العربية وتعزيز الاستيطان اليهودي الاستعماري. ومصير مثل هذه المشاريع، تعميق الصراع وتشديد التصادم الحربي بأشكال عدة، بعضها نعرفها وجربناها وبعضها سيتم استنباطها من طرق الكفاح الإبداعي الجديدة، وكلها تضمن استدامة الصراع الدامي.

وقد صرح نتنياهو، خلال جلسة الحكومة الإسرائيلية، بأن «من شأن قانون القومية، الذي أقر أن ‹إسرائيل دولة الشعب اليهودي›، أن يمنع لم الشمل لآلاف العائلات الفلسطينية». وأضاف أن «قانون القومية يحصّن في مقدمة الأمر قانون العودة (الذي يجيز لليهود فقط الهجرة لاسرائيل) ويرقي قانون العودة إلى درجة أخرى، حيث هذا القانون يضمن بطبيعة الحال حقا تلقائيا يمنح اليهود، هم فقط، الحق بالهجرة إلى إسرائيل وبالحصول هنا على الجنسية الإسرائيلية. قانون القومية يمنع على سبيل المثال استغلال بند لم الشمل، الذي تم بموجبه استيعاب عشرات الآلاف من الفلسطينيين في إسرائيل منذ اتفاق أوسلو، وهذا القانون يساهم في منع دخول فلسطينيين إلى إسرائيل بدون مراقبة»، حسب تعبير نتنياهو. (٧)

وقد بدأت هذه الجهود بشكل فعلي، بعد إقرار القانون للإفادة منه. ففي قضية رفعها إلى المحكمة العليا الإسرائيلية ١٧ رئيس مجلس بلدي وقروي فلسطيني في الضفة الغربية (٨) يطالبون بإلغاء قانون استيطاني (٩)، ومازالت تبحث فيها، قررت النيابة باسم الحكومة الإسرائيلية تعديل ادعاءاتها واضافة فقرة جديدة الى لائحة الدفاع، تستند الى قانون القومية الجديد. والقانون يتيح لإسرائيل ان تستولي على أراضي دولة لغرض الاستيطان ولكنها تمنع الاستيلاء على أراض ذات ملكية خاصة. والاضافة الجديدة طلبت بمصادرة الأرض الفلسطينية الخاصة واجبار أصحابها على قبول مصادرتها والحصول على تعويضات، لأن قانون القومية يعطي افضلية الى اليهود.

وفي ٤ آب ٢٠١٨، قررت المحكمة المركزية في القدس، أن تدفع حركة حماس تعويضات بقيمة ٥,٤ مليون شيكل (١,٥ مليون دولار) لمواطن يهودي كان قد أصيب في عملية مسلحة، من دون إثبات الضرر، وذلك استنادًا إلى بند في قانون القومية ينص على أن الدولة تحرص على سلامة أبناء الشعب اليهودي. وفسر القاضي موشيه دروري، قراره، بأنه «بعد قانون القومية أصبح هناك توسيع ملموس لحقوق الانسان اليهودي»(١٠) .

الفرصة

ومع ذلك، وبسبب الوعي لمزيد من الأخطار من القانون، الذي يتجلى في الشارع اليهودي في إسرائيل نفسها وفي العالم اليهودي في الخارج، فإنه وبمقدار ما جلبه من توتر يفتح آفاقا جديدة للشراكة في النضال اليهودي العربي ضد القانون ومفاهيمه وما سينجم عنه. فليس صدفة ان صوت ٥٥ نائبا في الكنيست ضد القانون، بينهم نواب كانوا شركاء في اعداد قانون مماثل له في الماضي.

وليس صدفة ان خرج الى الشارع مئة ألف شخص، غالبيتهم الساحقة يهود، إلى مظاهرة تل أبيب الأولى في ٤ آب ضد القانون، قسم منهم يؤيدون قانونا يضمن اعتبار اسرائيل دولة يهودية لكنه يريد ان لا تتحول إلى دولة أبرتهايد فيطالبون بتعديله ليشمل قضية المساواة والديمقراطية. هؤلاء يعتبرون القانون بداية انهيار لمشروع الدولة الليبرالية ويجدون أنفسهم حلفاء مع العرب في مكافحته. وليس صدفة ان المظاهرة التي دعا اليها قادة فلسطينيي ٤٨، استقطبت حولي ٢٠ الف يهودي، بينهم رئيسان لجهاز المخابرات العامة (عامي ايلون ويوفال ديسكين). وليس بالأمر العادي ان يخرج ضد القانون عدد كبير من كبار المسؤولين أيضا في اليمين، مثل رئيس الدولة رؤوبين رفلين ووزير الدفاع السابق موشيه ارنس ونجل مناحم بيغن، النائب الحالي والوزير الأسبق بيني بيغن.

وكانت أوساط مقربة من المخابرات قد كشفت ان اجهزة الأمن الإسرائيلية كانت قد نصحت نتنياهو بالامتناع عن سن القانون «لأنه يحمل أخطارا غير قليلة في العلاقات بين إسرائيل ومواطنيها العرب وبينها وبين يهود العالم» (١١). ولا يقل أهمية عن ذلك خروج رئيس المؤتمر الصهيوني العالمي، رون لاودر، ضد القانون باسم الجاليات اليهودية في الولايات المتحدة والعالم (١٢).

كل هذه مواقف تبين ان شباك فرص للتعاون اليهودي العربي في إسرائيل ضد نهج اليمين المتطرف، الغارق في سياسة الغطرسة والشعور بغرور القوة. فقد تبين ان أوساطا واسعة في الأحزاب والحركات اليهودية تبدي استعدادا للتعاون والشراكة مع العرب، الذين قام ممثلوهم من «القائمة المشتركة» بتمزيق الأوراق التي طبع عليها القانون خلال جلسة الكنيست، التي تم فيها سن

القانون. وإذا كانت هناك بعض التحفظات من التعاون مع الأحزاب العربية الوطنية، فإن التعاون مع المواطنين العرب الدروز الذين خرجوا بقوة ضد القانون، تم بلا أية تحفظات.

والمعروف ان المواطنين الدروز اعتبروا هذا القانون مرحلة مفصلية في تاريخهم مع الدولة العبرية. ولعل احدى أهم علامات المعركة ضد قانون القومية تتعلق بالطائفة المعروفية، الموحدين الدروز. فهذه الطائفة التي تشكل نسبة ١٠٪ من المواطنين العرب، كانت قد انتكبت بقرار حكومي يفرض على شبانها الخدمة العسكرية في الجيش الإسرائيلي منذ سنة ١٩٥٦. ومنذ ذلك الوقت وهم يتعرضون لمحاولات حثيثة لسلخهم عن بقية أبناء شعبهم العربي في فلسطين، من خلال وعد وهمي بمعاملتهم بشكل مختلف عن اشقائهم العرب. وقد ساهم في هذا السلخ تواطؤ عدد من قادتهم مع هذا المخطط من جهة، وخطيئة القيادات العربية الوطنية التي استثنتهم من نشاطاتها الوحدوية وساهمت في عزلهم.

فعلى أرض الواقع، لوحظ ان البلدات العربية الدرزية تعرضت لسياسة اهمال تمييز عنصري أكثر من بقية البلدات العربية، فتنامى الإحباط بين صفوفهم.

في السنوات الأخيرة أخذ يتنامى التيار الوطني الحر في صفوف الدروز. رئيس بلدية دالية الكرمل، الصحافي رفيق حلبي، فاز على أساس برنامج وضع في مركزه الشعار: «عودة الى الجذور»، وقصد الجذور العربية. حلبي هذا، هو الذي تولى عرافة مظاهرة المئة ألف في تل ابيب فصاح بملء الفم: «دولة أبرتهايد»، ورددها من بعده معظم الشخصيات الدرزية، وبضمن ذلك ضباط كبار سابقون في الجيش الإسرائيلي، مثل العميد أمل أسعد. وأكد المحاضر الجامعي البروفيسور قيس فرو في اجتماعٍ احتجاجيٍ عقده الحزب الشيوعي الإسرائيلي يوم ٢٩ تموز ٢٠١٨، أن إسرائيل تعتبر الجنود الدروز مجرد مرتزقة يقاتلون إلى جانبها، وفق ما يُفهم من قانون الدولة القومية، وأن المطلوب من الدروز هو التكاتف مع سائر العرب في البلاد ومع القوى اليهودية الديمقراطية. وقال: «أُناشد أبناء طائفتي: لا تكونوا لا مبالين بعد، توقفوا عن التملُّق والمُداهنة وتبنِّي سجال المُرتزقة. فقط بِالمعركة المُشتركة مع القوى الديمقراطيَّة اليهودية وسائر أبناء الشعب العربي في البلاد يُمكن تحقيق النتائج المرجوَّة» (١٣) .

في قرية عسفيا عبروا عن رفضهم القانون بواسطة تعليق لافتة عند مدخل المقبرة، كُتِبَ عليها: «إلى شُهداء حُرُوب إسرائيل الدُرُوز: سامحونا! لم نعرف كيف نُحافظ على الكرامة التي منحتُمونا إيَّاها. أرسلناكم وحوَّلناكم شُهداء من الدرجة الثانية». ونادى بعض الضبّاط الدروز بوقف فرض التجنيد الإلزامي على أبناء الطائفة الدرزية مما أثار خشية مسؤولين إسرائيليين من احتمال حصول تمردٍ

دُرزيٍّ داخل الجيش وخروجٍ جماعيٍ منه. وتأكيدًا على خطورة الوضع داخل الجيش الإسرائيلي، من تململ الضبّاط والجنود الدروز، التقى رئيس أركان الجيش غادي أيزنكوت بالزعيم الروحي للطائفة، الشيخ موفق طريف في مُحاولةٍ لامتصاص نقمة الطائفة على ذلك القانون.

من هنا، فإن قانون القومية على ما فيه من جور وظلم وتأسيس لمزيد من العنصرية تجاه المواطنين العرب، يفتح آفاقا واسعة لتوازنات جديدة في الشارع الإسرائيلي، يكسر الحصار عن العرب (فلسطينيي ٤٨)، ويوقف تفسيخ صفوفهم باصطناع مصطلح «العرب والدروز»، ويتيح عودة الدروز إلى أحضان شعبهم وإقامة شراكات مع قوى عديدة في المجتمع الإسرائيلي أصبحت أكثر شجاعة في التعاون مع العرب ويتيح للقيادات العربية الوطنية أيضا أن تبادر الى إيجاد قواعد جديدة للكفاح ضد العنصرية والتمييز من جهة وضد التدهور نحو الأبرتهايد وربما أيضا قضايا أخرى أكبر واشمل، مثل النضال ضد الاحتلال وإقامة الدولة الفلسطينية.

الهوامش:

(١) نظام الفصل العنصري الذي حكمت من خلاله الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا من العام ١٩٤٨ وحتى تم إلغاء النظام بين الأعوام ١٩٩٠ - ١٩٩٣ وأعقب ذلك انتخابات ديموقراطية عام ١٩٩٤، كانت عبارة عن دفن هذا النظام إلى الأبد

(٢) صحيفة "معريب" – ملحق السبت ٣ آب ٢٠١٨

(٣) هي ست وثائق أعدتها ست مجموعات من السياسيين والأكاديميين فلسطينيي ٤٨ الذين اعترضوا على المطلب الإسرائيلي من السلطة الفلسطينية، وحذروا من أن الاعتراف بإسرائيل دولة يهودية يهدد وجود فلسطينيي ٤٨ في وطنهم، لذلك طرحوا وثائق تحدد كل منها المكانة المنشودة للمواطنين العرب في إسرائيل، وقد طرحت غالبيتها مطلب «دولة جميع مواطنيها»

(٤) "الحركة الإصلاحية اليهودية" (The reform movement in Judaism)، تأسست في العام ١٧٢٩ في ألمانيا. وهي تعتقد بأن "اليهودية يجب أن تتغير وفق البيئة وعلى اليهود قبول التأثيرات الخارجية، ودفع طقوس دينية ووصايا الشريعة اليهودية قدما وفق الفترة التي تمر فيها». معظم الأدبيات المكتوبة حول التيار الإصلاحي هي باللغة الإنجليزية وليس بالعبرية، لأن اغلبية يهود العالم ينتمون لهذا التيار واقلية ضئيلة موجودة في اسرائيل. ووفق استطلاع مركز بيو للأبحاث (PEW) منذ عام ٢٠١٣، يتماهى معظم اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل مع مبادئ التيار الإصلاحي. هذا التيار مُسيطر بشكل خاصّ في أمريكا الشمالية، كندا، وسائر أوروبا. ولدى هذا التيار تفسيرات مختلفة لليهودية ولمن هو يهودي ولذلك تثير غضبا عارما وعداء شديدا في أوساط اليهود الأرثوذكسيين.

ويرى الحاخاميون الإصلاحيون انه يجب الفصل بين الإيمان والروحانية الدينية، وبين الطقوس والقوانين الدينية. فهم يعتقدون أن الإيمان هو أساس الدين الحقيقي، أما طقوس الشريعة اليهودية وقوانينها فهي أقل أهمية، وهي بمثابة وسائل لتحقيق المكاسب الروحانية، بحيث لم تعد في وقتنا هذا ملائمة ويجب تحديثها. «نعمل بموجب القوانين ذات الصلة بالأخلاق بصفتها قوانين ملزمة، ونحافظ على الطقوس التي تقدس حياتنا وتثريها فقط". مثلا، في الصلاة الاحتفالية الخاصة بأيام السبت، تشغّل في الكنس التابعة للحركة الإصلاحية معدّات كهربائية مثل الميكروفونات ومكبّرات الصوت. ويصل الكثير من اليهود إلى الكنيس بواسطة سيارتهم الخاصة. كما يُسمح بأن يرافق العزف على القيثارة، البيانو، وغيرها الصلاة. بالمُقابل، وفق الشريعة اليهودية تعتبر كل هذه النشاطات مثل تشغيل أجهزة كهربائية، السفر في السيارة، والعزف أيام السبت خطيئة "تدنيس يوم السبت" ويفرض الله عقوبة الموت لقاءها. كذلك هناك جدل مبدئي حاد بين الإصلاحيين والأرثوذكسيين اليهود. فلا يسمح الأرثوذكس بأي شكل من الأشكال لأي رجل أو امرأة أن يتزوجا من غير اليهود.

(٥) جريدة "الشرق الأوسط" – لندن – ١٨ آب ٢٠١٨

(٦) استطلاع راي أجرته صحيفة "معريب" – تل ابيب، ونشرت نتائجه في عددها الصادر في ١٠ آب ٢٠١٨

(٧) جلسة الحكومة العادية المنعقدة في ٥ آب ٢٠١٨

(٨) قضية رقم ١٧/١٣٠٨ بلديّة سلواد ضد الكنيست في المحكمة العليا. وقد رفعها كل من: مركز «عدالة»، مركز القدس لحقوق الإنسان ومركز «الميزان» لحقوق الإنسان باسم ١٧ سلطة محليّة فلسطينيّة في الضفّة الغربيّة، مطالبين بإلغاء القانون.

(٩) تم سن القانون يوم ٦ شباط ٢٠١٧، بغرض شرعنة الاستيطان. اسمه الرسميّ: قانون تنظيم الاستيطان في يهودا والسامرة – ٢٠١٧، ويهدف إلى مصادرة أراضي الفلسطينيين الخاصّة التي بُنيت عليها مستوطنات في مناطق الضفّة الغربيّة، وتخصيصها للمستوطنين الإسرائيليين. فهناك ٣٤٥٥ مبنى ينتظر منح مصادرتها طابعا قانونيا بموجب القانون، أي سيخسرها أصحابها الفلسطينيون بموجب هذا القانون. وما زالت الدعوى تبحث في المحكمة.

(١٠) صحيفة "هآرتس" – تل أبيب، ٥ آب ٢٠١٨

(١١) المصدر نفسه ١٢ آب ٢٠١٨

(١٢) مقال كتبه لاودر في "هآرتس» في ١٠ آب ٢٠١٨

(١٣) جريدة "الاتحاد" – حيفا، ١٣ آب ٢٠١٨

القانون الأساس
إسرائيل – الدولة القومية للشعب اليهودي

عليان الهندي*

خلفية تاريخية

لم تكن الجمعية العامة للأمم المتحدة، تعلم أن رؤيتها للدولة اليهودية، ستكون مختلفة كليا عن رؤية مؤسسيها، الذين مارسوا عمليات الطرد والتهجير، في مسعى منهم لتأسيس دولة خالية من العرق الآخر –العرب الفلسطينيين - أصحاب الأرض الأصليين.

ولأجل تحقيق ذلك، جاءت وثيقة الاستقلال ،التي كتبت قبل اسبوعين من اعلان استقلال دولة إسرائيل، لتقول أنها أقيمت وفقا لـ «هويتها الروحية والدينية والسياسية اليهودية»، ما دفعها لفتح الأبواب على مصراعيها أمام اليهود من كل أنحاء العالم لاستعمارها وتوطينهم فيها، بدلا من الفلسطينيين الذين منعتهم من العودة إلى أراضيهم وممتلكاتهم التي اكتسبوها منذ فجر التاريخ حتى هذا اليوم.

«الدولة اليهودية» التي سعى لإقامتها قادة الدولة العبرية تلقت صفعة قوية عام ١٩٦٧ عندما احتلت أراضي من دول عربية، بما فيها ما تبقى من فلسطين التاريخية أو ما أصبح يعرف بالضفة الغربية وقطاع غزة، من دون أن تتمكن من طرد العرب الفلسطينيين منها، ما دفعها لاستمرار سن القوانين العنصرية والأوامر العسكرية، التي تعطي الأولوية والحقوق للعرق اليهودي على حساب العربي الفلسطيني صاحب الحق الأصلي.

وعلى مدار العقود الماضية سنت عشرات القوانين العنصرية بحق الفلسطينيين في الداخل ومئات

* باحث في الشؤون الإسرائيلية – فلسطين.

الأوامر العسكرية، التي كان أخرها القانون الأساس: إسرائيل-**الدولة القومية للشعب اليهودي، الذي لا يتنكر للحقائق التاريخية والدينية والديمغرافية في فلسطين فقط، بل وحتى للرواية الفلسطينية، التي يمثلها أكثر من ٧ ملايين فلسطيني، مقابل أقل من ٦,٥ مليون مستعمر يهودي، الذين يعيشون في فلسطين التاريخية.**

ونتيجة للأوامر والقوانين والقرارات الإسرائيلية، أصبح هناك ثلاثة أنواع من البشر في فلسطين التاريخية هم:

الأول: اليهودي الذي يتمتع بكامل الحقوق والامتيازات.

الثاني: الفلسطيني حامل الجنسية الإسرائيلية من دون التمتع بالحد الأدنى من الحقوق السياسية والوطنية والثقافية.

الثالث: خاضع لحكم عسكري لم ينجح بالخلاص منه حتى بعد ٥١ عاماً من الاحتلال.

تطورات سن القانون

قدم القانون كمقترح لأول مرة للكنيست عام ٢٠٠٩ من قبل عضو الكنيست أبراهام (آفي) ديختر، الذي شغل في الماضي رئاسة جهاز المخابرات العامة. لكنه وأمام ضغط من رئيسة حزبه «كاديما» حينها ،تسيفي ليبني، سحب الاقتراح، كما قدم من زئيف ألكين من الليكود.

وبعد عودته إلى حزب الليكود عام ٢٠١١، قدم كصيغة مقترح للتصويت عليه في الكنيست. لكن تركيبة الحكومة في ذلك الوقت، لم تسمح بتمرير القانون، نتيجة الخلاف الدائر بين مختلف التيارات والأحزاب اليهودية حول اليهودية والديمقراطية وبدرجة أقل بكثير حول المساواة.

عام ٢٠١٤ قدم المقترح ٣ مرات للتصويت عليه، لكن تركيبة الحكومة والخلافات السابقة حول القانون مثل الطابع اليهودي للدولة وهل هي ديمقراطية أم لا، ومكانة اللغة العربية، وبناء مستوطنات لليهود فقط، منعت من تقديمه مرة أخرى. وفي عام ٢٠١٧ قدم مرتين، لكن الخلافات عليه تواصلت، حول نفس البنود المختلف عليها.

إدخال التغييرات المطلوبة على القانون، دفع الكنيست إلى التصويت على الصيغة المطروحة أدناه في ٢٠١٨/٧/٢٥، بعد أن أدخلت على النص الأصلي عشرات التعديلات، الهادفة من دون جدوى، التغطية على المحتوى والجوهر العرقي والعنصري للقانون القائم على تقسيم البشر، وتفضيل عرق على آخر في قوانين لدولة تدعي بأنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط.

قدم اقتراح القانون بستة صيغ مختلفة نوعا ما، من قبل آفي ديختر وزئيف أليكن وبنيامين نتنياهو وياريف لفين وأييليت شاكيد وتسيفي ليبني وبيني بيغن، والقانون الأخير، قدمته مجموعة من كل أعضاء الكنيست التابعين للإئتلاف الحاكم.

تعديلات

قبل التصويت على القانون بالقراءة الثانية والثالثة، وبهدف ملائمته مع «المعايير الديمقراطية»، على حد وصف المستشار القانوني للحكومة الإسرائيلية أزيلت بعض البنود من القانون، مثل إزالة البند الذي يتحدث عن القضاء والقانون ،حسب الشريعة اليهودية، مقابل القانون والقضاء الإسرائيلي. أما البند الثاني، الذي تمت إزالته من القانون فهو المحافظة على الأماكن المقدسة من التدنيس وحرية الوصول إليها. كما عدل البند المتعلق بالقدس عاصمة إسرائيل، حيث أضيف إليها كلمة «الموحدة». كذلك عدل البند المتعلق بالاستيطان الخاص بأبناء الديانة الواحدة (اليهود) من دون مشاركة أبناء الديانات الأخرى في المستوطنات.

وقبل التصويت على القانون بدقائق معدودة قدم رئيس الائتلاف الحاكم دافيد إمسالم، التزاما لحزب يهودوت هتوراه، بعدم مس قانون القومية باتفاقية «الوضع القائم» من ناحية دينية في إسرائيل، وأن الائتلاف الحاكم سيعمل على إصلاح أي خلل يحدث في «اتفاق الوضع القائم» بقانون جديد يتم سنه في دورة الكنيست الشتوية هذا العام. وجاء هذا الالتزام لخوف الأحزاب الدينية المتزمتة دينيا، من مس القانون المذكور مصالح المتدينين في حال تم تفسيره من ناحية قانونية تخالف مصالحهم المختلفة التي ضمنتها القوانين المختلفة.

التصويت

قدم المقترح للتصويت عليه من قبل أعضاء الكنيست آفي ديختر وأبراهام ناغوسا وتالي بولسكوف ومردخاي يوغاف ويوؤاف كيش ونافا بوكر وبتسلال سطواريتش وأورلي ليفي أبوقسيس وروبرت أليطوف ودافيد إمسالم ودافيد بيتان وغيرهم، من أحزاب الليكود ويسرائيل بيتنا والبيت واليهودي وحزب شاس ويهدوت هتوراه وحزب كولانو، بعد عقد أكثر من ٣٠ جلسة نقاش داخل الحكومة وخارجها. ومساء يوم الاربعاء (٢٠١٨/٧/٢٥) صوت ٦٢ عضواً من الكنيست الإسرائيلي لصالح قانون **إسرائيل – الدولة القومية للشعب اليهودي، الذي عارضه** ٥٥ صوتاً، بينما امتنع عن التصويت عضوي كنيست، في حين كان عضو كنيست واحد غائبا. وكان من بين المعارضين كل أعضاء الكنيست

العرب، بمن فيهم ثلاثة من أعضاء الكنيست العرب «الدروز» المنتمين للإئتلاف الحاكم والمعارضة، وكان عضو الكنيست والوزير العربي الدرزي، أيوب قرا الوحيد من غير اليهود الذي أيد القانون.

الجريدة الرسمية

بعد إقرار القانون في الكنيست، وُقع من قبل رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو ورئيس الكنيست يولي أدلشتاين ورئيس الدولة رؤبين ريفلين، وصدر في اليوم التالي بالجريدة الرسمية (٢٠١٨/٧/٢٦) تحت رقم ٢٧٤٣.

يتكون القانون المنشور في الجريدة الرسمية من صفحة واحدة، تضم ١١ بندا أساسيا و ١٦ بنداً فرعياً. ويبلغ عدد كلمات البنود مجتمعة ٣١٧ كلمة.

القانون

قانون أساس: إسرائيل – الدولة القومية للشعب اليهودي

المبادئ الأساسية:

أرض إسرائيل هي الوطن التاريخي للشعب اليهودي، الذي قامت فيه دولة إسرائيل.

دولة إسرائيل هي الدولة القومية للشعب اليهودي، التي يمارس فيها حقه الطبيعي في تقرير مصيره ثقافيا ودينيا وتاريخيا.

ممارسة حق تقرير المصير في دولة إسرائيل خاص بالشعب اليهودي.

رموز الدولة:

اسم الدولة «دولة إسرائيل".

علم الدولة أبيض، وبطرفيه خطان زرقاوان، وفي وسطه نجمة داوود الزرقاء.

شعار الدولة هو الشمعدان السباعي، وعلى جنبيه غصنا زيتون، وكلمة إسرائيل تحته.

النشيد الوطني للدولة هو نشيد «هتكفا".

تفاصيل رموز الدولة تحدد في القانون.

عاصمة الدولة : القدس الكاملة والموحدة هي عاصمة إسرائيل.

اللغة:

اللغة العبرية هي لغة الدولة.

للغة العربية مكانة خاصة في الدولة؛ وتنظيم استخدام اللغة العربية في المؤسسات الرسمية أو في التوجه إليها يكون بموجب القانون.

لا يمس القانون الحالي بالمكانة الممنوحة فعليًا للغة العربية.

لمّ الشتات : تكون الدولة مفتوحة أمام قدوم اليهود ولمّ شتاتهم.

العلاقة مع الشعب اليهودي:

تهتم الدولة بالمحافظة على سلامة أبناء الشعب اليهودي ومواطنيها، الذين تواجههم مشاكل بسبب كونهم يهودًا أو بسبب جنسيتهم.

تعمل الدولة في الشتات للمحافظة على العلاقة بين الدولة وأبناء الشعب اليهودي.

تعمل الدولة على المحافظة على الميراث الثقافي والتاريخي والديني اليهودي لدى يهود الشتات.

الاستيطان اليهودي : ترى الدولة بتطوير الاستيطان اليهودي قيمة قومية، وستعمل على تشجيعه ودعم وتسريع إقامته وتثبيته.

التقويم الرسمي :التقويم العبري والميلادي هو التقويم الرسمي للدولة، استخدام التقويم العبري والاجنبي سيحدد في قانون.

يوم الاستقلال ويوم الذكرى:

يوم الاستقلال هو العيد القومي الرسمي للدولة.

يوم ذكرى الجنود الذين سقطوا في معارك إسرائيل ويوم ذكرى الكارثة والبطولة، هما يوما الذكرى الرسميين للدولة.

أيام الراحة والعطل :يوم السبت وأعياد الشعب اليهودي هي أيام العطلة الثابتة في الدولة. لدى غير اليهود الحق في أيام عطلة في أعيادهم، وتفاصيل ذلك تحدد في القانون.

١١. نفاذ القانون: أي تغيير في هذا القانون يستلزم تصويت أغلبية من أعضاء الكنيست.

قراءة في القانون

يتناقض البند الأول من القانون وملحقاته، الذي يتحدث عن أن دولة إسرائيل هي الوطن التاريخي والقومي للشعب اليهودي، التي يمارس فيها حقه بتقرير مصيره ثقافيا ودينيا وتاريخيا، مع الحقائق العربية (الإسلامية والمسيحية) التاريخية والجغرافية والدينية والديموغرافية، حيث أثبتت الحفريات الأثرية التي أجريت وفق الرؤى الدينية اليهودية في كل فلسطين، أن لا أثر يثبت وجوداً يهودياً تاريخياً أو دينياً فيها.

علاوة على ذلك، وعلى عكس ما يتحدث عنه القانون، الوجود العربي في هذه البلاد مستمر منذ أكثر من ٧ آلاف عام، أي قبل نشوء اليهودية واليهود أنفسهم.

كما يتنكر القانون المذكور لوجود ما يقارب من مليوني فلسطيني ممن فرضت عليهم الهوية الإسرائيلية، وتتعامل إسرائيل معهم بشكل فردي، وليس جماعة لها حقوق وطنية وسياسية واجتماعية.

أما حصر القانون بحق تقرير المصير باليهود فقط، وبان القدس الموحدة عاصمة لدولة إسرائيل، فإن ذلك يعني أن احتلال إسرائيل لما تبقى من فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس) التي يشكل سكانها أكثر من ٥ ملايين فلسطيني، لهو مؤشر واضح حول تواصل تنكر إسرائيل للحقوق الوطنية والسياسية والثقافية والدينية لهم، وتدميرا لحل دولتين لشعبين. ومؤشر واضح حول التوجهات الإسرائيلية المستقبلية في كل ما يتعلق بالسكان العرب وممتلكاتهم وأماكنهم الدينية والتاريخية –الإسلامية والمسيحية.

وبشكل أو بآخر، وعندما يحصر حق تقرير المصير باليهود فقط، فذلك تعبير واضح عن ضم الضفة الغربية، بنفس الطريقة الإسرائيلية التي ضمت فيها القدس عام ١٩٦٧، وهو ما يتعارض مع قرار ٢٤٢ القاضي بعدم جواز السيطرة على أراضي الغير بالقوة.

أما لم الشتات، أو حق العودة، فقد انحصر في اليهود، دون غيرهم، حيث حرم نتيجة هذا القانون وغيره من القوانين الإسرائيلية ،بما فيها وثيقة استقلال دولة إسرائيل، أكثر من نصف الشعب الفلسطيني الموزع في الشتات. علما أن قرار التقسيم ١٨١ الصادر عام ١٩٤٧ وقرار ١٩٤ الذي وافقت عليهما إسرائيل، اشترط عودة اللاجئين إلى مدنهم وقراهم وبلدانهم مقابل الاعتراف بدولة إسرائيل، التي أدارت ظهرها لكل القوانين والأعراف الدولية.

لم الشتات الذي تتحدث عنه القوانين الإسرائيلية، حرم منها حتى الفلسطينيون والفلسطينيات المتزوجون من طرفي الحدود (الضفة الغربية وقطاع غزة ودولة إسرائيل) من داخل وخارج دولة إسرائيل، في إطار قرارات حكومية تجدد سنويا بمنع لم شمل العائلات الفلسطينية.

بالإجمال يمكن القول، أن قانون القومية، يعطي الأفضلية لعرق على آخر، وفق قوانين نورمبيرغ التي صدرت عن الرايخ الألماني عام ١٩٣٥ التي حرم من خلالها اليهود من حقوقهم بالمواطنة، وتحولوا بفعلها إلى مواطنين من الدرجة الثالثة، وهو الأمر الذي يسري اليوم على أكثر من مليوني فلسطيني يعيشون في وطنهم الأصلي –فلسطين.

ويتعارض القانون المذكور، مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي يقول أن البشر ولدوا أحراراً ومتساوين في الكرامة والحقوق، وأن من حق كل إنسان التمتع بجميع الحقوق والحريات المقررة في الإعلان، دون أي تمييز، لا سيما بسبب العرق أو اللون أو الأصل القومي.

كما يتعارض هذا البند من القانون، مع حق تقرير المصير للشعوب المستعمرة، الذي كفلته الأمم المتحدة وعبرت عنه بقرارات عديدة ومتنوعة مثل إدراج حق تقرير المصير في ميثاق الامم، القاضي ب**أخذِ الشعوب لمستقبلها بيدها وتحديد المسار والخيارات السياسية التي تراها مناسبة لها، بما في ذلك تشكيل حكوماتها دونَ تأثير خارجي، وتحديد شكل الحكم، والاندماج مع وحدة سياسية مجاورة أو الانفصال عنها.**

وفيما يتعلق برموز الدولة، فقد تجاهل القانون الجديد، كغيره من القوانين الرموز التاريخية والدينية للعرب المسلمين والمسيحيين في دولة إسرائيل، كما تجاهل حتى الدور الانساني للفلسطينيين العرب في كل المجالات. فالمجتمع اليهودي الذي تعامل بعنصرية مع اليهود الشرقيين، كونهم يحملون الثقافة الشرقية، أي العربية الإسلامية، ليس غريبا عليه تجاهل رموز وثقافة ورواية الغير، رغم نسبتهم الكبيرة بين السكان.

أما مكانة اللغة العربية في القانون الجديد، فهي مكانة خاصة، وليست أصلية، علما أن الحديث فيها يتجاوز المليوني فلسطيني، إلى الكثير من اليهود الشرقيين، خاصة كبار السن الذين كانت لغتهم العربية هي اللغة الأم. الموقف الحالي والسابق من اللغة العربية يشبه إلى حد بعيد موقف أول رئيس وزراء لإسرائيل دافيد بن غوريون الذي رفض الاحتفاظ بالهوية الإسرائيلية نظرا لوجد لغة عربية فيها.

ونفس الوضع ينطبق على التقويم، فقد أضيف التقويم العبري على التقويم الميلادي، في حين تم تجاهل التقويم الهجري الذي يستخدمه المسلمون، إضافة للتقويم الميلادي.

وعلى نفس السياق العنصري القائم على التمييز حسب العرق، منح القانون الحالي ،كغيره من القوانين السابقة، دولة إسرائيل الحق بالمحافظة على اليهود حتى في الدول التي يعتبرون فيها مواطنين، وعلى العلاقة معهم وعلى تثقيفهم وتعليمهم الميراث الثقافي والتاريخي والديني، **ما**

يعطي لإسرائيل الحق بالتدخل في شؤون دول الأخرى، بحجة المحافظة على سلامة وثقافة وإرث اليهود واليهودية.

وفيما يتعلق بالاستيطان، وبعد تدخلات من جهات قانونية إسرائيلية عديدة، عدل البند المتعلق بالبناء على أسس عرقية، حيث اعتبره القانون قيمة قومية ستعمل دولة الاحتلال على تشجيعه ودعم تسريع إقامته وتثبيته. رافضا في نفس القانون التطرق حتى لأصحاب الأرض الأصليين الذين منعوا منذ استقلال دولة إسرائيل حتى من إقامة ولو قرية واحدة، علما أن عددهم تضاعف أكثر من ١٢ مرة، وهو ما يتعارض مع الحق بالسكن .

ونفس الحال ينطبق على المستعمرات الإسرائيلية المنتشرة على أراضي الضفة الغربية والقدس، التي بلغ عددها أكثر من ٢٧٠ مستعمرة، التي بنيت للعرق اليهودي فقط، وعلى أراضٍ محتلة مخالفة صريحة للقانون الدولي والانساني الذي يعتبر نقل سكان الدولة المحُتلة إلى الأراضي التي احتُلت جريمة حرب يعاقب عليها القانون.

واعتبر القانون أن يوم الاستقلال، ويوم ذكرى الجنود الذين سقطوا في حروب إسرائيل، وذكرى الكارثة والبطولة، هي أعياد رسمية لدولة إسرائيل، في وقت تمنع فيه وتحارب وتعاقب المؤسسات والشخصيات الفلسطينية في الداخل، التي تحاول إحياء ذكرى النكبة التي حلت بآبائهم وأجدادهم.

القانون المذكور، وبالاضافة لقوانين نورمبيرغ، يحمل في كل تفاصيله، قوانين النظام العنصري في جنوب أفريقيا، القائمة على الفصل العنصري بين الأعراق المختلفة، وفي الحالة التي نعيشها، فإن القوانين الموجودة اليوم تفرق بين العربي (كونه عربي) وبين اليهودي صاحب السيطرة على الأرض بالقوة المسلحة فقط.

ردود أفعال

واجه القانون قبل وبعد نشره في الجريدة الرسمية حملات تأييد وانتقادات شديدة على مدار السنوات الماضية داخل إسرائيل وخارجها. وفي السياق المذكور، كتبت مئات المقالات والدراسات وألقيت المحاضرات المؤيدة والمعارضة للقانون. لكن جوهر الانتقادات الإسرائيلية اليهودية كان موجهاً بالأساس، ليس نحو يهودية الدولة، المتفق عليها بين الجميع، بل حول هل هي دولة يهودية تقدس القيم والقوانين اليهودية فقط، أم هي دولة يهودية ديمقراطية، فيما لم تركز المقالات والدراسات المذكورة على عنصر المساواة في الحقوق مع الفلسطينيين أصحاب الأرض الأصليين.

من جهتهم لم يصوت أعضاء الكنيست العرب ضد القانون فقط، بل قاموا بتمزيقه وإلقائه على

أرضية الكنيست احتجاجا عليه، وصرح بعضهم أنهم سيتوجهون للمؤسسات الدولية لفضحه لاحتواء كل بنوده وصيغته على التمييز العنصري، القائم على تفضيل العرق اليهودي على العربي-الفلسطيني، وعلى غيرهم. وهي المرة الأولى التي يحاول فيها أعضاء الكنيست العرب ولجنة المتابعة العربية التوجه نحو المؤسسات الدولية، كي تمارس ضغطا على إسرائيل لألغاء القوانين العنصرية الممارسة بحقهم، بعد فشلهم في ثنيها عن سن مثل هذه القوانين.

من جهتهم شن أبناء الطائفة الدرزية العرب حملة ضد القانون، تضمن مظاهرة في ساحة رابين شارك فيها عشرات الألاف، من ضمنهم يهود يساريون، وقرروا التوجه، مع غيرهم من قادة المجتمع العربي، لمحكمة العدل العليا لإسقاط القانون.

وعلى الصعيد اليهودي، لم تجرِ أية مظاهرات كبيرة في الميادين المختلفة في إسرائيل، واقتصرت المعارضة للقانون على بعض الاحتجاجات والمقالات والبيانات، التي كان من أهمها البيان الذي وقعه أكثر من ٢٠٠ شخصية روحية من رجال فكر وفن وأكاديميين وأدباء، الذين عارض الكثيرون منهم قانون القومية لتناقضه مع وثيقة الاستقلال التي اعتبرت إسرائيل دولة يهودية ديمقراطية يعيش فيها الجميع في مساواة.

أما الجانب الفلسطيني فقد صرح أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، صائب عريقات، أن القيادة الفلسطينية ستتوجه إلى الأمم المتحدة بشأن «قانون القومية» الذي سنه الكنيست الإسرائيلي مؤخرا. وقال عريقات إن أميركا شريك كامل لإسرائيل في هذا القانون. وعلى نفس السياق، وبناء على توجيهات الرئيس الفلسطيني، محمود عباس، اتفق وزير الخارجية رياض المالكي ومندوب فلسطين الدائم في الأمم المتحدة رياض منصور، على طرح سؤال على الدائرة القانونية في الأمم المتحدة عن القانون، وهل يتوافق هذا القانون مع ميثاق الأمم المتحدة أم لا.

أما على الصعيد الإقليمي، فقد أعربت جامعة الدول العربية عن رفضها للقانون الجديد، الذي اعتبرته مع غيره من القوانين باطلة، نظرا لمحاولة سلطات الاحتلال الإسرائيلي، فرض هذه القوانين وتكريسها بالقوة. واضاف البيان الصادر عن الجامعة العربية أن القانون لن يترتب عليه أي شرعية. فيما أكدت الخارجية التركية، في بيان لها، أن تركيا ترى بقانون القومية في إسرائيل ضربا لمبادئ القانون الدولي بعرض الحائط، وتجاهلا لحقوق الفلسطينيين.

أما على الصعيد الدولي، فقد أعرب الاتحاد الأوروبي، عن قلقه من قانون «القومية» الإسرائيلي، الذي يمنح اليهود وحدهم حق تقرير المصير في البلاد، وأنه سيعقّد حل الدولتين للصراع العربي-الإسرائيلي. أما الولايات المتحدة، فقد طالبت من مكتب رئيس الحكومة ايضاحات حول قانون

القومية لمسه بحقوق الأقليات في دولة إسرائيل. لكن الجهات الإسرائيلية ومن ضمنها مكتب رئيس الحكومة لم تنفِ عقد لقاءات مع السفير الأميركي في إسرائيل تم فيها التأكيد للسفير عدم مس القانون بأبناء الأقليات في إسرائيل.

خلاصة

لم تكن تتجرأ إسرائيل على سن مثل هذا القانون، وغيره من القوانين العنصرية القائمة على تفضيل عرق على أخر، لو أظهر المجتمع الدولي ،منذ البداية، رفضه لمجمل الإجراءات الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني، حيث فضل الوقوف متفرجا وشاهدا على ما تفعله إسرائيل، ما دفعها إلى التمادى في ممارستها، مستمدة الدعم في ذلك من المجتمع الدولي ومن الإدارات الأميركية المتعاقبة.

وفي سياق مختلف، ينفي القانون من حيث الجوهر، وجود أية قومية أخرى على ما يسمى بـ «أرض اسرائيل»، وحتى إن بقيت على جزء منها. وحسب التعابير الاسرائيلية، فإن أبناء القومية «الأخرى»، أي الفلسطينيين داخل دولة إسرائيل وفي الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة، لا يحق لهم أية حقوق قومية جماعية، بل حقوق فردية.

وأظهر سن قانون إسرائيل –الدولة القومية للشعب اليهودي، بشكل واضح كيفية تعامل إسرائيل مع من شاركها السلاح من دروز وشركس وبعض البدو وغيرهم من غير اليهود، كمرتزقة، وهو ما ظهر جليا عندما اجتمع رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو مع وجهاء الدروز، وقدم لهم مقترحات بزيادة الميزانيات والامتيازات.

ومن الناحية السياسية، أغلق القانون الجديد الهامش الذي وفرته وثيقة الاستقلال، الذي ساوى في الحقوق، من الناحية النظرية، بين مواطني دولة إسرائيل، للحصول على اعتراف أممي بها، ما دفع المواطنين العرب لمشاركة في الحياة السياسية، التي تبين أنها إحدى المبررات الإسرائيلية المستخدمة في العالم لإثبات ديمقراطيتها.

القانون الجديد وجه صفعة قوية لكل الغارقين في وهم الإسرائيلية والمواطنة، والمتطلعين بالتوصل لحل قائم على «دولتين لشعبين».

كما سدد القانون ضربة قاضية لسياسة «فرق تسد» المتبعة بحق الفلسطينيين، والقاضية بالتعامل معهم على أساس تقسيمهم إلى طوائف وأبناء أديان وقوميات مختلفة، التي يجب عليهم استغلالها لتوحيد صفوفهم وطرح برامج سياسية ووطنية ونضالية موحدة، تتجاوز من خلالها التقسيم الذي فرضه عليهم الاحتلال الإسرائيلي .

غزة وقانون القومية الإسرائيلي: وحدة الصراع واختلاف المصير!

م. تيسير محيسن*

تقول سارة روي «نجحت إسرائيل بشكل مذهل. لم تقم بفصل واحتواء غزة جغرافيا واقتصاديا وقانونيا فقط؛ إنما أقنعت الجميع بأن غزة شيء استثنائي، فظيع وغير مستقر، وبالتالي لا تستحق وجودا جديرا بالاهتمام».

هذا «الاستثناء» أريد له أن يطغى على القاعدة، أن يلفت الانتباه عما يدور في الجوار، أن يشكل بؤرة اهتمام زائف، أن يحتل صدارة المشهد. وهنا المفارقة!

في الواقع كل ما يحدث في غزة ولها يثير الدهشة؛ اعتبرها البعض «قلعة»، وشبهها آخرون بالسجن. بعد سنوات من حصارها وتعذيبها والتنكيل بها، وفي إطار ظاهرة «تعميم اللجوء» في المنطقة، باتت غزة تحمل سمات «المخيم». إسرائيل تسعى اليوم إلى تفويض جهات خارجية بالإشراف الإداري والأمني والإنساني عليه، لتنفض يدها بالكامل منه بوصفها دولة احتلال، تسببت في كل ما يحدث لسكانه من معاناة.

لم يعد هذا القطاع من الناحية العملية والسياسية يشكل مركز الصراع الفعلي ضد دولة الاحتلال، التي أفصحت عن ذاتها، عبر إقرار قانون القومية، بأنها دولة عنصرية، علاوة على طابعها الكولونيالي الإحلالي والاستيطاني. أدانت القيادة الفلسطينية قانون القومية، وكذا فعلت جميع الفصائل السياسية. حظي القانون باهتمام سياسي وفكري بين الإسرائيليين أنفسهم، وفي أوساط النخبة الفلسطينية. من بين كل ما كتب، لم أجد قراءة واحدة وعميقة لما يمكن أن يكون لهذا القانون من تداعيات على مستقبل قطاع غزة، أو قل على مصيره بينما تكثر من حوله المخططات والمبادرات التي تهدف في نهاية المطاف إلى تحديد هذا المصير. كثير من الكتابات ربطت بين هذه المخططات

* كاتب من فلسطين

وصفقة القرن، وسابقا ارتبط الأمر بخطة الفصل، وقديما بمؤامرة التوطين. فهل توجد علاقة من نوع ما بين قانون القومية ومآلات الوضع في القطاع؟

للإجابة على هذا السؤال، لابد، أولا، من إعادة قراءة القانون وما ورد فيه من بنود وما يمكن أن يشتق منها من دلالات واتجاهات يمكن ربطها بواقع حال القطاع والمصير الذي يخطط له. وثانيا، تفكيك حالة الاشتباك الراهنة بين القطاع ودولة الاحتلال وفهم وظائفها وأبعادها ومآلاتها (الفصل، الحصار، الاعتداءات والحروب، مسيرات العودة، التفاوض عبر طرف ثالث). وثالثا، محاولة فهم موقع القطاع ضمن المشروع الصهيوني وتحليل الاستراتيجية الإسرائيلية تجاهه، وبالطبع في هذا الإطار يجدر التنويه إلى موقع القطاع أيضا ضمن المشروع الوطني الفلسطيني.

قراءة في القانون:

أستندت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها رقم (٣٣٧٩) لعام ١٩٧٥ والقاضي بأن «الصهيونية هي شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري» على قرارات وإعلانات سابقة؛ حملت مضامين متشابهة؛ لعل أهمها اعتبار «الأنظمة العنصرية آنذاك، ومن بينها إسرائيل بمثابة كيان كلي، لها هيكل عنصرى واحد وترتبط ارتباطا عضويا فى سياستها الرامية إلى إهدار كرامة الإنسان وحرمته". العنصرية من حيث الجوهر، اعتقاد جماعة بتفوقها على جماعة أخرى، ما يؤدي غالبا إلى ممارسة التمييز والتحيز، سواء على أساس العرق أو الدين، وأحيانا على كليهما معا. تقول الشواهد التاريخية أن كل دولة استعمارية وظفت العنصرية كأحد جوانب التنظيم الاجتماعي، لكن ليس كل دولة عنصرية استعمارية بالضرورة.

وفقا لاتفاقية الأمم المتحدة المتعلقة بالتمييز العنصري «التفوق القائم على التمييز العنصري زائف علمياً ومدان أخلاقياً وغير عادل اجتماعياً وخطير، ولا يوجد أي مبرر للتمييز العنصري، في أي مكان، نظرياً أو عملياً». من الإجراءات الاجتماعية المرتبطة بالعنصرية؛ كراهية الأجانب (الآخر)، الفصل العنصري، الترتيب الهرمي، الاستعلاء. ومن الشواهد أيضا، أن النزاعات القومية العرقية على الأرض والموارد الاستراتيجية، غالباً ما تسخر مفاهيم العرق والعنصرية والدين، عندما يتم تحديد الخصم على أنه «آخر» (مع تفسير «الآخر» بأنه أقل أو أدنى مرتبة). العنصريون (على أساس العرق أو الدين) يعتقدون بأن الحدود السياسية يجب أن تحافظ على النقاء أو التجانس في الدولة القومية؛ ما يدفع، أحيانا للتطهير العرقي أو الفصل. هناك ما يعرف بالعنصرية التشريعية؛ أي تمرير سلسلة من تشريعات الفصل العنصري من خلال القوانين (جنوب أفريقيا ١٩٤٨-١٩٩٤)

وصفت «إسرائيل» دوما بأنها دولة غير طبيعية، إذ حملت سمات من الاستعمار القديم والاستعمار الجديد ومارست العنصرية بأشكالها، من تطهير، وتمييز، واستعلاء، وفصل وجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية. لذا، فقانون القومية ليس إلا تشريعا بقوة القانون لما مارسته واعتقدت به طوال عقود. أعلن نتنياهو، مزهوا «هذه لحظة فارقة بتاريخ الصهيونية ودولة إسرائيل...إسرائيل هي دولة قومية للشعب اليهودي». لا يمكن مقاربة هذا القانون ومحاولة فهمه وفحص تداعياته إلا ضمن سياقات متداخلة؛ سياق تاريخي (المشروع الصهيوني وقيام إسرائيل)، سياق أيديولوجي (الصراع على طابع الدولة والمجتمع والهوية)، سياق سياسي (التحولات الكبرى؛ ظهور الشعبوية، صعود تحالف اليمين الديني والقومي، صفقة القرن وغيرها).

يرى البعض أن القانون محاولة من اليمين المتطرف في إسرائيل لحسم التناقضات التي صاحبت نشأة الصهيونية وقيام إسرائيل وتشكل هويتها ومجالها العام وإدارتها السياسية؛ بين العلمانيين والأصوليين، بين الدين والقومية، بين اليهودية والديموقراطية، بين اليهود والعرب الفلسطينيين. تقوم هذه المحاولة على تأسيس وجود إسرائيل وتبريره والمحافظة عليه بالاعتماد على تفسير ديني ضيق للتراث اليهودي (إعادة تعريف الصهيونية) باستخدام أداة التحكم الرئيسة؛ القانون!

اخترعت الصهيونية «تراثا يهوديا قوميا» يربط بين الأرض والهوية. وحاولت إسرائيل بعد قيامها أن تحسم مسألة الدين والقومية فلم تفلح، إذ نُظر لليهودية من منظور ديموغرافي، ضمان أن يشكل اليهود أغلبية سكان الدولة. لم تحاول إسرائيل أبداً بناء هوية وطنية إسرائيلية «محررة»، إذا جاز التعبير، من «دين» يهودي، وبدلاً من ذلك، ركزت على بناء هوية قومية يهودية مخصصة لليهود فقط. في مرحلة معينة؛ ومع تراجع ما يسمى باليسار الصهيوني (الليبرالي والاشتراكي) التقى اليمين القومي، الذي يستخدم بعض جوانب التراث «للإكراه الديني» لضمان استمرار دولة إسرائيل وضمان حكم الأغلبية اليهودية، باليمين الديني الذي يقوم على إعادة إحياء التراث اليهودي واستلهامه لتعزيز العودة إلى أرض الميعاد واستيطانها.

في الدلالات والتداعيات:

يكرس القانون يهودية إسرائيل وعنصريتها، وهو ما يستبعد الاعتراف بالآخرين (الفلسطينيين). وهو إذ يعلي من القيم «القومية» وتجذير التراث، فمعنى ذلك أن إسرائيل ذاهبة إلى الارتداد عن الديموقراطية إلى الأصولية الدينية أو الفاشية، وبالطبع تحضيرا للذهاب إلى الحرب (هناك من اعتبر القانون بمثابة تحصين للصهيونية في حالتي الحرب والسلام الخطرتين عليها). ثمة من يرى أن ما ورد

من بنود ما يقطع الطريق على دولة ثنائية القومية، أو دولة لكل مواطنيها، وبالطبع ينهي مقاربة حل الدولتين. إلى ذلك، فالقانون في نظر مشرعيه تصحيح لإخلال المحكمة العليا الإسرائيلية بالتوازن بين المركبين: اليهودية والديموقراطية لصالح المركب اليهودي، وهو يؤسس لجملة من التشريعات العنصرية. بإقرار هذا القانون، إسرائيل تجعل من نفسها دولة فوق نواميس البشر وسياستها سمة من سمات الطبيعة؛ ولذلك يمثل نقطة تحول تاريخية في سياق عالمي معقد وديناميي.

كتب كثيرون عن تداعيات وتأثيرات القانون على الفلسطينيين. طمس الهوية الوطنية (سياسيا وثقافيا)، إلغاء حق العودة ونفي حق تقرير المصير، ضم القدس وتشريع الاستيطان، إعلان حرب (تصعيد، مجازر، طمس حقوق ومكتسبات...)، وبالنسبة لفلسطينيي ٤٨ (المستهدفين الأساسيين) يعرضهم لمزيد من التهميش والإقصاء والحرمان والمواطنة المنقوصة؛ إذ لا يبقي لهم القانون مكانا رسميا في الدولة، وبكلمات محمد بركة الموجزة والمعبرة «القانون يستهدف الوجود الفلسطيني ذاته"، إذ يجعل هذا الوجود "مشروطا".

من المفارقات العبثية في القانون، أنه يخاطب مواطني دولة إسرائيل، وفي ذات الوقت ينسحب على الفلسطينيين خارج الدولة وكذلك على كل يهود العالم. يجمع القانون كل مفردات العنصرية ويشرعنها؛ استيطان، تفوق عرقي، فصل عنصري، عزل في غيتوهات، الانتقاص من الحقوق الثقافية، التحكم في مصير جماعة قومية أخرى، بالقوة الغاشمة والإدعاءات والمزاعم التوراتية الموهومة، لأن مشرعي القانون، كما يقول دافيد غروسمان «واثقون من عدم وجود أية قوة بمقدروها أن تمنعهم". ومثلما هي دولة غير طبيعية، فإن عنصريتها أيضا تتسم بمفارقات؛ فهي مزيج من مكونات قومية ودينية وعرقية، نبعت من حاجتها إلى «شيطنة الفلسطيني» باعتباره خصما سياسيا ووجوديا، لتبرير قيامها والمحافظة على وجودها، وبالتالي هي عنصرية ارتبطت أساسا بالصراع على الأرض وليس لأسباب تتعلق بالتباين العرقي أو الديني. وعليه، إسرائيل ترفض وجود الفلسطيني وبقاءه على أساس أمني استراتيجي ديموغرافي وليس عرقي أو ديني صرف.

غزة بعد عقد ونيف على خطة الفصل:

وصف الأمين العام للأمم المتحدة، أنطونيو غوتيريس، الوضع في غزة بأنه «أحد أكثر الأزمات الإنسانية درامية التي شهدها خلال سنوات عديدة في العمل الإنساني في الأمم المتحدة».

يبدو قطاع غزة، بعد نصف قرن من احتلاله وعقد ونيف من خطة الفصل، وسيطرة حركة "حماس" وفرض حصار عليه، مكانا "غير آمن" للعيش فيه من منظور إنساني شامل. إذ يعيش حالة

من عدم اليقين، ونوعية الحياة فيه مروعة. يتحمل الفلسطينيون أنفسهم قسطا من المسؤولية (انقسام نظامهم السياسي أدى إلى انعدام القدرة وسوء الأداء). ولكن، دولة الاحتلال هي من يتحمل فعليا مسؤولية ما آلت إليه أوضاع القطاع. فصله جغرافيا، حصاره، شن الاعتداءات عليه بصورة مستمرة، اتباع سياسة «الاحتواء الإقصائي» تجاهه. ومما فاقم من الأوضاع المأساوية اندراج غزة رغم أنفها في لعبة التجاذب الإقليمي ورهانات القوى المتصارعة فيها. وبينما هيمن فصيل واحد على مجمل الفضاء الاجتماعي والسياسي من دون وجه حق، توزع اهتمام سكان القطاع تدريجيا بين توق أصيل للحرية والانعتاق، وبين متطلبات الحياة اليومية الضاغطة والملحة. قال البعض، غزة لا تفوز ولكنها لا تستسلم، لا تبتلع لكنها لا تلفظ، محاصرة من الخارج ومتروكة لأجهزتها الخاصة من الداخل، مفصولة عن بقية فلسطين، لكنها شديدة الارتباط بها.

ورغم اختلافهم حول خطة الانفصال، يجمع الإسرائيليون على أن الفصل أضعف قدرة الفلسطينيين، وساعد على التخلص من غزة، ومن المسؤولية عنها ودفعها جنوبا، يقول يوسي بيلين «بالنسبة لنا أصبحنا نحكم عدداً أقل من الفلسطينيين". هذا وقد تباهى بعض قادة الاحتلال «صحيح لقد تخلينا عن ٥٪ من أراضي السلطة الفلسطينية، لكننا تخلينا عن ٤٠٪ من السكان». فعليا، باتت إسرائيل تتعامل مع قطاع غزة، على أنّه لم يعد ضمن الحدود التاريخية الفلسطينية التي تَسيطر عليها. ومما يلفت الانتباه أن يزعم بعض قادة دولة الاحتلال أن خطة الانفصال توقعت حدوث عملية التفتت الفلسطيني لكنها لم تتسبب بحدوثها (وهو زعم باطل على أي حال).

في الواقع، لا تعتبر غزة جزءاً من «الأرض الموعودة» التي تشكل جوهر المشروع الصهيوني. لكن بروز «حالة غزة» أو استثنائيتها، أو معضلتها، جاء على إثر جريمة تطهير عرقي واسعة النطاق شملت ٥٠٪ من جنوب فلسطين، ودفع سكان ٢٤٧ قرية إلى ١,٣٪ من الأراضي. هذا هو قطاع غزة، الذي يشكل اللاجئون حوالي ٧٥٪ من سكانه موزعين على ٨ مخيمات. يقول آفي ديختر في معرض دفاعه عن الانفصال «ندخل منطقة-يقصد غزة- لا من أجل الاستيطان فيها، ولا لأنها ميراث الأجداد، وإنما لإيصال رسالة، تماما كما كان الحال في لبنان».

ومع ذلك، شكلت غزة معضلة بالنسبة لإسرائيل؛ تمثلت في ضيق مساحته مع كثافة سكانية هائلة، قلة الموارد والضغط الناجم عن ذلك، انتماء غالبية سكانه إلى اللاجئين الذين يرون بقايا بيوتهم بالعين المجردة ما يؤجج إصرارهم على النضال من أجل العودة، وجود تشكيلات عسكرية مدربة ومجهزة وقادرة، احتمالية أن تتحول غزة إلى رأس حربة مدعومة من دولة إقليمية قوية أو تحالف إقليمي قوي، وقوع قطاع غزة في منطقة تقاطع النيران بين إسرائيل ومصر واعتبار القطاع امتدادا طبيعيا لشبه صحراء سيناء. ولذلك عبر قادة إسرائيل دوما عن رغبتهم في إعادة موضعة غزة خارج

دائرة الجغرافيا الوطنية والهوية السياسية الفلسطينية، في اتجاه البحر أو نحو الجوار الإقليمي. أراد الإسرائيليون ضرب وحدة الفلسطينيين بصفتهم "جماعة سياسية"، وضرب مشروعهم الوطني عبر إعادة الهندسة الجغرافية والديموغرافية والحياتية في مجتمع الضفة الغربية وقطاع غزة، بحجر واحد ضربوا الاتجاه التوحيدي الذي مثلته م.ت.ف، والاتجاه الاندماجي الذي شهده هذا المجتمع في إثر التوحيد القسري للمنطقتين سنة ١٩٦٧.

نجحت غزة، طوال عقود، في أن تكون مركز الفعل السياسي الفلسطيني، واعتُبرت بمثابة "خندق المشروع الوطني المتقدم". لكنها، في المقابل، عرفت أسوأ أنواع العنف الذاتي، إذ تغلب على سكانها مشاعر الانفعال، بينما يشجع صغر مساحتها واكتظاظها السكاني على "التجييش العاطفي" والحشد الجماهيري والتأثير الإيحائي. كما أن جوارها الإقليمي لمصر منحها امتيازات وسبب لها، في الوقت ذاته، كثيراً من التهديدات. أحسنت إسرائيل استغلال ذلك وتوظيفه في خدمة استراتيجيتها تجاه غزة. واللافت أن ربط «حماس» مصيرها بمصير غزة، جعلها تتساوق إلى حد بعيد مع فكرة «انفصال غزة»، يرجح البعض أن السبب يعود إلى رغبة الإخوان المسلمين في المحافظة على موطئ قدم بعد أن منوا بهزائم في الإقليم، ومن جهة أخرى يرى البعض أن مصالح الحركة وشعورها بالعجز عن عكس اتجاه الرغبة الإسرائيلية، جعلاها تكيف ذاتها مع فكرة الانفصال.

أخذت السياسة الإسرائيلية منذ مجيء شارون إلى الحكم، في إطار مشروع التجزئة الأمريكي في المنطقة، ومشروع فك الارتباط في الأراضي الفلسطينية المحتلة المعالم التالية: (١) إعادة احتلال الضفة والشروع في أكبر عملية تهويد بالاستيطان وبناء الجدار وعزل القدس وتطهيرها عرقياً بالمعنى الحرفي للكلمة. (٢) فصل غزة والانفصال عنها وتركها معزولة ومخنوقة بأزماتها الإنسانية وتحت طائلة العدوان المتكرر. (٣) سن مجموعة كبيرة من القوانين والتشريعات التي تقلص من إمكانية تحقيق التطلعات السياسية والوطنية لمواطني إسرائيل من العرب الفلسطينين (٤) إعادة كي الوعي الفلسطيني عبر ممارسة سياسة الردع واستخدام القوة الهائلة لقمع التطلعات وإجهاض الفرص وتقليص سقف المطالب وتحويل حياة ملايين الفلسطينيين اليومية إلى جحيم لا يطاق.

تداعيات القانون على غزة:

في سلوكها تجاه غزة، وفي رؤيتها لمصيره وفي نظرتها لقاطنيه، ارتكبت دولة الاحتلال أبشع الجرائم، بما في ذلك التطهير العرقي، كما احتلتها بالكامل سنوات طويلة؛ وبالطبع لم يخل سلوكها وموقفها من عنصرية فظة، بالاستناد إلى موروث توراتي تجاهها «ملعونة ومطرودة من رحمة الرب»،

وأمنية رابين بأن تغرق في البحر، ونصيحة ديختر بوضعها في طنجرة ضغط، وسياسة شارون بفصلها وأولمرت بحصارها ونتنياهو بخنقها وجميعهم برفض حق عودة ٧٥٪ من سكانها، ورفض حل الدولتين الذي يشملها؛ وحتى رفضهم اعتبارها مشمولة باتفاقيات أوسلو. في نظرهم غزة كيان معادي! ورم يجب استئصاله. يقول ديختر في معرض تبرير الانفصال عن غزة «الفلسطينيون إرهابيون سَحَرة، إنهم بكل بساطة قتلة، الانفصال أثبت بالملموس أن الإرهاب والهمجية والعنف في الجانب الفلسطيني، وغياب أية مظاهر لمجتمع سويّ، لا علاقة لها بالوجود الإسرائيلي".

تأسست خطة الفصل والتنظير لها وتبريرها وإدارة تنفيذها على عنصرية مفرطة، مضمرة وعلنية، خطابا وسلوكا: استعلاء، نفي غزة، اتهامها بالارهاب وانعدام الجدارة والأهلية! لا يمكن تفسير وفهم واقع التجزئة المستمر في الحالة الفلسطينية، كجزء من حالة التجزئة في الإقليم، إلا بفهم أبعاد الفصل الذي تمارسه إسرائيل بوصفه امتدادا لسياسة الاقتلاع والتشريد، وما يقابلها من إحلال واستيطان ونفي الوجود والحقوق. واللافت أن إسرائيل تخفت وراء السلوك الفلسطيني، وخصوصا الانقسام غير المبرر وطنيا، أعفيت من المسؤولية عن جرائم الحرب، ولم تظهر وكأنها تمارس سلوكا عنصريا أو تطهيرا عرقيا علما أن الفصل من حيث الجوهر هو كذلك!

الأهداف الكبرى التي تسعى إسرائيل إلى تحقيقها في إطار «إستراتيجية التجزئة»؛ أولاً تقويض حل الدولتين، وقطع الطريق على حل الدولة الواحدة، ثانياً الفوز بالاعتراف بها بوصفها دولة يهودية، ثالثا إكراه الجوار العربي على القبول بالحل الإقليمي للمسألة الفلسطينية على نحو من الأنحاء، رابعاً التخلص من مشكلة اللاجئين وإعادة توطينهم في كيانات طائفية قد تتشكل، التخلص من عبء الديموغرافيا الفلسطينية الضاغط على أنفاس إسرائيل سواء في داخلها أو في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ٦٧.

في إطار الاستهداف الإسرائيلي الشامل لكل مكونات الوجود الفلسطيني، لم يزد قانون القومية إلا أن يقطع الطريق، من منظور استعماري، عنصري، بقوة القانون، على أي أمل أمام سكان قطاع غزة سواء في دولة مستقلة على حدود الرابع من حزيران، أو عودة اللاجئين فيها إلى ديارهم، أو الاندماج على أي شكل في مجالها الطبيعي والتاريخي!. لكنه، علاوة على ذلك، يدرج ضمن الخطوات التي اتخذتها الولايات المتحدة لصالح إسرائيل مؤخراً، باعتباره جزءا من صفقة القرن الهادفة لتصفية القضية الفلسطينية بكل أبعادها السياسية والتاريخية والدينية.

من المؤكد أن قانون القومية إنما هو موجه بالأساس للفلسطينيين داخل إسرائيل، ولفلسطينيي الضفة من حيث الاستيطان، والعلاقة المحتملة مع سكانها، أو من يتبق منهم، إذا ما أقدمت

إسرائيل على ضمها. ومع ذلك، فقطاع غزة لن ينجو من تداعياته اليوم وغدا. فالقانون يضفي مصداقية، شرعية من نوع ما على كل ما مارسته إسرائيل في الماضي ضده، وعلى وجه الخصوص فصله والحيلولة دون عودة لاجئيه. إلى ذلك، تستمد إسرائيل تبريراتها لجرائمها التي ترتكبها ضد القطاع وسكانه بالإدعاء أنها تفعل ما تفعله دفاعا عن أمنها ووجودها وطابعها اليهودي، ودائما بذريعة محاربة المخربين والإرهابيين. يجدر ملاحظة أن الاستراتيجية الإسرائيلية الحالية تجاه قطاع غزة يمكن أن تتبدل ارتباطا بمتغيرات أبرزها حقول الغاز المكتشف في سواحلها، تطور الوضع في مصر وسيناء خصوصا، وبالطبع تداعيات المواجهة المحتملة مع سكان غزة في أي شكل كانت إذا ما شكلت خطرا جديا على إسرائيل، وهو ما يجعل من القطاع شأنه في ذلك شأن التجمعات الفلسطينية الأخرى موضوعا مباشرا لتطبيقات القانون؛ بما في ذلك الحرمان من الانتفاع باللجوء إلى المحكمة العليا.

يبدو واضحا أن إسرائيل لا تريد غزة؛ ومع ذلك يبقى الكلام منقوصا، هي لا تريد أن تبتلعها، لكنها أيضا لا تريد أن تتركها وشأنها تقرر مصيرها ذاتيا. تركتها وبقيت تمسك باللجام! ويبدو أنها لن تصل قريبا إلى وضع نهائي ومستقر.

القانون ومستقبل غزة:

إذا كان ثمة مستقبل لغزة خارج سجنها المفتوح، فهو يكمن في إنهاء حدته وحالة الاستثناء الحالية. انه يكمن في القبول والاندماج.

إذا ما استعرضنا سيناريوهات المستقبل في غزة، أو احتمالات مصيرها النهائي أو شبه النهائي، سوف نكتشف أن لقانون القومية تطبيقات عدة محتملة سوف تطال فلسطينيي القطاع. سواء بقي الأمر على حاله، أو أعادت إسرائيل احتلالها أو دفعت القطاع إلى صحراء التيه أو كرست انفصاله التام، معزولا ومخذولا، كيانا غير معرف وغير معترف به يخضع لإشراف أممي يتولى إدارة شأن سكانه مع تحكم أمني صارم من الجوار.

يمكن للقطاع، وبقية التجمعات الفلسطينية، أن ينجو من تأثيرات قانون القومية في حالتين: قيام دولة فلسطينية على حدود الرابع من حزيران كاملة السيادة والسماح بعودة لاجئيه (٧٥٪)، وهو احتمال بات ضعيفا للغاية. والاحتمال الثاني، قيام دولة ثنائية القومية أو لكل مواطنيها وهو أمر أيضا صعب المنال ودونه نضالات طويلة. وحتى لو تحقق الأمر في نهاية المطاف، فسوف يتبقى شكل من أشكال العنصرية طالما بقي المشروع الصهيوني قائما على مرتكزاته التوراتية والأيديولوجية.

في الواقع، غزة ليست جزءا من مشروعهم، أرادوا التخلص منها دوما، لكنهم لم يفلحوا حتى اللحظة؛ فمصر تمانع وتماطل، والعالم لم ينفض يده بعد من حل الدولتين، وسكان غزة يطرقون جدران الخزان في مسيرات أسبوعية دموية بالضبط عند خط، حيث لا يفصلهم عن مدنهم المدمرة وقراهم المهجورة وأراضيهم المسلوبة سوى بضعة أمتار وماكنة عسكرية مهولة وعقلية عنصرية استعلائية لا مثيل لها. إن من شأن تركيز الصراع على الطابع العنصري لدولة الاحتلال، فضحه وتعريته والتوقف عن تزويدها بالمبررات والذرائع، أن يقطع الطريق نهائيا على مخططاتها تجاه القطاع، وأن يعيده إلى مربع المشروع الوطني، يسهم في النضال من موقعه وخصوصيته لا أن يصبح عبئا عليه.

إحدى القضايا التي تواجه حكومة اليمين في إسرائيل الآن هي كيفية استمرار السيطرة والتحكم في غزة على نحو أفضل، وإلى أن يتقرر مصيرها نهائيا ضمن ما يسمى بصفقة القرن (أو الحل الإقليمي). ستستمر معالجة غزة كمشكلة إنسانية لا تتطلب أكثر من بعض التسهيلات للتنفيس، «لا تنمية ولا ازدهار ولا أزمة إنسانية». ويقابل ذلك سياسيا «لا تهدئة، ولا حرب ولا مصالحة». بالطبع سيكون هناك دائما «تصعيد» وعنف، لكنه سيبقى قيد السيطرة ما لم تطرأ ظروف غير منظورة تدفع إسرائيل نحو خوض حرب شاملة في غزة بهدف إعادة احتلالها أو دفع سكانها نحو الجنوب. غزة تعيش حالة مؤقتة، انتقالية، وهي على حافة الجرف؛ فإما العودة إلى الاندماج في تشكيل سياسي واجتماعي أوسع (دولة أو سلطة أو نظام سياسي أو حركة تحرر)، وإما الاندفاع قدما، طبقا لمخططات جهنمية أو ارتباطا بتحولات دراماتيكية أو تداعيات إقليمية، نحو إعادة تعريف ذاتها بتكريس الانفصال التام. ترجيح الاحتمال الأول يعتمد إلى حد كبير على قدرة الفلسطينيين على فضح عنصرية دولة الاحتلال وخوض الصراع ضدها على هذا الأساس.

خلاصة

الطبيعة الأساسية لأزمات قطاع غزة سياسية (دون التهوين من الأبعاد الأخرى) ليس من حيث الأسباب والنتائج فحسب، وإنما من حيث إنها باتت «أداة سياسية» تستخدم من قبل هذا الطرف أو ذاك بغض النظر عن عواقبها على سكان القطاع أنفسهم. حماس تتصرف وكأن غزة رهينة بين يديها، والسلطة يطاردها هاجس أن تعود غزة لتثقل كاهلها من حيث توفير الحجج لممارسة الضغوط الخارجية عليها. في ظل ذلك، تبقى إسرائيل العامل المقرر، علاوة على موقف مصر وقدرتها على صد الاتجاه الإسرائيلي بإلقاء كرة نار غزة الملتهبة في حجرها. وطالما لم تتخلص إسرائيل نهائيا

من معضلة غزة المركبة، فلن تكون في عجلة من أمرها في إسقاط حكم حماس أو استبداله الذي يبقي وضع غزة كيانا معاديا تستهدفه بنيرانها بتوقيت حساباتها السياسية والإستراتيجية، وهذا «الوضع» أسوأ من بانتونات الفصل العنصري، إنها جريمة غير مسبوقة ترتكب بحق ٢ مليون فلسطيني تقمع تطلعاتهم القومية، وتحرمهم الحد الأدنى من الحياة الكريمة، وتواصل سجنهم وتقييد حركتهم وإنهاك اقتصادهم وقتلهم كلما سنحت لها الفرصة. بالنسبة لغزة وسكانها، لم يضف قانون القومية شيئا، وربما لم يلتفت إليه الكثيرون منهم، في الواقع هو يقونن ما يمارس ضدهم منذ عقود.

لن أختم بما ينبغي على الفلسطينيين القيام به، ومع ذلك، يجدر القول إن التمسك بحل الدولتين، وتوسيع مساحة الصدام مع دولة تفصح عن عنصريتها بكل وقاحة وصلف، وبالطبع نسف منطق الانقسام الذي لا معنى له سوى أنه بات دينامية من ديناميات المستعِمر الصهيوني في التحكم بالمستَّعمر الفلسطيني، قد تكون خطوات ضرورية لوقف سياسة إسرائيل العنصرية.

ويبقى الموقف من تجنيب غزة وأهلها مزيدا من المعاناة يشكل نقطة البداية: سواء على جبهة الصراع المباشر مع دولة الاحتلال، أو على جبهة الصراع الداخلي على الهيمنة في الحقل السياسي، أو على جبهة وقف تدهور الأوضاع الإنسانية، وهو ما يتطلب فورا نقل مركز الصراع المباشر إلى مكان آخر، وتعزيز مسار التوافق مع الموقف المصري والبناء عليه.

أوراق ثقافية

رواية الرواية
«أولاد حارتنا» تثير الجدل بعد ستين عاما

محمود الورداني

ماتزال رواية « أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ صالحة لإثارة الدهشة والجدل بعد أن رحل كاتبها بأكثر من عقد من السنين، بل وبعد مايزيد عن ستين عاما منذ نشرها في حلقات بصحيفة الأهرام في سبتمبر- أيلول- عام ١٩٥٩.

والكتاب الذي أصدرته أخيرا دار العين القاهرية لمحمد شعير أثار عاصفة من الاهتمام والتعليقات الصحافية والنقدية بمجرد صدوره، خصوصا بعد أن صرحت د. سيزا قاسم الأستاذة الجامعية وصاحبة أول دكتوراه عن ثلاثية محفوظ بأن الأخير كان «جبانا» في مواقفه، خلال الندوة التي سبقت إطلاق الكتاب، وهو الأمر الذي دفع العشرات من الكتاب والنقاد للرد عليها بل والهجوم عليها في مقالات وتعليقات عديدة.

أما كتاب محمد شعير « أولاد حارتنا.. سيرة الرواية المحرمة» فلايقدم تفسيرا أو شرحا أو نقدا أدبيا للرواية، إنما حكى سيرة الرواية، وقدّم متنا مستقلا وموازيا لمتن الرواية على مدى سبعة عشر فصلا. يتضمن متن شعير تأريخا ووصفا وتقريرا ضافيا للأحوال السياسية والاجتماعية التي صدرت في ظلها « أولاد حارتنا»، ثم يتابع مراحل ووقائع الرفض والمصادرة والهجوم على محفوظ حتى محاولة اغتياله في أكتوبر- تشرين أول- ١٩٩٤ في ذكرى حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ .

تاريخ الوصاية والمصادرة

السطور التالية وإن كانت تعتمد أساسا على المادة الوفيرة المدققة الواردة بالكتاب، إلا أنها تعتمد

أيضا على بعض المصادر والتقارير غير الواردة في الكتاب، بغية تقديم دراسة شاملة لتاريخ الوصاية والمصادرة والقمع ليس بالنسبة لأولاد حارتنا فحسب، بل باعتبار الأخيرة النموذج الأكثر جلاءً وسطوعا، ولذلك سيجد القارئ إشارات عديدة لحالات أخرى من الأعمال الأدبية والفكرية والفنية تم العدوان عليها ومصادرتها.

وإذا بدأنا من البداية ، فإن نجيب محفوظ كان قد توقف عن الكتابة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فالثورة التي هزّت أسس المجتمع القديم، هزّت محفوظ ذاته وهو الوفدي العريق، وجعلته يتوقف طويلا محاولا استعادة توازنه وتأمل ماجرى، واستمر توقفه عدة سنوات حتى عام ١٩٥٨ .وخلال تلك السنوات اتجه إلى السيناريو ، وكتب عددا كبيرا من الأفلام.

البداية من هنا

وفي ذلك العام-١٩٥٩ – سلّم محفوظ لعلي حمدي الجمال مدير تحرير الأهرام آنذاك أصول روايته» أولاد حارتنا» ، وطلب منه أن يقرأها بعناية قبل النشر، ولم يقرأها الجمال ، بل أعطاها لمحمد حسنين هيكل، رئيس تحرير الأهرام آنذاك، وأعاد عليه ماقاله محفوظ، وعندما قرأها أدرك مغزى تحذير محفوظ للجمال، واستقر على النشر متصورا أن أقصى مايمكن حدوثه في أعقاب نشرها هو محاولة بعض رجال الدين وقف نشرها، لذلك بادر بنشرها يوميا، وهي المرة الأولى التي تنشر فيها الأهرام رواية مسلسلة يوميا.

وحسبما روى هيكل ، فإن رجال الدين لم يتحركوا إلا بعد الحلقة السابعة عشرة، حيث أصدروا بيانات ساخنة، ومالبثت الضجة أن وصلت إلى عبد الناصر، وطلب الأخير من هيكل أن يروي له ماحدث، فأخبره أنه كان مدركا لكل المحاذير قبل النشر. ولما لم يكن باقيا على استكمال نشر الرواية إلا ثلاث حلقات فقط، فإن فرصة وقف نشرها قد فاتت. وحسبما قال محفوظ فإن جمال عبد الناصر أرسل له ممثله الشخصي حسن صبري الخولي، وطلب منه وديا عدم نشر الرواية في كتاب في مصر، ووعده محفوظ بذلك، وحافظ على وعده حتى رحيله، بينما نشرتها دار الآداب البيروتية ودخلت مصر في طبعات عديدة، وظلت تباع على الأرصفة حتى وقت قريب.

أما أول هجوم معلن على الرواية فبدأ مبكرا جدا قبل اكتمال نشرها في الأهرام،حيث نشر شاعر وكاتب أغاني منذ أيام الملكية ويدعى صالح جودت، نشر على صفحات مجلة المصور التي كان يعمل فيها رسالة من قارئ» مخترع» إسمه محمد أمين يهاجم فيها الرواية ويتهمها بالخوض في سيرة الأنبياء. الطريف أن الرسالة المخترعة كان بها عنوان المرسل في أحد شوارع مدينة صغيرة في

الدلتا هي بنها، وكعادة المؤلف واهتمامه بالتدقيق في مواضع عديدة، سافر إلى المدينة وسأل كبار السن في الشارع الذي ورد إسمه في رسالة القارئ المخترع وتأكد أنه لم يكن يقيم في هذا الشارع في أي وقت من الأوقات شخص بهذا الإسم!! وكل مافي الأمر أن صالح جودت أراد أن يكون سباقا في الهجوم على الرواية وعلى كاتبها بهذه الحيلة الرخيصة.

بعد تلك الأحداث بسنوات طويلة، كشف الشيخ محمد الغزالي أثناء حضوره إحدى أمسيات صالون إحسان عبد القدوس الثقافي، أنه اشترك مع الشيخين أحمد حسن الباقوري ومحمد أبوزهرة، في كتابة تقرير عن الرواية بناء على طلب جمال عبد الناصر. وأضاف أن التقرير كان ضد الرواية، واتهمها بالإساءة للدين والهجوم على الإسلام، ولكنه بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما ، زار محفوظ في المستشفى عقب تعرضه لمحاولة الاغتيال، وأعلن إدانته لمن قام بالمحاولة في عام ١٩٩٤ .

نعود إلى تسلسل الأحداث عقب نشر الرواية. بدا كأن الضجة التي صاحبت النشر قد هدأت، وإن ذلك الهدوء كان مؤقتا كما سيتضح بعد قليل . ويبدو من الوقائع المتناثرة أن الأزهريين ورجال الدين توقفوا عن إثارة الضجيج، بسبب عدم نشر الرواية في كتاب، وهو ما استطاع عبد الناصر انتزاعه وديا من محفوظ بواسطة ممثله الشخصي، بعد أن قرأ تقرير المشايخ الثلاثة.

الوثيقة

وفي عام ١٩٦٨ أصدر مجمع البحوث الإسلامية تقريرا ضد الرواية، ولم يزح الستار عنه إلا عام ١٩٩٣. في كتاب « ملف قضايا حرية الرأي والتعبير» للدكتور محمد حسام محمود لطفي الأستاذ بكلية الحقوق في جامعة القاهرة. وإذا كان محمد شعير مؤلف الكتاب لم يورد نص التقريرإلا أنه من المفيد نشره هنا كاملا –نقلا عن الكتاب السابق الإشارة له - لأهميته كوثيقة تكشف الموقف الحقيقي لمجمع البحوث الإسلامية.

١ - القصة تقع في خمسمائة واثنتين وخمسين صفحة من القطع الكبير، وهي من القصص الرمزية التي تتناول تاريخ البشرية ابتداء من آدم وماوقع له ولابنيه وبعثة الرسل موسى وعيسى ومحمد إلى وقتنا هذا، ومايظهر من جديد في التقدم العلمي.

٢ – وقد رمز الكاتب إلى كل حادثة مشهورة وشخصية معروفة، وأضفى عليها من التصوير ما يحدد معالمها ويدل عليها، وإن لم يكن في الإطار التاريخي لها، فرمز للإله بالجبلاوي، والجنة بحديقة القصر ، ولآدم «أدهم»، و«إبليس» إدريس، و«موسى» جبل و» عيسى» رفاعة و «محمد « قاسم.. إلى آخر الرموز التي استخدمها في تصوير الأحداث .

٣ – وقد أخطأ الكاتب في تناوله للإله والرسل.

وسردت الوثيقة بالتفصيل موضوع تناول الرواية للإله والرسل من زاوية نظر مجمع البحوث الاسلامية.

وانتهت الوثيقة الى التوصية بعدم نشر (القصة) الرواية مطبوعة أو مسموعة أو مرئية.

من أين جاءت أولاد حارتنا؟

أما الرواية ذاتها حسبما قال عنها محفوظ للناقد رجاء النقاش في كتابه» صفحات من مذكرات نجيب محفوظ" :

" كانت فرحتي غامرة عندما أمسكت بالقلم مرة أخرى، ولم أصدق نفسي عندما جلست أمام الورق مرة أخرى لأعاود الكتابة بعد توقف دام نحو سبع سنوات ، وكانت الأفكار المسيطرة عليّ في ذلك الوقت تميل نحو التصوف والفلسفة، فجاءت فكرة أولاد حارتنا، لتحيي داخلي الأديب الذي كنت قد ظننته قد مات، ولذلك لاحظ النقاد تغييرا في أسلوبي وهم يقارنون أولاد حارتنا بما سبق من أعمال.. بل هي أقرب إلى النظرة الكونية الإنسانية العامة. ومع ذلك فرواية أولاد حارتنا لاتخلو من خلفية اجتماعية واضحة، ولكن المشكلات التي صاحبتها والتفسيرات التي أعطيت لها جعلت كثيرين لايلتفتون لهذه الخلفيات، وفي تصورهم أنها تهاجم الإسلام بشكل خاص والأديان السماوية بوجه عام وهو اتهام غير موضوعي"

وهكذا تحولت رواية أقرب إلى « النظرة الكونية العامة» حسب تعبير محفوظ إلى قنبلة موقوتة طيلة العقود التالية، واستخدمت أسوأ استخدام من جانب الكثيرين ، سواء من المؤسسة الدينية الرسمية أو من خارجها. وهنا أيضا تتجسد مسألة تدخل الدولة، واعتبارها أن» توكيل الدين» بالمعنى التجاري شأن يخصها وحدها، وسوف تتدخل دائما من أجل الحفاظ على هذا «التوكيل» والاستئثار به . وإذا كانت الرواية لم تصادر رسميا ولم يصدر بشأنها حكم قضائي حتى الآن، فإن تدخل الدولة جرى هنا بشكل» ودي» حيث أرسل رئيس الدولة ممثله الشخصي للحصول على وعد من المؤلف بعدم النشر!!

وبسبب التوجهات العامة لثورة يوليو والتغيير الاجتماعي الذي انشغلت به فإن حالات المصادرة كانت قليلة، واتخذت الرقابة على الفكر والإبداع شكلا أكثر إحكاما. فالدولة سواء باسم الاتحاد الاشتراكي أوغيره من الأجهزة الرسمية أمست هي الناشر الأكبر، ومالكة الصحافة وكافة وسائل الإعلام المرئي والمسموع، مع وجود رقباء رسميين في دور الصحف المختلفة. وفي الوقت نفسه لعبت الأجهزة الأمنية المختلفة والمتعددة دورا ضخما سواء من المنبع بضرورة الحصول على موافقتها على

العمل في الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة، أو من خلال استصدار قرارات الإغلاق والمصادرة، كما جرى إبان الحملة على الشيوعيين عام ١٩٥٩ . ففي أول يناير، وفي اليوم نفسه الذي صدرت فيه قرارات الاعتقال، اصدر رئيس الجمهورية استنادا إلى حالة الطوارئ قرارا بإغلاق عشر دور نشر هي مكتب النشر والثقافة العمالية ودار الديمقراطية الجديدة ودار الفكر للنشر والمؤسسة القومية للنشر والتوزيع ومكتب الأعمال النقابية والنشر ومكتب الترجمة والنشر ومكتبة سمعان ومكتبة السلام ودار الفجر للنشر ، وفي اليوم نفسه أصدر الرقيب العام أمرا بمصادرة كل الكتب الموجودة في الدور السابق الإشارة إليها.

الصراع حول» توكيل الدين"

وبالرغم من أن القرارات السابقة كان مقصودا بها توجيه ضربة قاصمة ونهائية للشيوعيين سواء بالقبض عليهم أو بإغلاق مراكز نشاطهم في دور النشر الثقافية والعمالية، إلا أنه ينبغي الإشارة إلى أن ماجرى للشيوعيين كان جزءا من عملية شاملة للسيطرة الكاملة والنهائية على المجتمع، وإحكام القبضة عليه، في سياق التغيير الاجتماعي والسياسي الذي اضطلعت الثورة به، في ظل المفهوم الذي تبنته والقاضي بتولي الدولة لكل شئ نيابة عن الجماهير، فالدولة تعرف مصلحة الجماهير أكثر من الجماهير ذاتها!.

أما منع عرض مسرحية الفتى مهران لعبد الرحمن الشرقاوي، أو محاولة منع عرض فيلم شئ من الخوف إخراج حسين كمال، أو مصادرة ترجمة رواية مثل جوستين للورانس داريل، أو رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح، فكلها حالات قليلة ولاتشكل ظاهرة، لأن السيطرة جاءت من أعلى من المنبع.. فلا صحف خارج الاتحاد الاشتراكي ، ودور النشر الخاصة قليلة جدا ومسيطر عليها، وقبل كل هذا وبعده فإن مصر ظلت - ومازالت- محكومة بقانون الطوارئ منذ استيلاء الضباط الأحرار على السلطة باستثناء شهور قليلة!

وعندما تولى السادات في عام ١٩٧١ استهل عهده بالصراخ حول الديمقراطية والحرية واتهام العهد السابق عليه بالاستبداد والقمع، إلا أنه قام أيضا بالإفراج عن الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية. ومثلما تدخلت الدولة في عهد عبد الناصر لتمارس دورها كوكيل عن الجماهير، في إجراء التغييرات التي تراها هي صالحة، تدخلت أيضا في عهد السادات لتمارس الدور ذاته، إلا أن ذلك شمل محاولات عنيفة لسحب» توكيل الدين»من الدولة، لتستأثر به المؤسسة الدينية وحدها، وهي جزء من الدولة. وفي هذا السياق جرى توجيه اتهامات بالكفر والردة لمفكرين وكتاب كبار مثل

توفيق الخكيم ويوسف إدريس ونوال السعداوي وزكي نجيب محمود وغيرهم فضلا عن مصادرة أعمال عديدة مثل كتاب « فقه اللغة العربية» للويس عوض عام ١٩٨٠ بعد عرضه في المكتبات لأكثر من عام وبيع منه أكثر من ألف نسخة، تنفيذا لقرار لجنة من المشايخ شكّلّت على عجل .

وفي العام التالي طالب البرلمان بمصادرة كتاب « الفتوحات المكية»لمحيي الدين بن عربي وإحراق ألف ليلة وليلة، إلا أن القضاء رفض لحسن الحظ مطلب البرلمان, وفي عهد مبارك في عام ١٩٨٩قُدّم د. حامد أبو احمد الأستاذ بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر للجنة تأديب لترجمته رواية للكاتب البيروفي ماريو فارجاس يوسا، ونجح الأزهر في مصادرة خمسة كتب للمستشار سعيد العشماوي، والطبعة الثالثة من كتاب» قنابل ومصاحف» لعادل حمودة وغير ذلك..

والواقع أن الدور الذي يلعبه مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر يتجاوز حدوده دائما . وطبقا للقانون فإن دوره هو تنظيم طبع المصحف الشريف، غير أنه راح يتوسع حسب المناخ السائد وفي الوقت الذي كانت الدولة تسعى خلاله بكل قوتها لانتزاع توكيل الدين من الجماعات والتيارات الدينية. أما التعديل القانوني الأكثر حسما ووسّع إلى مالانهاية من دور المجمع، فقد جرى عام ١٩٩٤، عندما أفتت الجمعية العمومية لقسمي الفتوى والتشريع بمجلس الدولة بأن الأزهر هو صاحب الرأي النهائي فيما يتعلق بتحديد الشأن الإسلامي في المصنفات السمعية والبصرية.

وهكذا، وفيما يكاد يكون في غفلة من الزمان، تحولت سلطة الأزهر ممثلة في مجمع البحوث الإسلامية من تنظيم طباعة المصحف الشريف، وفي أقصى الأحوال كتابة تقارير استشارية في الكتب التي تختص بالعقيدة إلى رقابة شاملة. هذا إلى جانب الثغرة التي ينفذ منها المتطرفون في القانون، والتي تتيح لهم إقامة دعاوى الحسبة ضد من يتراءى لهم، ووفقا لهذه الدعوى صدر الحكم بارتداد د. نصر حامد أبو زيد وتطليقه من زوجته، مما أوقع الحكومة في حرج بالغ أمام الأجانب! واضطرت للسماح له بالهروب إلى هولندا هو وزوجته والعمل في جامعاتها. وهو مادفع الدولة لإصدار تعديل قانوني للحسبة، لم يلغها، بل نقل حق إقامة الدعوى من الأفراد إلى النيابة، أي أن الدولة أجرت التعديل لحسابها!

أما محاولة اغتيال نجيب محفوظ بسبب أولاد حارتنا فقد سبقتها أولا الوثيقة المشار إليها فيما سبق والصادرة من المشايخ الثلاثة، كما سبقتها فتوى أصدرها الشيخ عمر عبد الرحمن مفتي الجماعات الإسلامية بأن محفوظ مرتد. وهكذا وفي ذكرى حصول محفوظ على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ اقترب صبي جاهل لم يقرأ شيئا لمحفوظ، وطعن الشيخ الذي كان قد تجاوز الثمانين.

أظن أنها المرة الأولى التي يتعرض فيها كاتب للاغتيال بسبب عمل روائي ، وربما هي المرة الأولى التي

يقدم فيها صبي جاهل على قتل كاتب تنفيذا لفتوى دينية، وبسبب مناخ معاد لحرية التعبير، ومافعله الصبي الجاهل كات تعبيرا عن إيمانه بأنه مبعوث العناية الإلهية لتخليص البلاد من الكفر والكفار.

فقاعة غير مسؤولة

لم تنته فصول» أولاد حارتنا» بعد. ففي أعقاب حصول الإخوان المسلمين على نحو ثمانين مقعدا في انتخابات البرلمان التي جرت عام ٢٠٠٥ ، وفي عيد ميلاد محفوظ توجه عبد المنعم أبو الفتوح عضو مكتب إرشاد الإخوان لزيارة محفوظ وقدّم له قلما فاخرا هدية باسم الإخوان. وكان من أهم ماقاله أبو الفتوح لمحفوظ، مطالبته بنشر رواية أولاد حارتنا، بل واعترض على موقف محفوظ برفض النشر في الوقت الحالي . وأضاف في اللقاء الذي جمعه بمحفوظ وأصدقائه في عيد ميلاده:» نحن ضد صدور قرارات إدارية من أي جهة بما فيها الأزهربمصادرة قصص وروايات أو أي إبداع فني. وعلى من لايعجبه أي إبداع من أي جهة أن يكتب ضده أو يؤلف ضده. وأضاف أيضا:كان الإمام حسن البناعندما يزوره ضيف من خارج البلاد يصطحبه للذهاب إلى الأوبرا تكريما له» ولكن سرعان ماتراجع أبو الفتوح عما قاله بعد أن تعرض للضغط من جماعته، وتبين أن ماقاله كان فقاعة غير مسؤولة صدرت منه في لحظة طيش!!

وعدما عرض الأزهر على محفوظ أن يتقدم بالرواية من جديد للموافقة على نشرها، رفض بشدة مؤكدا أنه لن يكون السبب في تسجيل سا بقة موافقة الأزهر على نشر عمل أدبي ، واقترح بدلا من ذلك أن يكتب أحد المفكرين الإسلاميين مقدمة تنشر مع الرواية يشار فيها إلى أنها ليست ضد الإسلام، وحدد أسماء أحمد كمال أبو المجد أو خالد محمد خالد أوسليم العوا، وهو ماتحقق بالفعل بعد رحيله بعدة شهور.

بعيدا عن الشجاعة والجُبن

تلك هي الخطوط العريضة لحكاية « أولاد حارتنا التي ماتزال تشغلنا بعد كتابتها بستين عاما، وبعد رحيل كاتبها بأكثر من عقد من السنين. واللافت للنظر ليس الاهتمام غير المسبوق بكتاب محمد شعير، بل أيضا ذلك الهجوم الكاسح الذي تعرضت له د. سيزا قاسم الأستاذة الجامعية والتي قالت في حفل إطلاق الكتاب أن محفوظ كان «جبانا» في مواقفه.

والواقع أن الرواية المحرمة على حد وصف مؤلف الكتاب لم تكن هي الوحيدة التي تعرضت للهجوم. فعندما حمل روايته الأولى» عبث الأقدار» ١٩٣٩ إلى أستاذه في الفلسفة أثناء دراسته

الجامعية مصطفى عبد الرازق، هاجمه مشايخ الأزهر. ورفضت الرقابة روايته « رادوبيس» ١٩٤٣ . وأحيل للتحقيق بسبب روايته» القاهرة الجديدة» ١٩٤٥ . ورفض مجمع اللغة العربية روايته» السراب» ١٩٤٨عندما تقدم بها لنيل جائزة المجمع.

ومن بين الوقائع المؤكدة ان عبد الحكيم عامر وزير الحربية والرجل الثاني في البلاد أرسل له مرتين سيارة محملة بالجنود والضباط للقبض عليه . الأولى بعد أولاد حارتنا والثانية بعد « ثرثرة على النيل»، وفي المرتين أوقف جمال عبد الناصر بنفسه القبض على محفوظ.

من جانب آخر فإن محفوظ ليس قديسا لايأتيه الباطل، ومن واجبنا وحقنا أن نختلف معه. صحيح أن الرجل لم يكن يميل للصدام وربما لجأ إلى المراوغة في حواراته الصحافية. لكن الثابت مثلا أنه تعرض للفصل والمنع من الكتابةعام ١٩٧٢ عندما شارك توفيق الحكيم وغالي شكري واحمد عبد المعطي حجازي وأمل دنقل وغيرهم في التوقيع على بيان تم إرساله للسادات يطالب بالتوقف عن حالة اللاحرب واللاسلم مع إسرائيل.

لم يكن محفوظ قوميا ولاعروبيا وهذا حقه، شأنه شأن عدد من الكتاب والمفكرين مثل توفيق الحكيم وحسين فوزي وغيرهما،ومع ذلك فإن موقفه بتأييد معاهدة كامب ديفيد لم يكن ممالأة أونفاقا . وفي مؤتمر عقد عام ١٩٦٨ بعد الهزيمة عقده وزير الثقافة تحت عنوان حوار مفتوح للخروج من النكسة قال:

الطريق الوحيد للخروج من الأزمة هو العودة للديمقراطية والحواروإطلاق حرية تعدد الأحزاب والآراء، وأن نرضى بالحزب الذي يصل إلى السلطة عن طريق انتخابات حرة نزيهة حتى لوتفاوض مع إسرائيل.

وفي لقاء دعا إليه هيكل في الأهرام عام ١٩٧١ بعد رحيل ناصر مع معمر القذافي تساءل: هل في إمكاننا الحرب مع إسرائيل؟ فأجابه أحمد عباس صالح : ليس في وسعنا الحرب، فعلّق محفوظ إذا كنا لانستطيع أن نحارب فلابد أن نسلك طريق التفاوض.. وهكذا فإن مواقف محفوظ مهما كنا نعارضها ونقف ضدها إلا أنها لم تكن أبدا ممالأة أو نفاقا .

وأخيرا فإن أعماله الروائية هي التي يمكن أن نحاكمه على أساسها، فهو الكاتب الوحيد الذي تعرض للذبح حرفيا بسببها وكاد يدفع حياته ثمنا لها.

تلك هي قصة الكتاب الذي شغلنا وأثار هذه العاصفة من الدفاع عن الرجل الذي رحل عنا بعد أن أهدانا كل هذه الأعمال التي ستبقى إلى الأبد للأجيال القادمة من دون أي مبالغة .

السرد العربي وتَمثُّلات الحداثة
ـ حديث في الروح والمعنى والمنهج ـ

أحمد المديني

I

ليس أثقل على نفس كاتب من الرطانات النظرية، ولا أعلمُ موضوعا كثُر ويتواصل فيه الحِجاج، في تربته الأصلية(الغربية) واللِّجاج في المكان الذي استعير فيه ونُسِخ(العربي، عندنا) وكذا التنظير وقليل جدا من التحليل، مثل الموضوع الذي تجدد دمَه اليوم أكاديمية المملكة المغربية*؛ أعني الحداثة، مفردا، وجمعا، ومشتقاتها. لا يرجع هذا إلى أن حقل النظرية المفاهيمي، والتحليلي المرتبط به، ولا المقاربات المنهجية، التأريخية، وسواها من مقاربات، منتجة جاءت أو عقيمة، أو تبدّت ذات مردود محدود، ولكن، في زعمي، لأنها مبذولة، كما قال الجاحظ في سياق مختلف، وإن قريب من هذا، بأن المعاني: «مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي والحضري والبدوي والقروي والمدني..» . قريب منه ما قاله ستندال، وهو يبحث في تيمة، أو عاطفة الحب، إذ تساءل عن معنى معرفة الحب بواسطة الروايات ومئات المجلدات، من غير أن تكون قد شعرتَ به، إذ عمّ ستبحث فيه، عن هذا الجنون؟ يجيب ستندال، كرجع الصدى، أجل: «إنه لَلجنونُ» حقا. (De l'amour .Stendhal) هكذا، فإن ما يعنيني وأراه، من حيّزٍ أجده الأليق بي، وأجدر أن يحتوي جسدي وربما يرفع هامتي، هو النص، أرض الإبداع، خاصة بتربة خصبة، معطاء، حيث تكون الكتابة أو لا تكون، وبين هذين الحدين، والمرتبتين، يمكن أن تتحقق حداثتُها أو هراء. كل خطاب في الحداثة خارج النص جلُّه ضربٌ من التكرار المُسفّ، لاجترار معانٍ متوفرة في مظانها، لداعي التلقين كما في منابر الفقهاء، وفي أفضل حال يُحال عليها لاستقاء المعلومة، أو تفادي بعض أخطاء المنهج.

أكيد، فالموضوع ذو أهمية قصوى، وبشكل مُلحٍّ لبلدان تبحث عن مصير التقدم والنمو، وأفضل السبل لتسنّم ذُرى العصر الحديث عبر مدارجه الراقية، هنا حيث تتعدد المسالك وتتباين الطرق، وتُقترح عديدُ

برامج بدائل لتحقيق الانتقال المطلوب وكسب الرهان. بيد أن مطلب الحداثة ومستلزماتها وأشكال تحققها يُطرح في مجال الأدب والإبداع عموما بصيغة مختلفة، إذ هو شكل ومضمون، في آن، أداةٌ وصوغ، معا. ويحتاج إلى توسيع الآفاق، ولا يمكن إشباعه بالإجابات ذات النزعة الوثوقية، والتنظيرات بأقوالها السّنادية، ولا المواقف التاريخية، سواء مؤسسِة أو تبشيرية، ما دام الإبداع ذاته رسوليا ومنافيا في الجذر والمفهوم للتقليد، المؤسس بالنص، كما هي الأديان تُعرف شرائعها بكتبها.

وبالنسبة لمن نسميه المبدع تحديدا، وقبل الانتقال إلى صلب موضوعنا، يمكن تسجيل الملاحظات التالية عن الحداثة، مهادا، قد ترتبط بسياق محدد، أو تستقل اقتناعات لدي:

١ـ الحداثة، موقف يُفصح عن وعي على صعيدين، فكري، وجمالي، ليتمثّل المتغيرات في الواقع، ويعبّر عنها إبداعيا. وعيٌ قد يشتغل لاستشراف متغيرات في المستقبل، ويبشر بها، بمتغيرات جمالية بالأساس، تتشكل بالإبداع، وبنسيجه وأوصافه، بها مجتلى هيئته، ومحمول معناه، ومناط دلالاته، ما يجيء بعدها نصا أو قولا لاحقا على لسان أو بيان، نافلٌ ليس إلا. ٢ـ الحداثة لغةً، يمكن أن تؤخذ من حدث الأمر: حصل، وحدث الشيء جاء جديدا، عكس قدُم، وحدُث يحدث مصدره حداثة. والمعنى من هذا أننا أمام شيء طارئ، يخصُّ زمنية محددة. من هنا، فالحداثة، أيضا، رؤية مرحلية، أي تعبر عن مرحلة محددة. كما لا ينبغي أن نعتبر بأنها تتخذ موقفا سلبيا من الماضي الإبداعي، حتى وهي تأتي في كثير من تعبيراتها ودلالاتها على نقيضه، أو تبدو مضادة له، لأنها تأتي في سياق، بما يجعل منها مستقبل ذلك الماضي، تتمثله أولا، وتعبر عن الحاضر، ثانيا، فتكون محاولة للتعبير عن جوهر متغيراته التي تشكل إضافة من خلال الاستمرارية، لا القطيعة بالضرورة.

٣ ـ إن وعي الحداثة الذي يعبر عنه مبدعون موهوبون، وأعمالٌ إبداعية مهمة واستثنائية، هو الذي يحرر دعاوى الحداثة من موقفين سلبيين: الأول، يرى في الإنجاز الحداثي مجرد لعب شكلي. الثاني، يجمد الحداثة كموقف في وضع ثبات، لا ينفصل عن الماضي فقط، بل المستقبل، كذلك. لنضف لما سلف أن بعض مدعي الحداثة يقترفون انحرافا في التصور، خطلا في الرؤية، في كيفية الانضواء إلى هذا الأفق، عندما يحسبونها مجرد نيات، ويعدّون النيات من تمّ تؤهل لإنجاز إبداعي، دون التوفر على مقوماته، أداةً ووعياً، معا.

II

بعد هذه الاعتبارات، والاحترازات الأولية، أحدد عنوان موضوعي وتسميته الكاملة، أصلاً وفرعاً، ليظهر للقارئ، المستمع، ماذا أريد من هذه الورقة بقصد مباشر، بل وأبعدَ منه. ينضوي في عنوان كبير: السرد العربي وتمثلات الحداثة. عنوان لغاية إجرائية، ويحتاج إلى شرح لضبط مصطلحاته، أولا، وتمييز المعنى المراد منه في علاقته تخصيصا بموضوع هذه الندوة، ندوة من الحداثة إلى الحداثات، ثانيا. أنتقل بعده إلى العنوان الفرعي، الذي اخترت أن يكون لساني وهدْيي، ومحتوى خطابي، لنقْلِ أفكاري وتصوري.

اخترت أن يأتي حديثي(الحديث هنا بمعنى الخطاب Discours النسقي، المحدد بموضوع ومادة ومنهج) في محور تمثُّل وتمثيلات الحداثة، ومن ناحية ما أعتبره أقرب إلى اختصاصي الدراسي، نقديا، من جهة، وإبداعيا كتابيا، من جهة ثانية، فليس مثل السرد، الكتابة السردية، مثالا وأداةً لإبراز مرتكزات هذا المحور، وتشخيص تجلياته الناطقة باسمه. والقصد بطبيعة الحال بالسرد التخييلي ما يتصل بجنس القصة كما ظهر في الآداب الغربية، وصُبَّ في قوالبَ واتخذ عديدَ ألبسة فنية، هي جماع المدارس والتيارات التي تبلور فيها منذ ظهوره ثم بدء رسوخه إجناسيا في نهايات القرن الثامن عشر وصُعُدا في القرن التاسع عشر، فامتدادا. مع نتاج الأدب بصفة عامة، ومن خلال التجلي الإبداعي لهذا الجنس على الخصوص، وفعل تراكمه، يمكن التتبع القريب والمنظور لتاريخ الظواهر التحديثية الثقافية والاجتماعية والمدينية الكبرى، ووضع الرسم البياني للكيفية/ الكيفيات التي صاغت التعبيرات السردية في آداب أمم مختلفة، وعبر حقب متتالية. جاءت بمثابة مرآة عاكسة لتصورات وتيارات وموجات اقترحت فيها النُّخب الفكرية والمواهب الفنية، وبينهما بل وفي مقدمتها، قوى الإنتاج والتقدم والنمو. ما نضج لديها وأحست به يوافق زمنها، وينسجم مع تطلعاتها، ويلبي حاجة الإنسان لمزيد حرية وتفتح وتعبير عن ذاتيته العميقة، فضلا عن حاجاته الأولية والضرورية في العيش الكريم. بيد أن الإبداع، الفن، السرد التخييلي، الرواية في قلبه، شأن القصة القصيرة والدراما، يظهر وهو يتفوق على غيره من التعبيرات القولية والتشكيلية والدرامية بتوفر طاقة الخيال، وتشغيلها بتوليد الصور وتركيب الاستعارات، ونقل الواقع خاصة من مستوى الجاهز والمُعطى، المحسوم بوضع مكتمل ويقين سلطة الأمر الواقع، إلى صعيد الممكن، والمحتمل، أي القدرة على أن يتجاوز الإنسان وضعَه، ويرى نفسه، في هيئتي الخارج والداخل، أو هما معا في آن واحد، من رؤية للكاتب تحوّله خلاقا ومخترقا لحدود وقيود واقعه، ومن ثم فإن هذا السرد هو خرق دائم لمنطق الواقعيات. نعتبر عند القراءة والمقارنة أن تجربة السرد العربي التخييلي، التي تربت في جزء كبير منها على سابقتها الغربية الرائدة قد احتفت إلى حد بعيد بهذا الخرق، وعكست وجوها لانتقال المجتمع العربي إلى أطوار التحديث، بقدر ما حضنت أحلام كُتابه بنزوعاتهم الحرة. بهاتين المقدرتين فإنها تجربة تجتمع فيها علامات وممكنات التمثل والتمثيل لحداثة ممكنة.

ليس طموح الحديث، ولا في مزعمه كما ألمحت لذلك، إحاطة تعريفية، تنظيرية، أو تأريخية، أحرى أن تبسط وجوه التمثل والتمثيل للتجربة، بأن تعمد مُفصِّلةً السماتِ والخصائصَ، ذاك أن نهجا كهذا سيخرج بها عن قصدها، عن ما يريده لها صاحبها، يقول الكاتبَ قبل كل شيء. وهو ما لا يمنع في الوقت نفسه من رصد بعض العلامات في طريق أحب أن تقودني إلى التجربة الشخصية، لكل من غامر في هذا الدرب، مذ جدنا البعيد أبي نواس الذي تركَ الشقيَّ يعوجُ على رسم يُسائله، بينما عاج هو يسأل «عن خمارة البلد»، قد فضل البكاء على تلك(خمرته) رافضا البكاء «على منزلة كانت بها هند وأسماء». فكان مع بشار وابن

الرومي من أوائل من رفعوا ألوية الرفض والخرق لما وُضع حاجزا بسلطة الشريعة أو العقيدة أو القداسة أو باسم التقليد المتوارث (المقدمة الطللية)، يرافقهم أبو تمام يخلخل بناء الخيال التقليدي ويطلق(حرب عصابات) الاستعارات والمجاز. وهؤلاء كانوا أبطالا حقا، رغم أن لهم أجدادا عظاما كبيرهم أمرؤ القيس، عاف البكاء، تركه لصاحبه لما رأى الدرب دونه، بل نهره: « لا تبك عينك إنما / نحاول ملكا أو نموت فنُعذَرا»، قبل أبي نواس بقرون، حين لا مانع ولا ممنوع، تبجّح بشرابه، وطار بخياله في بحبوحة حرية قُيِّدت بعده:» ونشرب حتى نحسَب الخيلَ حولنا / نِقاداً وحتى نحسَبَ الجَوْنَ أشقرا».

فإن كان هذا حال الشعر، فإن النثر ظل مهيضَ الجناح، مشدوداً بأكثر من وثاق، أقلُّه، لا أوثقُه، أمتنُه، القرآنُ، المعجزُ بالبيان، الكتابُ الذي يتحدى جميع الخلائق بإعجازه:» قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» (الإسراء- الاية٨٨). لا بل ولا حتى «بسورة من مثله». والمثل، مقام التحدي شامل، بلا حدود، إذ الإعجاز، كما ذكر الطبري وآخرون، يشمل البلاغةَ وحسنَ النَّظم والإخبار عن المُغيَّبات، وغيره، لا ريب منها الخيال، حتى وهو غير مذكور، لأنه منكَرٌ بصفة الغواية والهيام التي يوصم بها الشعراء:» يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون»(الشعراء) أي الكذب، هو من جنس الخيال الذي هو نقيض الحقيقة وجنوح عن الواقع ومنطق الصواب، لا عجب جعل البحتري أعذب الشعر أكذبه. لا يغير تبرير المفسرين أن المقصود هم الشعراء الذين تعرضوا للرسول بالهجاء والقذع، ولا الشياطين، والمشركين، قد اتّفق إجماعا أن الغواية لا تخصّ بعضا دون بعض.

خلا التنميق وتكلُّفَ الصنعة اللفظية والأسجاع، المدانة أصلا (سجع الكهان، في الجاهلية،، المتهمون بأن الجن وسطاءهم في تلقي الغيب)، لم يتسع صدر النثر العربي للسفر بأجنحة الخيال. والأساطير جمع أسطورة مما خلد عبقرية اليونان لا تعدو في العربية ان تكون بمعنى الأباطيل:» وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين»(سورة النحل) أو ترِد كذلك بمعنى الزخرف:» قال الليث:» يقال سطر فلان على فلان، إذا زخرف له في الأقاويل ونمّقها»(ابن منظور، لسان العرب، تحقيق دار المعارف، مج ٣(من ذ إلى س،ص٢٠٠٧.). ولن نحتاج إلى الإسهاب في ما لقيه كتاب ألف ليلة وليلة من إنكار ولا رواته من عنَت، بين قديم، ووصولا حتى إلى ماض قريب جدا، بالمنع في مصر، وإصدار نسخة محذوفة، وصولا إلى حد اعتباره من كتب الخلاعة والزندقة، رُفعت ضده دعوى قضائية طالب فيها محامون مصريون بسحبه من الأسواق، وتنقيته، هكذا، من الألفاظ» الخليعة» وعدِّه ضارا بالأخلاق لما يحتوي عليه من» عبارات جنسية فاحشة»، هل أزيدكم فأقول إنه ممنوع في عديد بلدان عربية، ولولا مثابرة الروائي المجدد جمال الغيطاني، لوقع له محذور مهول.

بُغيتي القول، وأدرك أني أختزل بتعسف، ولا تعدمني عشرات الشواهد، بأن الخيال اضطُهد في ثقافتنا

العربية الإسلامية إلى حدود قصوى، لا تسل عن الفكر الحر والمفكرين من معتنقيه. لأن الخيال، ببساطة، صِنو الحرية، نظير الخَلق، وإذا كان من السهل في الفرنسية أن تسمي المبدع أو تنعته بصفة:«Le créateur» فإنك ستدير لسانك عشر مرات في فمك قبل أن تسمي مبدعا عربيا أو مسلما: «الخلاّق»، فالمخصوص بها من دون العالمين خالق السماوات والأرض. الخيال، هو المنافس الوحيد لهذه القدرة، وإن وُهب، امتلكه الكائن، أتراه يمسي شريكا في الخلق؟. بماذا؟ بإطلاق الصور؛ فأي تجديف هذا، بل الشرك بعينه؟!. يعطي القاموس للخيال من المعاني الآتي: الشخص،[فهو يشخص، إذنٍ] الطيف[يرتبط بما يراه الشخص في النوم أو الخيال، ومنه الجنون، أيضا، وإذن، هو خارج الواقع]؛ ما تشبّه لك في اليقظة والمنام من صورة؛ من نسج الخيال: وهمٌ مختلق من أساسه، وفي «الصِّحاح» التخييل الوهم. وفي الفرنسية، والإنجليزية، تقدم لنا القواميس جملة تعريفاتٍ تلتقي جلها في مقدرة إعداد الصور وابتكارها وفي وضع تصورات جديدة. وعليه، فهي مقدرة أن توجِدَ كائنا مفترضا، شيئا من بنات خيالك. أجل، قد تصنع مادته الخام من عناصر الحياة، ومصادر الواقع، ثم إذا بك إما ترسمُه، تنحتُه، تشخِّصُه، تطلقه يرقص، يمرح، يبكي، يحب، يقتل، يحيا ويموت، بقدرة ممكنك أنت. ولم يتأتّ لأحد، بالأحرى لم يُسمح في ثقافتنا بإطلاق هذه الإرادة، لا تصوير، لا نحت، لا أسطورة، وأي حكاية لا بد تسبقها العوذلة، وتختتم كأي حديث مخافة سوء العاقبة، بالله أعلم. لنستحضر كم هو طويلٌ، مريرٌ، تاريخ الكبح والخنق لصوت الخيال وقصِّ أجنحته، حتى إذا التمسنا طريق المدنية الغربية، وانتقلنا إلى المواجهة والتأثر والمثاقفة مع معارفها وإبداعاتها، تعرفنا من آدابها على ما حرك فينا سواكنَ الحكي وكوامنَه، هكذا- بكثير اختصار- دخل أدبُنا العربي مجالَ سرد التخييل، أي صناعة الخيال وفنه، هي إحدى مغامراته لبناء مشروع التحديث ومنه إلى الحداثات.

III

اقتحم أدبنا هذا الأفقَ الجديد، المختلف بنيةً وهيكلاً وتصوراً، وإذ تجاوب مع روح خافقة. دخله مشرقا ومغربا، ويعنيني أن أقتطع لي/ لنا نصيبا من هذا الأفق، نحن المغاربة، أجدر بنا أن نتحدث عن أنفسنا، بعد أن أهملنا الآخرون طويلا، أو نابوا عنا فصبّونا في قوالبهم. حديثٌ ذو منزع شخصي، لمسار ذاتي، لكنه وُجد وترعرع وتبلور ضمن مشروع جماعي، أي تاريخ ثقافةٍ وإبداع ما انفكّا يخطوان على طريق الانعتاق من نير التقليد والانضواء في في خط التجديد، منه كتابة القصة، بهيئتها ومقتضيات بنائها ونسجها وحيواتها، كما حفلت بها النماذج الغربية، وهيكلتْها، وصممت نماذجَها الأم، ثم استنسختها بعدها الأقلام المشرقية اقتباسا، وتقليدا، ومحاكاةً، فمحاولةَ إنشاء أصلية منبثقة من واقع محلي وعوالمَ وأحداث ذات سمات وعلامات مائزة لها، صيغت كلُّها بواسطة مخيلة خصوصية، لم يكن ذلك سهلا أبدا. في ركاب هذا السعي سرنا نحن المغاربة الذين بقينا ردحا من الزمن ممنوعين من حق الحكي، أيًّا كان مصدره ونوعه، وإلا انظروا معي فتوى للسلطان محمد بن عبد الله أمرُه الموجه إلى الخطباء

في المساجد بمنع الخوض في القصص، لأنها مجلبة للمفسدة، ومن قبيله، ولا كانت من بضاعة العلماء، وأقرب إلى مجالس العامة والسفهاء. وانظروا معي إلى أن مقرراتنا المدرسية في المغرب دائما، ونحن على عتبة الاستقلال وبعدة بسنوات، خلت فيها النصوص المقررة في الكتب المدرسية، العربية من أي قصة ـ اللهم ما قرره لنا الفرنسيون في كتابهم عن Ali et Fatima، رسموا فيها صورة المغربي حسب مخيالهم الخاص، وهو مفهوم طبعا. ، فإن بحثنا عن شعاع فرح، أو اصطدنا خفية نجما من سماء نومنا، تصدى لنا الأهل بأشباح الجن وعيشة قنديشة. كنا نقرأ القرآن، نتلوه، نحفظُه ونستظهرُه على الغيب، أو هي الفلقة، يحتوي كما تعلمون على» أحسن القصص»، ولم يكن من حقنا أن نسأل عنها وماهي، ولكنه مكرنُا وشقاوةُ طفولتنا، وحسُّ الشعب والشغب، معا، فينا كان يحرضنا للبحث عن غيرها، كما أنها لا تكفينا ولا تلبي حاجتنا إلى التسلية، المتعة، اللعب، الخيال، هنا مضمار القصّ.

إنما لن أظلم تاريخنا، وسأفتئت على روادنا لو اكتفيت بهذا، وحجبتُ رِفدهم أو استهنت بدورهم، ما أقدره، ولن يأتي مني هذا الجحود . ففيما كان الأدب مغمورا، غير معترف به في أوساط العلم والمحافل التعليمية التقليدية، أو مقتصرا على التهذيب محصورا في وظيفة العظة والتبشير، ما وقف عليه بتفصيل واستدلال العلامة الراحل سيدي عبد الله كنون، انتبه رجالٌ يقِظون، هم رواد من رواد تجديد الأدب والمعرفة عامة، تقرأ في منتصف الثلاثينات سعيد حجّي يقول إن الأدب هو:» الميدان الذي تتجلى فيه العاطفة بكل ما تزخر به من انفعالات وإحساسات» وحقيقته هي:» أن نصوره معبِّرا عن هذه الإحساسات الباطنة» بينما مراميه، أنه:» يسعى في تصوير الحياة من طريق التعبير عن جزئياتها ووصف مظاهر الوسط وأحوال المجتمع» و:» أن يعبر عن كثير من الإحساسات التي تضطرم في أحشائنا وتختلج في نفوسنا وتثور بها عواطفنا». زد على هذا أن» الأدب يُكوِّن منا أفرادا لتذوُّق الجمال بواسطة شعور سام نتلمّسُه في صميم أحشائنا». ورُبَّ سائل بأي طريقة وأداة يمكن للأدب إنجاز هذه الوظيفة؟ حِجي واعٍ بسؤاله والجواب معا، يعطيكه بواسطة الصورة، إذ: «الصورة هي الوصف للوصف والتعبير للتعبير. الوصف لما يشاهده الأدب من مظاهر الحياة فترتسم على صفحات قلبه، والتعبير عن هذه الإحساسات..». ثمة شرط لا محيد عنه لعمل هذه الأدوات. أن تكون:» ذا حظ من النفس الحسّاسة وذا شاعرية تتيح لك أن تعبر فتجيد التعبير وتصف فتبدع الوصف».(فجر الصحافة الوطنية المغربية، ط ٢٠٠٣). كل شيء اجتمع هنا: العاطفة +الإحساس+ الصورة+ الوصف+ التعبير+ الإجادة. لم يكن ينقص إلا مفتاح واحد لولوج غرفة القصّ السحرية، المحرّمة، فذا ما يمنحه لنا حجي بيُسر في مقام آخر بقوله وهو يُسمِّي صاحب الوظيفة بأن: «الروائي مثلا شخص يجمع في نفسه وإنتاجه بين روعة الخيال الفني وجزالة الأسلوب الأدبي وأراء العلم..». وهذا دليل على سعة اطلاع في زمانه، وبداية ظهور محيط أدبي يحفل بالقص، وينشغل بكتابته. وبالفعل فإن ما أنجزت من دراسات أكاديمية للكتابة السردية بالمغرب، ولحركة التحديث الأدبي والثقافي

عموما، تعود بنا إلى هذه الفترة التي شهدت ولادة المحاولات الأولى في فن القصة القصيرة على يد روادها الأجلاء رحمة الله عليهم جميعا سلفنا الصالح عبد الرحمن الفاسي، ومحمد بن عبد العزيز بن عبد الله، وعبد الله إبراهيم، وعبد المجيد بن جلون، وليتجلى منهم في أول سيرة ذاتية مغربية فنية وروائية بإجماع الدارسين، التهامي الوزاني صاحب «الزاوية»، وليتفنّن بعده عبد المجيد بن جلون في سيرته الناضجة وعيا وأدبا:» في الطفولة» بموازاة مع» قصص في المغرب»، باقة مخيلة محمد عبد السلام البقالي، عقب منتصف خمسينات القرن الماضي، وكنا ننشد عهدا جديدا في الميادين كافة.

رغم أهمية هذا التعبير في حد ذاته، ووسائطِه غير المسبوقة في السجل اللغوي والأسلوبي والدلالي لأدب أمة بعينها، فإن ما يحتاج إلى توصيف أقوى هو وضعه في سياقه الصحيح وربطه بمجمل المقدمات والعوامل المولدة له، والتي أفسحت له الطريق لاحقا وبعديا إثرها. ومن دون استدعاء تفاصيل ليس المقام للتذكير بها، فإن القضية المركزية التي اتصل بها انفساح خطاب المخيلة، في ارتباط مع انبجاس صوت العاطفة ، ونبرة الذات، اللتين أفضيتا إلى التنامي والاستتباب التدريجي، المحتشم دائما، لتعبيرات السرد التخييلي بين قصّ قصير ورواية وترجمة ذاتية؛ هي قضية التحديث بمسارها ومسلسلها كما كان المغرب قد أصبح واقعا في» كماشتها» لا خيار له فيها ولا معها، تمثل من باب المفارقة الشيء وضده، المستعمر وجهُها الفظّ لاشك، وفي الآن سعت النُّخب الوطنية، بتعدّد مشاربها، وتنوع اختياراتها الإيديولوجية، منذ مطالع القرن إلى الأخذ بأسبابها، والنَّهل من منابعها من أجل رفع الغمة عن أحوال الأمة. امتد المسعى إلى أوضاع السياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم والصحة وجميع الحاجات الحيوية، بمهمة تحمل إسم الإصلاح عند قومٍ لإقامة الدولة الوطنية، والتغيير، عند نفر ليوهب الاستقلال معناه الحقيقي، والتحرر بل الثورة عند طرف ثالث لتقديم أجوبة جذرية لمغرب جديد(كذا)، والكل يقف تحت مظلة التحديث أو ينأى عنها يُفضل فيءَ شجرة التقليد والمحافظة اتِّقاءَ صهد تحولات يراها زاحفة لا مناص. هكذا، يكون الأدب، والكتابة السردية ذات المنزع الأجناسي التخييلي، إحدى تعبيرات امتلاك هذا التحديث المنشود، والانخراط فيه، باكتساب منافعه واستلهام واستمداد مصادره المحفزة على الإبداع، الخلاّقة لشروط وأوضاع الحرية وتفتّح الكيانات الجماعية والفردية على السواء. حرية الكيان الفردي هي مهمازُ هذه الكتابة المستعارة شكلا وبناءً وقد تزوجت الخيالَ هو لها الجناحُ وسماءُ التحليق، أولم يذهب الغرب إلى التحديث ويرسخَ فيه باسم وأداة اللبرالية، ونحن، من جانبنا اعتنقناه خطا وخُطة عمل وروح مرحلة لكي نتخلص من قمع مزمن بلا حدود، وقد رفضنا المضمون الإيديولوجي للاستعمار في كتاباتنا، واجهناه بقدر الإمكان، اعتبرنا وسوّغنا استمرار لغته وحتى ثقافته، عند بعض كثير، بأنها، والعُهدة على كاتب ياسين، بأنها:» غنيمة حرب» سمحت بالتفكير في الديموقراطية، لم ينتبه أن فئات بالمرصاد لاستخدام هذه اللغة لجني غنيمة أكبر تجدد شباب الاستعمار، تعيد غرس الهيمنة واستعباد الشعوب، وقد كان لا بد من تدبير هذه الأزمة والإشكالية وتضارب المصالح،

باستخدام الحق في ديموقراطية الخيال، خاصة والاستقلال سرعان ما خيّبَ الآمالَ، لم يعد متاحا مع « مجده» بعد الزنازن، سوى كُوى التخييل من أجل الحق في الحياة.

IV

هل كان فرسُ الخيال قد جمَح، حقا؟ هل امتلك الكاتب في المغرب، وفي المشرق، أيضا، حقَّ وزمامَ التعبير بواسطةِ ومن فَمِ وبلُغةِ التخييل؟ وأيُّ معنى ينبغي إعطاؤه لهذا الامتلاك في سياق النهج الحداثي؟ هي أسئلة ومن قبيلها تحتاج إلى توضيح، رغم دعوتنا في بداية هذه الورقة لتجنب الرطانات النظرية، لا مناص منها أحيانا، وأرجحُ مما سبق أن نتساءل عن إمكانية تحديدٍ مفهومِيٍّ لمسألة الحداثة في الثقافة والآداب العربية، وتدرُّج أو تراتُبية معانيها في الحِقب التي مرت بها، وهو ما يرتبط أكثر بتتبع لتاريخ الأفكار والشروع في تنضيد أنساق، كي لا يستمر إستعمال المصطلحات وإرسالها على العواهن. في هذا السبيل، ينبغي تنسيب استخدام مصطلح حداثة، وتكييف معناه، بتبيئته، ما يجعل استخدام مصطلح التحديث أكثر ملاءمة لكل ما انخرطنا فيه من إصلاح وتجديد. هو بميدان الأدب ألصق، وله أليق. ما يحتاج إلى توضيح سريع خاص، لنفهم ضرورة الملاءمة، وبالضبط في اشتغال الكاتب المغربي على صيغة التخييل ومحدودية فهمه لها.

فهمنا تحديث الأدب في المغرب، النثر منه هنا، بتطويره ليخرج في القالب القصصي الحديث، قصةً قصيرة ورواية، بنتيجة التأثر والتقليد، والتعلم التدريجي. ولكن روادنا في هذا المذهب لم يجرؤوا على الانفصال عن الوقائع الحَرْفية لعيشهم، ولا استوعبوا أن القصة هي انتقال من صعيد واقع خام، مُعطى، إلى آخرَ محتمل، وبشخصياتٍ وأحداث ممكنةِ الوقوع، ويسهم الخيال بقدر وافر في صُنعها، في المنطقة التي رتع فيها التخييلFiction. تمسكوا طويلا بخط سطحي ونقدي وتحريضي للواقعية، استمرارا للوضع الذي كان عليه الفقيه وانسجاما مع هيئة الداعية والمصلح في المؤسسة الإيديولوجية والفكرية والخلقية (الإيتيكية) للحركة الوطنية. هم بالأحرى، ألزموا والتزموا به، وإلا ما سمع لهم أحد، ولا نشروا كلمة، ولا عُدُّوا أصلا كتابا. إن هيمنة المؤسَّسِي على الأدب المغربي، في مُنتوجه بالعربية بوجه خاص تواصل إلى الثمانينات، ومعه تأبّد تقريبا مفهوم فجّ وإكراهي للالتزام، لا صلة له بالالتزام السارتري، الوجودي. بل إن كتابنا بالقلم الفرنسي أنفسهم لم ينجوا من هذا العسف على النص الأدبي، التخييلي زعما، ومن انزاح عنه تعرض لمحاكمة شبه ستالينية (إدريس الشرايبي، مثلا) ولنبذٍ وقدح باسم العجائبية (أحمد الصفريوي، أيضا).

بيد أن تحديث أدبنا لم يملك ترف الانغماس في الإحساس والمشاعر الفردية الخالصة، لم تكن بيئتها وثقافتها موجودة أصلا، في مجتمع موسوم بهيمنة ورؤية عالم جماعية فوقية. واعتبر أدباؤنا أن ارتباطهم بهموم شعبهم، بالفئات المقهورة، ورصد أحزان ومصاعب أبناء الحواضر والمدن المستحدثة، وانكشاف الغطاء عن كثير من الأوهام وأوضاع الحرمان هو ما شغل حبكات ومضامين كتابة سرد الاستقلال وما تلاه، ومثّل لحظة التحديث،

الذي ليس تطويرا جماليا بالضرورة، وكأن الحداثة حذلقةٌ وزينة، وكأنها مُنبتّة في أصولها عن سياقات سوسيو-ثقافية وحضارية، بقدر ما تُجلي لحظة وعي نقدي لقهر سياسي واجتماعي، استمرارا للمهمة الإصلاحية والتنويرية للمثقف السلفي والوطني، في الحقبة الاستعمارية فتباعا، أيضا. لذلك، فإن الأدباءَ المغاربة، المستنيرين منهم عينا، ألفَوْا أنفسَهم مدعوين، إن أحبوا الانتماء حقا لزمنهم ـ إذ ظل فيهم محسوبون على الماضي، مدبوغون بثقافته وقيَمه ـ أن يُنجزوا معادلةَ التركيب بين الوعي النقدي والتحول الفني، وهو ما يقدم نموذج تحديث من طراز مختلف، أي ليس مستنسخا للنموذج الغربي، أبي الحداثة العصرية، لا يؤمن ويقبل بعضاً إلا به، فارضا مثاله على جميع الثقافات، أو إن أذياله، المجرورين في ركابها هم من يفعلون. وإذ يبدو هذا الفهم نظرة بّعدية، فإنه النسق الذي يمكن أن نصنعه اليوم لتفكير ونص مرحلة. وهو ما ينسحب كذلك على مجموع مكونات الثقافة الوطنية، لما هي واحدة، ولا متجانسة، أو تختزل في هوية مفردة، ساكنة. أجل، لقد استوجب تحديثنا حرقَ المراحل، ومُزِجت فيه محاليل شتى، غربا ومشرقا وموطنا، ولم يكن أمام الكاتب المغربي، الناثر خاصة، إلا موهبتُه ومثابرتُه الشخصية تَكَأْةً في محيط تعليمي يدُ التقليد فيه هي العليا، ونحن مثلا الذين ولجنا كلية الآداب في منتصف الستينات، لم نتلق في مدرجاتها سوى نُتف من الأدب الحديث، على يد أساتذة كانوا بعدُ زغب الحواصل، في طور تحصيل التعليم، ونحن لهم بالرغم لجهدهم ممتنون. في نهاية الستينات كانت شرارة انتعاش وتحول العلوم الإنسانية تلتهب في فرنسا اللسانيات، والسيميائيات، والعلوم الاجتماعية، وفلسفة الحداثة، والجامعة تضع الخطوة الأولى في طريق ما بعد الحداثة، وهذا بعد انتفاضة ٦٨ قادها من هم اليوم مكتهلون، نخبويون ومستقرون ماديا وكانوا أمس يساريين يلقبون إعلاميا وشعبيا» Les Bobos»، بينما نحن المساكين نتهجّى قواعد السرد والنقد ولا نفقه شيئا في الحداثة، قبل أن نغرق في ترجمات رديئة تدخلنا في خضمها، لنطفو فوقها شيئا، فشيئا، ونمسك بزمام الحداثة نظريا فقط، لنبقى تقليديين حتى النخاع في يومِيِّنا، نتعايش مع صيغة سحرية ملفقة، من بنات أفكار القوى المهيمنة: الأصالة والمعاصرة!

أما الخيال، فهو ما لا نتعلمه، لا في المدارس ولا الجامعات، هو من البشر، أجل، وليس في مقدور سائر البشر في آن. بالإمكان طبعا تلقين قواعد القصة، بوحداتها الثلاث، وطرائق رسم الشخصية ووصف الحدث والمكان، ومثله، درَج على هذا نَفَرٌ من كتاب تقليديين، أي ملتصقين بالعين حرفا، ما تجاوزوا سطح الواقع، ولن تجد من ينفخ في صدرك روحَ الكشف وضبط اللحظة الهاربة والفكرة الشاردة، وخصوصا نقل الحياة المنسابة رتابةً وبداهةً إلى مجتلى تخييل، نابذٍ للنقل، قائمٍ على مبدأ العقل ومُنجز بفاعلية التحويل، هنا حيث يغدو مقبولا ومناسبا الحديث عن طور دخلت فيه الكتابة السردية، العربية، والمغربية منها، إلى أفق حداثة ممكنة، أي أنها سعت للتحقق بأداتين لا غنى عنهما: أولهما، وشرطهما، اعتبار التخييل، أي القصة، علما حقيقا وآخر معا، بديلا مصنوعا من اللغة والصور والرؤى؛ أما الثاني فهي أداة التجريب، الإرادة الفنية لاقتحام مجهول الكلام والمتخيل، إتيانا ببديل للسائد.

V

أصل أخيرا إلى منطقة الخطر التي تخصني، ومنها انطلقت، وتبعني رهط من الضالين. بدأ هذا في مستهل السبعينات، لا أدعي، فتاريخ الأدب أصبح شاهدا على قولي، إذ اعتبر مجموعتي القصصية: «العنف في الدماغ» (منشورات أطلنط، الدار البيضاء،١٩٧١) فاتحة قلب ورعب، فوهةٌ بركانُها رأسُ وجوفُ صاحبها، فيما عمقُه كامن في تضاريس حركة أدبية طليعية» أنفاس» تبنت الكِتاب، وسخونة زمن كنا ندفعه بسواعدنا وهجير عمرنا ووحشية أحلامنا ونطلب منه، صنيع جدي أبي الطيب المتنبي، قبل أن يعاقَب على جرأته بالقتل؛ نطلب منه أن يبلِّغنا ما ليس يبلغه من نفسه الزمن». بهذه المجموعة يؤرَّخ بدءُ التجريب القصصي في أدبنا المغربي، ودعامة راسخة لنظيره المشرقي، أيضا، وافتتاح حركة كتابة أدبية شغلت بهوس الكتابة/ النص، وتنظيم «انقلابات» للإطاحة بالاستقرار اللغوي للمدونات الأدبية وأساليبها المنسجمة، ولتلغيم معانيها المتصالحة، وتثوير رؤاها البائسة، أو الواصفة في أحسن حال. في وقت كان فيه عتاةٌ متنفذون ومسلحون بنياشين رفيعة، ينظمون انقلابات حقيقية على أرض الواقع للاستئثار بالسلطة وتنفيذ خطط مجهولة لمصير بلد وشعب كاملين؛ فأي وهم يقترفه الأدباء؟!

ثم رويدا، رويدا سينطفئ اللهب الخارجي، لكي» تزند النار». هكذا حدث لي، فوق النار تسلسلت قصصي ورواياتي جامحةً، صارخةً، بينما كنا في أتون زمن يفتك بأبنائه، وتتدافع نُخبهُ المبتلاةُ، تحديدا، تتقلب بين جمر مطامح البحث عن غد أفضل، وقضبان زنازن صادروا هذا المستقبل، وإذ كنت إلى جوار هؤلاء وقضيّتهم، فإني أيضا انتبذت لي ركنا قصيّا أبحث عن يوم أفضل لنص أحسست أني منذور لكتابته، مختلف، شبه منبتّ الصلة عن ما ينشر في محيطه الأدبي، وإذ أغامر بنشره يلقى الاستهجانَ بمعنى عدم الفهم، فصَدُّ الأدب الجديد ضربٌ من الصدود عن حرية الرأي والاختلاف كذلك، وما تدبير الديموقراطية يسيرٌ في الواقع كما هو مبذول في الكتب، ما زاد من سعير رفضي وغضبي، هو بمثابة عصيان عن سلطة أشباه آباء، القصة، ويحكم، عندهم هكذا، والرواية والشعر هكذا، الحدود معروفة، وقواعد الفنون الأجناس موصوفة، من سار على هديها سلِم منا وآمناه، ومن عصى نبذناه، والجلوسُ، خارج الضوء واعتراف العشيرة، وهي عصبة سياسية ثقافية في آن، مثواه، ما زادني إمعانا في العصيان، بأن وضعت مدخلا لمجموعتي المنوه بها» العنف في الدماغ» أسميته» مانفستو» كأني أؤسس دولة بإيديولوجية ثورية، انقلابية، طبعا، مودةُ ذلك الزمن. من يومها بدأ مشروع الكاتب الضال، في بحر يتسمّى اليوم رطانة حداثة، هي عين الضلال، وكنت القبطان الشاب سيصارع الحوت وما يزال.

لست ولم أكن هرمان ميلفيل طبعا، ولا بِضت(موبي ديك ـ ١٨٥٠) ومع هذا صارعت، صارعنا دلافين كثيرة، وتعلمنا وسفين العمر يبحر في الكتابة، وما كنا نعيشه زمن النضال، سفين يمخر بنا في خضمّ بحار تلاطمت في أمواجها أجسادُ وآمالُ جيل عنيد، وسُحقت إراداتٌ وهمم، وسماءٌ رصاصيةٌ فوقنا تمطر بالنَّكَد،

علت أصواتٌ تشجُب حكمَ القهر والأبد، أُطلِق كم نفير. تعلمنا أن نتحايل على أبجدية الرمز ونزوِّر الكلام في دار سكة العبارة، وهكذا أطلقنا أسرابا من القطا واليمام نعيقا قويا ملفوفا في نبرات الأغاريد، انتظار الزلازل هو عيدنا الوطني، ومهرجان الكتابة عويل وزغاريد، حين تزلزل النصوص زلزالها، وتخرج الكلمات أثقالها، وقال الإنسان ما لها، يومئذ حدّثت بما حملت أهوالها، هي قصصي ورواياتي حلقت بأجنحة الاستعارات، عافت الآهات، وضجرت من التصاوير الحرفية المستعادة، ولم تنطق إلا بالصور والمجازات. أقوى النصوص وأجملها، وأعمقها تكتب وتوجد في أزمنة الظلمات، فتُشحن بطاقة الخيال ولا تكاد تمسكها القبضة الفولاذية، تراوغ بتنكّب الطريق المستقيم مناط الكلم السليم، والتركيب المنظم، القويم، والخيال الراكد، السقيم. هنا حيث يسهل رصد القول المنفّر والمعنى الناشز، وتنزل إلى الدهاليز والمغارات، تستنبت أغرب الكلم والكائنات، لا أدب بالحس العميق ينبت ناعما على السطح، وقد أُجبرتُ، أجبرَ الضالون منا، هم قلة على كل حال، ومن حسن حظكم وإلا لفسدت الأرض ما بعده من فساد، إنما اعذرونا فنحن هكذا يتمخض منا، من لغتي، صوري، الخراب، منذ عهد عاد وثمود، ومدينتي التي آوتني قبل برشيد، المعلومة بإرم ذات العماد . لا تعجبوا إذا سمعتم عن من يترك نعيم استتباب شِرعة المتطابق/ االموافق/ المتعالق/ المعانق/ وأختار(هل حقا ثمة اختيار؟!) شقاء المفارق/ الناعق/ محنةَ تسلق الشاهق، من رواية عالم، بإسمنت كلمات من وهم ووبال وضلال، وهذا كله، بغية اتِّقاءِ مسغبةِ الخيال! لذلك كان اللعب ضرورةً. كل الألعاب التي حُرمنا منها في صبانا، لأن المعلم لقننا دستورا شعريا مُصمتا مطلعه:» الجِدُّ في الجدِّ والحرمانُ في الكسل/ فانصَب تُصِب عن قريب غايةَ الأمل»، نقلتها إلى مضمار النص، فصرت ألعب بالكلمات كمحترفي السيرك بالمشاعل، يُدخلونها إلى أفواههم ثم تعود تخرج مني لهبا مشتعلا، يحرق هشيم البالي، أنفخ في رماد أجدادي، إذ الإبداع، الحداثة لمن شاء، هي اشتغالٌ تحويليٌّ لأشكال خيالية ضاربة في القِدم، وأيّ إبداع لا بد أنه موصول بذاكرة، أو هو هباء. أنفخ في الرماد فتنتفض أرض العربية، كأنما تستيقظ من سبات. نشحذ سرودها من حكايات عابرة، وشذرات حلمٍ ويوميٍّ عابرة، في تماسٍّ محموم بتربة واقع زرعنا فيه بذورا أنبتت أزهارا شيطانية، بألوان شاذّة، لا تقِلُّ عن غربة وشذوذ الواحد في بلد منتهى مُنى الناس فيه أن يأكلوا الطعام ويمشوا في الأسواق، وكفى. نشحذُها وننظر إلى أفق بعيد، حيث ترعى في المدى غزلانٌ بهية، بقرون مسننة تركض في الفلوات كالوعول وهي تنطح صخور الأبدية.

V

كما في نتاج الفكر العربي، لم يحتج إبداعُه، وتمثيلُه السرديُّ التخييليُّ إلى استعمال مصطلح الحداثة. لقد استخدم مفكرونا مصطلحات النهضة والإصلاح والتنوير والتجديد والاستنارة والتحديث، تداولتها الحقب منذ نهاية القرن التاسع عشر فالعشرين، إلى مطلع الألفية الجديدة، انتعش فيها الكلام عن الحداثة في موجات شعرية وتشكيلية، بلبنان خاصة. ثم انتقلت» العدوى» إلى تيار في المغرب لا ينتج

الأفكار بقدر ما يشرح ويترجم وحتى بركاكة وببغائية بانقطاع عن السياق، ومن ثم جرى الانتقال إلى استعمال مصطلح «ما بعد الحداثة» ولا تسل عن النظريات وكم تحليلات وتأويلات، و»فرقعات» مفاهيمية بانفصال وعماء عن الشروط التاريخية المولودة فيها، وفي بيئات ما زالت تفتقر إلى البنيات الأولية المؤهلة لعيش الإنسان الحديث وتلقيه واستخدامه لأدواتها. لذلك يمكن القول بأننا نعيش حداثة الانفصام، التي تجمعها بتلفيق صيغة «أصالة / معاصرة». هي ذاتُها وجدناها في قسم من الكتابة السردية العربية، بين تمثلها وتمثيلاتها، لتوقف بين النظر إلى الواقع وصفا وتشخيصا، بلا تمييز، وأفقٍ مستشرف، وبين تجاوزه في بناء تخييلي أكثر رحابة، إذ تخترق قشرةَ الواقع تعدِّد الوجودَ، وتستبطن الهواجسَ في طبقات، وتنقل اللغةَ من الوظيفية التبليغية إلى الإيحائية والشعرية، ترتع فيها الذات، وهي تنبثق من تلك الطبقات وأعلى منها. لقد تحقق للسردية العربية والمغربية في قلبها يومنا كثير مما تطمح له، وما زالت تعارك لكي ينتزع الإنسان فيها دورَ الصدارة، وليس القيم الغالبة والسطوة المهيمنة، وبذلك، وبأدوات مختلفة، يبقى رهانُ الكتابة جزءا من رهان التحديث الأكبر والأشمل. لقد تفاعلت كتابتُنا في أطوارها المختلفة بنماذج التجديد والتحولات الجمالية البنائية في الآداب الخارجية، تأثرت بها، وتجددت بدورها معها حتى ليمكن القول إننا بصدد بلورة تخييلنا الخصوصي من وحي ثقافتنا في صيرورتها، بيد أنه ينبثق الآن من أوضاع مأساوية، من قلب إشكاليات كنا وما زلنا نتخبط في فهمها، لا حلها. لقد ظهرت الحداثة الغربية وما بعدها من قلب بحث وسعي المجتمعات الغربية لإرساء أعمدة التقدم والتنوير ومبادئ الحرية والعدالة والديموقراطية، استطاعت أن تنعتق من كثير أغلال تقيّد حرية الإنسان، ليصبح الفرد قيمته المطلقة وأزمته في آن. وهذه هي الثيمة التي درجت على استثمارها وما انفكت آداب الغرب، روايتُه تعالجها، انتقل كتابها من المركزية الغربية إلى أنوية ذاتية مركزية. أما نحن المساكين، أبناء ثقافة وآداب الجنوب، فبعد أن قضينا مثقفين وكتابا وفئات عريضة أخرى ردحا من أعمارنا في استرجاع السيادة بأنواع، وتأثيث البيت، مقسما بين صالون تقليدي و عصري، وكافحنا كل بطريقته لنكون أحرارا بأجسادنا وعقولنا ومخيلاتنا في بلدان حرة، ولنواجه تحديات عالم يُعولمنا دون أن يطلب رأينا أو يشركنا، ها هي بلداننا تتزلزل الأرض من تحتها، والخراب يكاد يصبح عنوانها الوحيد، وذلك الإنسان، الفرد الحر الذي سعى كاتب مثلي أن يمجِّده، يخلق منه برومثيوس آخر طليقا، على سنن الأسطورة وشيلي وغيره، ها هو في العراء والبدد، وعليَّ من جديد أن أدحرج صخرة سيزيف، فيا للهول!

* يرجع أصل هذه المقالة، وبعض أفكارها، إلى مداخلة للكاتب في ندوة حول موضوع « من الحداثة إلى الحداثات» عقدتها «أكاديمية المملكة المغربية» بالرباط، في دورة أبريل ، نيسان، ٢٠١٧، فوجب التنويه.

الصورة السردية في «القادم من القيامة» للكاتب وليد الشرفا

عماد موسى

ترددت طويلا قبل الشروع في دراسة هذا العمل للروائي وليد الشرفا، «لأن هذا النص الذي نسميه بكلمة واحدة نص القراءة، هو نص غير معروف والسبب لأننا نهتم اهتماما مفرطا بالمؤلف، ولا نهتم على الاطلاق بالقارئ.»(١) ولهذا، وجدنا أنفسنا، امام نص للقراءة وامام سرد نستطيع أن نطلق عليه «السرد الجديد»؛ ونقصد به ذلك الأسلوب الذي يكسر التقنيات الجامدة، والقوانين، والشروط التي أوجدها منظرو الرواية، مثل الحبكة الروائية والحوار، ورسم الشخصيات عبر تقنية الوصف، ونعتقد، أن لنا اسبابنا في إطلاق هذه التسمية، على رواية «القادم من القيامة»، لما يحدثه السرد الجديد من تأثير في القارئ عبر إحداث هزات تأثيرية وانفعالية؛ فيحقق السرد الجديد المتعة، والاثارة، والافادة، ما يجعل إحساس القارئ» المتلقي «عرضة للاهتزاز والاضطراب، ومن هذه الأسباب اللغة، أيضاً، والتي تجاوزت اللغة العربية الكلاسيكية، التي ألفناها في الأدب العربي القديم، والأدب العربي الحديث، فقد جاءت اللغة سهلة تنساب بين شفتي القارئ، مثل شربة ماء باردة في يوم قائظ، هذا من جهة، وأما من جهة أخرى، فقد ركز الشرفا على الواقع الاجتماعي، ومخيالاته عند تجسيد شخصياته، فلم ينجرف في أسلوبه الذي اختطه لنفسه، إلى وصف الشخصيات وصفا مفرطا، واكتفى بالصورة أن تكشف عن الشخصية وسلوكها، أو إلى الاستغراق في وصف المكان، أيضا، كما درجت عليه العادة عند الروائيين العرب، لأنه ببساطة ترك الحرية للغة أن تحدث ذلك بجمل اشبه باللقطة السينمائية، فابتعد عن الاستعارات اللغوية المألوفة، وعن التشبيهات ، والمجازات المكررة، وهذا ملائم للسرد الجديد، فهو مقتصد في الحوار، والذي يتطلب اقتصادا في اللغة، والذي من خلال هذا الاقتصاد تتشكل الصورة، وتقدم معانيها ودلالاتها بسهولة ويسر ، لأنه يكتب للقارئين العادي والمتخصص، وذلك لأن مادة عمل الروائي تتكون غالبا مما لا يمكن التنبؤ به أبدا، أي بما هو قيد النشوء «الإنشاء» مثل إنشاء بناية بطوابق،

ومساحات متعددة، فالروائي ينظر إلى الظاهر «البراني» على أنه مؤشر إلى حالة المستتر، وهو يلامس بذلك السطوح، فمن أجل أن يُكَوّن فكرة أوضح لما يستتر خلف السطوح، نجده مدركاً لما ينبغي عليه أن يتتبع، مسارات معينة، أو أن يقوم بتبديل مسارات لا يملكها هو، ولا يملك أحد سواه القدرة على إطلاقها أو وقفها، ولا يغيب عن باله لحظة بأنه منخرط في مسار معين. ولما كانت الصورة، هي نسيج لغوي يمشج كل مكوناتها بعضها ببعض، بحيث تلتحم وتتشكل على نحو غامض فتغدو كيانا متكاملا ومنسقا، لتصبح جهازا عضويا حيا داخل السرد خصوصا؛ أن السارد قد أيقن بصحة ما هو فاعل على ذاك النسيج الذي ينمو بين يديه، ويكبر هذا النسيج اللغوي للصورة السردية الذي سوف يحتضنك مثل رحم، خصوصا إذا ما علمنا أن الوحدة الأساسية التي يتكون منها نسيج الصورة، هي ما يمكن الوصول إليه في التعريف، والتخييل داخل الصورة أو خارجها؛ من هنا ، «نجد أن القارئ العادي والقارئ المتخصص هما في كثير من الأحيان قارئ واحد، ونوع الكتابة يلعب دوراً مركزياً في تقرير هوية القارئ وعلاقته بالنص» (٢).

وذلك لأن السرد في رواية «القادم من القيامة» هو سرد جديد، كما ذكرنا آنفاً، من هنا نجد أن اختيار المنهج القرائي أي النقدي، وتوظيفه لدراسة النص يعمل على تحديد النتائج، وهذا يؤكد على أن «كيفية قراءة النص تحدد تفسيره، وتركز معانيه، بهذا المعنى؛ فإن القراءة هي في صميمها مشاركة في كتابة النص «(٣).

لهذا ابتعدنا عن وعي عند الاشتغال القرائي على اللغة القديمة، وذلك لأن «العودة إلى اللغة التقليدية لتفسير الخطاب «الروائي» الجديد في لغته، وصوره السردية ليست الا تعزيزا للغة التقليدية، «(٤) .

اعتمدنا منهجيا دراسة الصورة؛ هذه الصورة التي نجدها في رواية «القادم من القيامة» للروائي وليد الشرفا؛ تقوم بمهمة التوتر الثقافي عند الشخصيات التي سافرت خارج الوطن وخارج المكان الصغير «القرية « والدار، وفراق الأهل، والأصدقاء، والرفاق، بأسلوب يعيد إلى المتلقي التعارض بين قطبين حضاريين، وينخرط السرد في تمثيل مجازي، لهذا التناقض، من خلال استحداث شخصيات، ورؤى تنتمي إلى طرفي التناقض المذكور في السرد، لذا جاءت صورة الذات الفلسطينية هي صورة لبطولة فلسطينية تواجه التهجير والنفي المعاصر، والعيش في بلاد الغرب، لهذا تجري أحداث الرواية في فلسطين، في القرية التي لا تحمل اسما معينا لتكون صورة تحمل كل المعاني المضمرة، والتي قد تكون قريتي او قريتك ايها القارئ للسرد، وفي الغربة أيضا، دون تحديد البلد وهكذا يخلق الشرفا نماذج صورية للأمكنة الاجنبية، والتي تأتي في مستويات نفسية وثقافية متعددة.

لا أحد يشك بأن الصورة هي تشكيل لغوي لإنتاج المعنى في السرد، ويتحدد جزء كبير من إنتاج

المعنى من خلال الإجراءات الذاتية التي يقوم بها السارد نفسه، وهو ينتج قوانينه الخاصة عن القوانين التي تنظم أي عمل فني. فالصورة عند الشرفا تأخذ مسارات مختلفة في السرد، وفي السياق مما يجعلها تأخذ الواقع مرجعا، وتأخذ اليومي متطلبا في إنتاج الصورة، لذا تنوعت الصور وأخذت سمات متعددة.

الصورة العتبة

تبدأ التشكيلة الصورية من الصورة العتبة لكونها البدئية لسردية «القادم من القيامة»، أي من العنوان، والذي غالبا ما يكون صورة، وهنا يتكون العنوان من ملفوظي «القادم والقيامة «، فالصورة مركبة من شخص ما، ومن القيامة التي نتخيلها، وفقا للمرجعية الدينية، وتعني « نهاية العالم(الكون)»، (أي نهاية العالم والحياة والدنيا، موعد الحساب عند الله) ويشارك في هذا الاعتقاد أتباع الديانات السماوية .أما في السرد، فيكون معنى القيامة هو «نفخ في سماعة المسجد، كانت نفخة القيامة بالنسبة لي...»

وقد تؤشر الصورة العتبة إلى المكان أي إلى كنيسة القيامة الموجودة في القدس. وإن كان هذا التأويل لمعنى مضمر، ومحمول في الصورة الثقافية العامة. وأما القادم فهو شخصية غير واضحة الملامح، قد يكون أي شخص، دون أي محددات ظاهرة في الملفوظ «القادم» ويهدف السارد من ذلك التعتيم إلى دفع القارئ للإبحار في السرد حتى يتسنى له اكتشاف هذه الشخصية وأبعادها النفسية والاجتماعية، والثقافية...الخ.

الصورة الإهدائية:

وهل يمكن أن تكون العتبات صورا، يمكننا أن نجيب بنعم، من هنا نعتبر عتبة الرواية الثانية هي صورة ثقافية، معرفية، حيث يقول السارد في هذه الصورة العتبة:» إلى الآباء الذين توسطوا المساحة بين الاستعارة والواقع..(ص٥٧)، فهي تقدم صورا للآباء الذين توسطوا في تلك الرواية المساحة الواقعة بين الاستعارة بوصفها أسلوباً بلاغياً جمالياً، والواقع الفلسطيني الذي عملت الاستعارة اللغوية على إعادة انتاجه إبداعيا بالتوافق مع الألم الحاصل من الغربة الفلسطينية، والمتفاعلة مع الأجساد المنهكة داخل الوطن. هذا التعاون بين الاستعارة والأجساد دفع كوكبة فلسطينية إلى خلق صور ابداعية متنوعة في مجالات شتى، فالإهداء يذكر أسماء محددة، وكل اسم منها، هو بحد ذاته كلمة مفتاحية تحتاج من القارئ امتلاك أدوات معرفية، وإلى تطوير مرجعياته المعرفية؛ بقصد فهم إنجازات هذه القامات، ولمعرفة نتاجهم، فالإهداء هو الصورة الثقافية التي سوف تعكس ما سيأتي من سرد. فكما هو واضح فقد جاء الإهداء مكونا من عدد من الصور الجزئية

التي تتآلف لتشكل الصورة الكلية للإهداء.

الصورة الشعرية:

إن الصورة اللافتة للنظر، هي الصورة الشعرية التي أوردها السارد للشاعر نبيل خريوش والتي حملت صورة الرحيل في صورته الرمزية «السفر» المفضية إلى صورة الموت بصورته الرمزية «الكفن «، مع صياغة لحقل من المعانايات التي تظهر في المسافات الطويلة وفي رحله التيه، والضياع، وفي صورة السندباد التي تحمل معنى الارتحال وعدم الاستقرار، إنها صورة الفلسطيني، وصورة الصلب للمسيح الفلسطيني، بوصفها صورة مرجعية لكل أشكال الصلب. «(ص ٥٧).

الصورة الدينية والتراثية:

يبدو أن السارد يدرك أن «الواقع الذي نعيشه، وهو أننا نقيم في عالم لم نصنعه نحن، بل كان قبلنا ونحن نجده جاهزا بكل ما فيه من تراث، إننا ننتمي إلى ماض لم نصنعه، غير أن هذا الانتماء لا يعني أنه قد يحيط بنا، ولا مجال للخروج منه».(٥)

ويلجأ السارد إلى توظيف قصة يونس مع الحوت، لمقاربتها بصورة الفلسطيني السجين في وطنه، وهناك صورة تراثية أيضا «للأسد الآشوري» والذي يرمز هنا إلى اختزال المسافات وطيها ، وذلك لجذب القارئ انتباهيا إلى المكان السجن وهو بطن الحوت، ومقاربته بالوطن فلسطين ولبلورة إطار علائقي بين السجنين، والسجينين. وقد قصد السارد من وراء هذه الصورة تحفيز ذهن القارئ وشحذه للقراءة، والتي يمكننا أن نطلق عليها «التهيئة القرائية للسرد». من هنا يبدأ السارد برمي نثار الصورة العتبة «القيامة» ليرسم مكونات القيامة، والقادم منها فيقول «تطل علينا رؤوس الجنيات، ...أذاقنا موتا أعمق من طقوس الموت» ص٩ ويقدم السارد مشهدا تكوينيا آخر للقيامة «ذلك العشب المصفر على قبره، وتلك المساءات المغلفة بالضباب.. حيث يخيم الموت»(٦) ص١١.

ويمضي السارد في رسم ملامح قيامة القادم منها «لن استطيع الخروج من هذه التفاهات، يا صديقي، ما زلت انتظر حتى اللحظة قيام الناس»ص١٠، ويقدم السارد صورة للمستعمرات وقد وصفها ب»البيوت المسحورة على تلك الرئة اليمنى من بلدنا»ص١٠ .

الصورة الزمنية الجزئية:

يلجأ السارد إلى التجزئة بقصد التأكيد على واقعية الاحداث وهو يعي « أن كونا لا احداث فيه، لا زمن فيه، فالأحداث المختلفة تولد أزمانا مختلفة.(٧)

لذلك يقول السارد:»لن انسى يوم وداعه لي... لن انسى ذلك اليوم الذي حدثني فيه الساعة الثانية ليلا، ..» ص٤٢ «قبل ذلك بأيام كنت قد أخبرته عن حلم غريب» ص٤٣.

«مساء الخير، لا بد ان اذكرك بفرق التوقيت بيني وبينك، لا داعي، ساظل انسى...لا اذكر بقية الحوار، لكن الذي اذكره كيف بدأ الحديث بان الاحلام الغريبة تطارده، منذ فترة»ص٤٣.

من الواضح، «أن الذي يفصل الراوي عن ابطال روايته ليس فاصل المعرفة الموضوعي منها والذاتي، بل، هو اختيار الشخصيات للزمن في الرواية التي يروي"(٨)

الصورة الذاكروية:

الراوي تبقى لديه وشائج مع بقايا لم تصل اليها حواسه ويقيم معها صلات غير مرئية ووشائج عالقة في اللاوعي وما الراوي « مثله كمثل خياط يفصل ثوبا من قطعة قماش معينة وفقا لنموذج معين، وهو يسعى لأن يقص من قطعة القماش هذه اكبر مساحة ممكنة وبأكبر قدر ممكن من المهارة، ولكن لا بد أن تبقى رقع وزوايا غير صالحة للاستعمال علما انك تلاحظ فجأة انك متعلق بتلك الفضلات التي لا حاجة لك بها اكثر من تعلقك بالثوب الذي صنعت فالقلب يشغف بكل شيء ولا يفرط بشيء»(٩)

لهذا، اتخذ السارد من التنوع الصوري اسلوبا للإبقاء على هذا الشغف، فكانت هذه الصورة وغيرها والتي تحافظ على التعلق بتلك القطع الصغيرة الملقاة على هوامش حيواتنا.

فالصورة الذاكروية هي حقل ماضوي غزير يغرف منه السارد تجربته ويغرف ايضا مشاهدته لبناء الصورة السردية، يلتفت فيها الى ما فاته او الى ما اهتم به فعلا في واقعه، فيقول: «هل تذكر اصابعه الغليظة، وشاربيه العريضين، ...هل تذكر عندما كان يأكل...لم اكن استوعب سابقا احاديث ابي عندما يستعيد بذاكرته أن من ماتوا كانوا يوما احياء»ص١٣.

ويتابع السارد توظيفه التذكر والذاكرة بوصفهما اداة بناء في العمل السردي، فيقول: «أذكر الآن اللحظات الاخيرة، التي ودعتني فيها، ...لا أذكر سوى الدموع «ص١٧.

الصورة الثقافية:

يقدم السارد صورة ثقافية للموت من خلال كشف الثقافات الانسانية عن كيفيات التعاطي مع الموت فيقول السارد» هنا، يختارون الزهور والموسيقى التي ستوضع على قبورهم، يتعاملون مع الموت كحدث عادي لكنه نهائي، لا يفكرون كثيرا بالأسئلة الغبية الساقطة من السماء، اعرف انك تشتمني لو عرفت بماذا أفكر لكن كل شيء في يقول: انني لست شريكا لك في التذكار والاستشراف كل شيء اختلف» ص٦٠.

«.. وقلت لها قد عثرت على كنز الجمال والثقافة، والوعي وهي قلما تجتمع في امرأة...» ص٦٠.

ومن ثم يقول السارد: «سأذهب إلى البنك الآن ...تفضل عمو.. يتقدم حارس البنك نحوي يقول: لو سمحت يا عمي الباب يسحب نحو الداخل، ينظر الى لوحة خضراء مثبتة على الباب: اسحب، وينظر إلي بشفقة، لقد توقع أنني أمي، واي انطباع يترك كرشي المتدلي وشعري الأغبر ولحيتي التي تغطي وجهي كقطن منفوش، كلاهما ناداني باسم عمي، يبدو انني غادرت منطقة الشباب مبكرا بدون اي ذكرى او تأثير...» ص١١١.

الصورة الأغنية:

يوظف السارد الأغنية بوصفها صورة، لأنها بدأها لغوي وتأويلها لا يكون الا باللغة، لهذا يقدم بداية جميلة لتوظيف الاغاني في السرد لتشكل مجموعة من الصور - الأغنية فيقول: ما الذي حدث لي كي اترك كل الأغاني، والأشعار التي كنت أحب وأركنها في سكني القديم دون أن استأجر سيارة لشحنها...»ص١١٢.

هنا يقدم للقارئ اعترافا بتعلقه بالماضي بالرغم من انه يعترف بمحاولته التخلص من مرجعية مهمة تذكره بالماضي فيقول: «ربما أنه يجب علي أن أتخلص من شيء يذكرني بأي شيء، ...»ص١٨.

ينوع السارد في نتاج صوره السردية، ليعيش في المخيال الواقعي السردي المماثل للواقع الحياتي ولكنه ليس صورة طبق الاصل، وهنا يتعمد عن قصد حث الذات المتلقية على اعادة استرجاع أصوات الموسيقى في اجوائها التي وجدت فيها هذه الاغاني، اي يدفعنا لاستحضار تجاربنا، وتؤدي الصورة - الأغنية وظائف متعددة في السرد انها تخلق ايقاعا صوتيا بارزا عن ايقاع الحاسة البصرية وكأن الاصوات معزولة عن ادواتها وعن الاشخاص الذين يغنون فيخلق الامتاع والاثارة.

الصورة الحلمية:

قد تكون عملا يفوق الخيال تحتوي على ما يمكن أن تتفتق عنه عبقرية ما في انسان بسيط، بحيث تظل هذه الصورة، محفورة في ذهن السارد فيعيد انتاجها في السرد، حتى توفر امكانية انتقالها الى ذهن المتلقي وهذه التقنية تساعد السارد على تجاوز البراني والغوص في الجواني لان تخييل الصورة قائم على مكوناتها.

ومن الصور الحلمية نقدم الصور كما سردها السارد في سرده، «ماذا تريد؟ لقد حلمت حلما غريبا، ... ماذا أفعل إنني أتشاءم من أحلامك،.. اسمع، حلمت أن شيخا وقورا، يلبس رداء طويلا، تصل لحيته البيضاء أسفل رقبته، محدودب الظهر قليلا، يلف رأسه بعصبة سوداء.. ويجر بيده الأخرى حمارة، يمد يد كل واحد منهم اصبع سبابته يمسكه الشيخ ويضعه تحت ثدي الحمارة، ويحلب له عليه، فيمص الرجل اصبعه، ويهرب فرحا. وهكذا، حتى انتهى الطابور، ولم يبق سوى شخص واحد

لم يضع اصبعه، ولم يلحس حليب الحمارة. من هو انه كامل ابن الخباز معقول كيف تذكرته، مع الحلم؟ هذا ما حدث بالفعل إنها الأحلام»ص٣٢.

الصورة الحواسية التداخلية:

لفت انتباهنا في بناء الصورة السردية صورة مركبة من الحواس البصرية اللونية والشمية بتدرجاتها، واللمسية ويقول السارد:» الطقس بارد بعض الشيء، ويبدأ الدفء بالانتشار، اضواء هذه المدينة تهاجم السماء، يمتد الشارع امامي كلسان من لهب، اشعر بتعرق خفيف، ما هذه الرائحة المنبعثة من كفي، انه عطر رائع، تبرز العروق الخضراء من باطن كفي كما ظهرها، العطر يزكم انفي، تتأجج رائحة العطر مع الحر، اعود الآن الى بيتي الأثير، اشعل الأضواء والتدفئة، لا افرق بين شتاء وصيف أو ليل و نهار.»ص٤٩.

ويقول: «أقوم وكأنني أمزق غرزاً بالإبرة حول عيني، تتشقق مساماتي وتظل سخونة المخدة ورائحتها في وجداني...وذلك التمرغ اللذيذ بوبر المخدة الناعم، وانكماش القدم والكعبين هربا من البرد كلما ازداد لسع البرد ازداد الانكماش»ص٥١.

الصورة الفيلمية:

يوظف السارد الفيلم بوصفه صورة سردية، لأن الفيلم السينمائي يتكون من اللقطات وكل لقطة تتكون من عدد من الصور يتخلل هذه اللقطات والشاهد الحوار بين الشخصيات، لكن الصورة الفيلمية تغيب بالطلق عن السرد لأنها كلمات وجمل ، فهنا تحل اللغة السردية مكان الصور الواردة في اللقطات والمشاهد، لهذا تأخذ اللغة بعدا مزدوجا ، الأول مرتبط بنقل بعض الإضاءات الى الفيلم الذي تم توظيفه في الصورة السردية ، والثاني تظهير المعاني والدلالات للفيلم في الصورة السردية ، وبذلك تمنح دلالات جديدة، وليس بالضرورة أن يقوم السارد بتوظيف الفيلم بحمولة الدلالي. والسارد يلجأ إلى توظيف الفيلم في بناء صوره، فهو الذي يختار اللقطات والمشاهد واللغة السردية، بهدف منح السرد عنصري المتعة والتشويق، وهو إذ يقوم بذلك، يكسر روتين الايقاع السردي الباعث على الملل، لأن الصورة السردية الناجحة، والتي «غالبا ما «تكون متوافقة مع ما يثيره موضوعها، بل أنها تقترح علينا موقفا معينا ازاء ما يثيره ذلك الموضوع وبذلك نستطيع التعامل مع الصورة بصفتها كيانا شبه متكامل"(١٠)

ختاماً، اشتغل الكاتب على الصورة السردية اكثر من اشتغاله على الحوار لأنه يدرك «أن الحوار هو الشكل الأخير من الأشكال الأدبية الأقل تقديراً والأكثر سهولة، وأما اللغة التي شكل السارد بها صوره السردية في روايته «فقد أحدثت «قطيعة في مخيال اللغة الشديدة التقارب مع لغة القرن...

ولكن المنفصلة عنه من دون عودة «(١١) إلى تلك اللغة.

نقر أن ما قمنا به، ليس وصفا للأثر الأدبي، « لأن وصف الأثر يهدف إلى أبراز بنيته ومعنى عناصره الأدبية.»

ولكن هو دراسة هذا الأثر نقديا لأن «النقد يسعى إلى إضفاء تأويل على هذه العناصر» وعلينا ان نعترف أن أي «تأويل لعنصر من عناصر الأثر يختلف حسب شخصية الناقد، وحسب مواقفه الأيديولوجية، وحسب العصر الذي يعايشه، ، ولكي يؤول عنصر ما ينبغي أن يدمج ضمن نظام ليس هو نظام النص، نظام الناقد أي المجتمع، بذلك يقع التحول من بنية النص إلى معناه، ان تأويل استعارة-على سبيل المثال_ يمكن أن يكون استنتاجا حول غريزة الموت عند الشاعر، أو حول انجذاب الكاتب إلى عنصر من عناصر الطبيعة اكثر من الأخرى والحوار الباطني –عندئذ، يمكن ان يؤول باعتباره رفضا للنظام الموجود ...»(١٢)

المراجع

١- رولان بارت، هسهسة اللغة، ترجمة الدكتور منذر عياشي، مركز الانماء الحضاري، ط١، حلب، سوريا ، ص٤٠

٢-هشام شرابي، النقد الحضاري لواقع المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيرون، ٢٠٠٠ص٣٣

٣- المرجع نفسه، شرابي، ص٢٧

٤-المرجع نفسه، بتصرف، ص٢٧

٥-بول ريكور، الاستعارة الحية، ترجمة الدكتور محمد الولي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط١، بيروت، ٢٠١٦، ص ٥

٦- جون برجر، وجهات في النظر، مركز الابحاث والدراسات الاشتراكية في الوطن العربي، ط١، دمشق، ١٩٩٠، ص٢٧

٧- المرجع نفسه، جون برجر، ص٤٣

٨- المرجع نفسه، جون برجر، ص٢٩

٩- مرجع سبق ذكره، جون برجر، ص٥٢

١٠- فيليب دولوز، فكر اللغة الروائي، ترجمة هدى مقنص، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ٢٠١١، ص٤٦

١١-تزفيتان تودوروف، مقولات الحكاية الادبية، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد العاشر، بيروت، ربيع١٩٩٠، ص١٠٣

١٢- وليد الشرفا، القادم من القيامة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت ٢٠١٣

محمود درويش في السابعة والسبعين

كأنه كان يركض أمام حياته

(عن محمود درويش في ذكراه العاشرة)

شوقي بزيع

لم يكن محمود درويش بحاجة إلى موته لكي ننتبه إليه، ذلك أن الغبار الذي لازمه حياً كان يكفي لتحريك دفة الريح وفق ما تشتهي كلماته، ولرفد اللغة الخامدة بما تحتاجه من زئير المجازات، ولكنه أراد أن يحيّد جسده الفاني عن ملعب المواجهة مع العدم. ليس فقط لكي يمحو الفوارق الضئيلة الفاصلة بين إقامة المبدعين على الأرض وبين العودة إلى باطنها بل ليضبط ساعة الشعر العظيم على توقيت الخلود، وليفضح بنصه العاري عجز الموت عن هزيمة الشعراء، وحيث مرت، خلال سنوات رحيله العشر، مياه كثيرة من تحت الجسر. وحيث دالت الدول وفَسُدَ هواء الأماكن وملح الثورات، فإن ما لم يفسد بعد هو صورة العالم في مرايا القصائد، وهو روح الشاعر التي لم تزل قادرة على السخرية من إصرار العدالة الزائفة على حماية السكين من الضحايا، وحماية القتلة من أغاني المقتولين.

الأصدقاء..

لو أراد الجمال أن يلتقط «سِلْفي» لنفسه لرأى على شاشة الكاميرا المقابلة صورة «محمود درويش». ليس فقط بسبب تعاقد وجهه الستيني مع وسامة الملامح تنقلها الكاريزما النادرة من براءتها الطفولية إلى سطوة الحضور الآسر. ولا بسبب العينين الخضراوين اللتين لم تمنعهما نظارتاه السميكتان من الانقضاض الصقري على طرائد المفردات. ولا بسبب شَعْرِه الأملس الذي تحمله غواية الجناس على التنافُس مع شِعْره في ترشيق هبوب الريح، بل بسبب يقينه الراسخ بأن الجمال في عمقه الأخير هو مكافأة الأحياء عند جذور الألم، وبأن الجميل لا يولد دُفعة واحدة، بل يستولد نفسه نأمة إثر أخرى من ظلمات الآبار. هكذا لم يكتف الشاعر بالإتكاء على قوة الرمز في الحكاية

الدينية، ولا بتحويل يوسف إلى ذريعة بلاغية لغسل يديه من دم شعبه المراق، بل اخترع جماله اليوسفي من بريق المخيّلة وبروق الأحشاء. تاركاً لزليخة الغوايات أن تَقُدَّ قميصه من دُبر، أو تقطع أصابعها بسكين اشتهائه الآثم.

ولم يكن المقدس الفلسطيني، كما زعم البعض، هو وحده الذي رفع درويش إلى سدة الأسطورة. فالمقدّس ليس المشجب المناسب لتعليق النصوص الرديئة على بهاء الفكرة، بل هو تحدٍّ للغة ورفع للمجاز إلى سقوفه الأخيرة التي تجد في القرآن وجهها الأمثل وظهيرها الإعجازي. هكذا بدت المباهلة بين الشعري والديني تنافساً بالرموز على ساحة العراك مع الكلمات. وما ارتفاع المعلقات على ستائر الكعبة سوى إيذان بليغ بمحو سوء الفهم المرير بين كلام الخالق وبين كلام المخلوق. مدركاً هذه الحقيقة في عمقها فهم درويش الشعر بوصفه انتزاعا لجثة المعنى من الشياطين، وتدريباً للملاك على زلات اللسان، وحقناً للغة المتكلسة بما يلزمها من حرير الينابيع. وفيما كانت فلسطين تعطي للمئات من شعرائها شارة الانطلاق، فإن القليلين منهم قد أوصلوا الشعلة إلى الهدف. أما هو من جهته فلم يكتف بحمل الشعلة، بل راح يتّحد بلهيبها إلى الحد الذي لم يعد بمستطاعنا أن نميز بين حامل النار والنار نفسها. كان شعره المبكر كافياً لرفد الأغاني والأناشيد بما تحتاجه من النايات ولوازم الشجن، إلا أن تَعَاقُدَهُ مع زلازل الداخل كان أقوى من حاجة قلبه المطحون إلى القليل من الراحة. لهذا كان ينقلب على نفسه كلما شارفت على الاستكانة وأصَمَّت سمعها عن نداء الأقاصي. لكأنه سيزيف الجديد الذي كان يُوقع الصخرة عامداً كلما شارف على بلوغ الهدف. فلو وصل سيزيف إلى القمة فلن يجد ما يفعله بعد ذلك سوى تربية الضجر على طريق الموت، وانتظار من يحمله عاجزاً إلى المرحاض. لذلك بدا موت محمود في أوج عطائه نوعاً من الموت بالتراضي. كأنه كان يركض أمام حياته لكي يحرس وجهه من التجاعيد، ولكي لا يبدّد جسده الواهن ما راكمته الروح من رصيد الأسطورة.

وكأي شاعر حقيقي، لم تركن نفس محمود درويش القلقة الى أي من صفاتها، لقد كان يكتب بحذر الطيور على الماء ويحمل طبائع الغزلان في توجسها من الصيادين. وهو لم يأنس إلى لغة أو أسلوب مترحلاً من الغنائي إلى الملحمي، ومن الوجودي إلى اليومي، ومن الأنا المفردة إلى نون الجماعة، مترحّلاً بين الأزمنة والضمائر والأفعال، ومتمثلاً الخلاصات الثُّمالية لقرائح الأسلاف. كما لو أنه خليط غير مسبوق من لوركا وهوميروس، من المتنبي وريتسوس، ومن نيرودا والسياب. أو كأنه المنادى الضائع على مفترق الأوذيسات الفاصلة بين إيثاكا وأريحا والأندلس وسمرقند. وهو في كل ما كتب لم يأنس لزخارف البلادة المصمّمة في مشغل العقل بل عهد للحواس الخمس بتدليك اللغة الكسلى، وتعهّد الإيقاع بالطراوة وبلادة الفكرة بكهرباء العصب وقوة المباغتة في الصورة، حتى

لكأن شعره لا يُتلقَّف بالتصفيق بل بالشهقات. لذلك لم يكن موته ضرورياً لكي ننتبه إليه. فقد كنا نأتي إليه حياً لنستعيد حبل السرة المقطوع بيننا وبين الأمل، ولنستعيد حداءات أمهاتنا على أسرّة الفقد، ولنجعِّد سطوح الحنين بما يلزمها من نسيم القصائد. الجميع يأتون إلى هذا الشعر، في حياة محمود وبعد موته، على صفحات الدواوين أو على مواقع التواصل. يأتي إليه الأطفال ليكبروا في ظلاله، والمراهقون ليتحرّشوا بجسد اللغة الشهواني، والمراهقات للعثور على شَبَه إضافي بين النهود والبراعم، والفقراء ليهتفوا معه «إنَّا نحب الورد لكنّا نحب القمح أكثر»، والمصابون بفقدان الذاكرة ليتعزُّوا بقوله «الذكرى هي النسيان مرئياً»، ويأتي إليه اللاجئون ليصيروا أقرب إلى فلسطين.

أما نحن الجنوبيين فنحتفي بشاعر «الجدارية» نيابة عن لبنان الذي رأى فيه محمود ظهيراً لحاجة المثال إلى التجسُّد، وعن عاصمته الفريدة التي وهبته أثمن كنوزها، فمنحها دُرَّة قصائده، حتى لتصحّ فيهما قولة أحد النقاد عن ريلكه شاعر ألمانيا الكبير «لقد عاش في الدنيا كأنه ضيف عليها، لكنّ إحساس يده كان أرهف من إحساس المالك». ونحن نحتفي به احتفاءنا بفلسطين نفسها لأن كل قطرة دم تنزف من جبين الكرمل يعود رَيْعُها إلى شقائق النعمان في سهل الخيام، وكلّ طائر يطير في جهات ترشيحا، يرتسم ظلُّه على تراب مارون الراس، وكل غيمة تمطر فوق هضاب الجليل تتكفّل سيول الجنوب بحملها نحو البحر. كأن لبنان وفلسطين شطران لبيت شعر واحد، ووجهان لجغرافيا الروح. حتى لو كانت الأوطان تُطوى كالثياب لوقع فمُ حيفا على خدّ صور، وفمّ عكا على خدّ صيدا، وفم يافا على خد بيروت، والعكس صحيح أيضاً.

حين كتب محمود أخيراً، في قصيدته الوصية «وضعوا على التابوت سبع سنابل خضراء، إن وُجدت، وبعض شقائق النعمانِ، إن وجدت». لم يكن الإيقاع وحده هو الذي أملى عليه ذلك الاستدراك الأخير في نهاية الجملة، بل لأنه كان يحدس بموته في قيظ آب، حيث لا سبيل للسنابل إلى الاخضرار، وللشقائق الى التفتح، وربما كان يحدس بأن الربيع العربي الذي مهّد له سوف يتم إخلاؤه من البراعم والأحلام ليصبح مساحة لنفايات الثورات وخردة الشعارات العجفاء، وليتحول إلى ساحة للمواجهة الضارية بين سياط الجنرالات وسواطير الأنبياء الكذبة. ومع ذلك فإن الجغرافيا التي نعرفها ليست دائماً على حق. فحيث تنخفض الجبال إلى أدنى مستوياتها يتكفل الشعر بتصحيح المشهد. حتى ليسأل أحدنا الآخر قائلاً: «ما هي القمة الأكثر ارتفاعاً في بلاد العرب؟». فيجيبه الآخر من دون تردّد: «قبر محمود درويش».

صفحة محمود درويش الأخيرة

فادي جودة

إحفظ هذه الأبيات، ولك هذه القروش، قال لي خالي وأنا لم أبلغ الخامسة بعد في شقتنا بعمارة «المفتي» في بنغازي. حفظتها وبقروش اشتريت العدد الجديد من مجلة العملاق المصورة من الدكان على باب العمارة. ثلاثون عاماً مرت. كنت أقلب صفحات المجلد الأول لأعمال محمود درويش، ذاك الكتاب البنفسجي، حين التقيت بهذه الأبيات، التي فور قراءتي لها أكملتها عن ظهر قلب. صدى لم يصدأ، ولم أكن واعياً أني أحفظها قبل ذاك اليوم:

هذا هو العرس الذي لا ينتهي

في ساحة لا تنتهي

في ليلة لا تنتهي

هذا هو العرس الفلسطيني

لا يصل الحبيب إلى الحبيب

إلا شهيداً أو شريداً

كما تخون الذاكرة تخان، لا أستطيع الجزم بأن الأبيات التي حفظتها طفلاً في بنغازي، هي هذه الأبيات، وليس غيرها من شعر درويش. لا أستطيع التأكيد أن زوجتي «هناء السهلي» لم تكن من صوّبني إلى «طوبى لشيءٍ لم يصل». العبارة التي رددتها مراراً في السنين التي سبقت زواجنا. ولكن لا غبار على أن هذه القصيدة التي صادف نشرها اغتيال الثلاثي الفلسطيني في بيروت العام ١٩٧٣، كانت تعيش أصداءها في جونا العائلي، كيف لا وأبو يوسف النجار من أخوال أمي.

ثلاثون عاماً من الصمت والنسيان الضروريين، ثم خمس سنين من الإنكباب على شعر درويش،

فعشر سنين بعد ذلك منذ رحيله جسداً، ونسيان جديد. هل ما زال درويش فينا حقيقةً، أو عساه يعود الآن إلينا شهيداً (برصاص من؟) أو شريداً (ممن وماذا؟).

ليس هذا الصنف الوحيد من الأعراس الفلسطينية التي لا تنتهي .. نسأل أنفسنا: ما هي فلسطين، ومن هي الفلسطينية (التي تكاد تكون منسيةً ومهمشةً بيننا) التي رسمها محمود درويش؟. وكما قال أنطون شماس: «دوماً سنعرف خارطتين لفلسطين، لن يستطيع السياسيون أن يتنازلوا عنهما: الأولى يحفظها اللاجئون في ذاكرتهم، والثانية يرسمها محمود درويش في شعره».

تحولت فلسطين في شعر محمود درويش مع العقود على رسل تحوّل مفرداته، في البدء كان الصخر والرمل والأزرق، وفي الختام كان زهر اللوز وأثر الفراشة.

فلسطين الثورة والجمال والمحبة، فلسطين الاحتلال والهزيمة واليأس، فلسطين الانتصارات الصغيرة، فلسطين المرأة.. الخ. نتساهل كثيراً في الافتراض أننا ندرك كفاية أو تماماً كل هذه الأعراس الفلسطينية في شعر محمود درويش.. فلسطين الواقع وفلسطين المجاز، فلسطين الشطح والغناء والمنفى، أليس الشطح أيضاً رحيلا؟. فلسطين المتحدث الرسمي باسم حال العصر، عصر الدولة القومية الحديثة، شعاباً وشعوباً. سينقضي هذا الزمن، ويبقى من آثاره ما كتبه محمود درويش عن وهم الحدود والهوية، عن الظلم والظلام والضوء والنور: "صباح الخير يا ماجد، صباح الخير، قم اقرأ سورة العائد وحث السير». باقية هذه الكلمات سماءً وأرضاً، للفلسطيني وغير الفلسطيني، وغير العربي وغير المسلم. كم من أبيات درويش المتناثرة ستعيش على ألسنة متفرقة يرددها الزمان - المكان المستقبلي كما نردد الآن أبياتاً متفرقة لشعراء الماضي البعيد والقريب؟. يسأل درويش ويجيب: ماذا سيبقى من كلام الشاعر العربي؟.

هاوية وخيط من دخان، لعله نصف مصيب هنا أو أكثر، ولعل لدى الشاعرة العربية رأياً آخر.

يسأل درويش ويجيب نفسه: «ماذا سيبقى من كلامك أنت؟، نسيان ضروري لذاكرة المكان».

إذا كان شعر درويش بحد ذاته مكاناً وزماناً، فعلينا إذاَ القيام بالمهمة الصعبة: النسيان الضروري لشعره، لكي نتذكر أفضل ما ينقصنا ونلّم أكثر بما يكملنا.

خلال احدى مكالماتي مع محمود سألته عن مفرداته التي تدل إلى سبيلٍ غامض الوضوح أو واضح الغموض، سألته عن الياسمين والرمّان والغيوم والغزال والبنفسج. قال لي: لكل شاعر معجمه اللغوي الخاص، يحاوره ويطوره.

هناك كتاب لمحمد حمزة غنايم، بعنوان «معجم الموتيفات المركزية في شعر محمود درويش»

يفهرس مفردات درويش الشعرية، وهذا بحث ضروري يعكس جدية مؤلفه، ولكن ما ينقصنا الآن هو ما بعد التقفي وما وراء الشرح اللغوي أو السرد الذاتي (الحكواتي) لرواية محمود درويش مع كلماته، نحتاج إلى رسم جديد لقدرة الهوية الفردية الجماعية على الترحال، والمكوث بين ذاكرة ونسيان: طفرة الذات إذ يصيغها الزمان - المكان وتصيغه، كأن الذات طير من طيور الأرخبيل، يروّض المسافات التي روضته.

مثلاً: متى ظهرت المفردات والعبارات الصوفية في شعر درويش؟ قبل قصيدة «الهدهد» أو حينها؟ وماذا حدث لها بعد ذلك وصولاً إلى «ضباب كثيف فوق الجسر»، حيث يتقلب محمود درويش كعبّاد الشمس التي قد تكون آخر المفردات التي أدخلها إلى لغته. أو مفردة «الغريب»: ما هي أبعادها غير العربية، واللاتوراتية؟ متى وصل «غريب» درويش إلى منزلة العشق أو الفلسفة العصرية الحديثة، وكيف؟.

مثلاً: متى ظهر الحصان، وماذا قال لنا، فرساً أو خيلاً، أو سيارة إسعاف كما في «الجدارية»؟، وأيضا متى إندثرت بعض المفردات أو كادت، كالبرتقال والصخر، أو حتى «الكرمل»؟.

كيف تحولت أسماء المكان والزمان في شعر درويش، كسحاب يأتيه خراجه، وكيف تطور فن الحوار بداية من «جندي يحلم بالزنابق البيضاء» ورائعته المبكرة «يوميات الحزن العادي» حتى وصوله إلى مسرحيته الشعرية متعددة الأصوات، رباعية «المنفى» في ديوان «كزهر اللوز»؟ وكيف تغرّب الخبز من أمه التي عجنت بالحبق الظهيرة كلها «إلى هيلين» بائعة الخبز؟، وما هي رحلة الأب الذي «نهاه عن السفر» وعاد ليرى الأيائل والحصان الوحيد؟ والجد في سورة الرحمن؟ «وحالة حصار» شبحاً مفارقاً لمديح الظل العالي» والبئر البكر؟ أو ما يتاح لنا من تأويلات ورؤى بعيدة عن تأريخات لا يستطيع أحد إثباتها بشهادات منفردة كان درويش حريصاً على احتكارها.

يقول البعض إن مفردات درويش التي ترسم شعره وتزيّن إيقاعه هي انعكاس ملحوظ لتطورات ومحدودية القصيدة الحديثة في إطار التفعيلة. ويستطرد هؤلاء أن مفرداته تنقصها مثلاً خصوصية اليومي الجديدة في عصر التكنولوجيا والإنغماس الذاتي في وعي هو نتاج حياة رأس المال وطواحين هوائها وحروبها. كأن مفردات هؤلاء، إن كان لهم لغة تخصهم، تشمل القاموس كله.

هذا الانكماش الفكري والكسل المعرفي عن الفن والشعر، يتجاهلان سؤالاً بسيطاً: ماذا يعني كل هذا الانتفاض الأوديبي حين تتغير لغة الشعر بعد نصف قرن أو قرنين إلى تفاصيل ومصطلحات وعبارات تتمرئ وواقع الزمن الجديد؟.

النثر من أمامك والبحر من ورائك، فأين المفر؟. الشعر أكثر من تدوين تاريخي لزمن ما ولسان ما،

والشاعر لا يجبّ ما قبله، بل يلخص ما سبقه بلسان حاله، فيكون اللسان خادماً في بلاط التاريخ، أما الجسد فهو الذي يبقى نسياناً ضرورياً للذاكرة.

عشر سنوات على رحيل درويش، تكفي لتتضح الهاوية وتتسع الفجوة. كيف تحول درويش إلى مؤسسة تبعده في استحواذها عليه عن الأجيال الفلسطينية الجديدة؟ وكأن من يخلده ضريحاً ومتحفاً يوئده نوعاً ما، يدفنه حياً، وينفّر الزمن الجديد من الاقتراب منه. «يحبونني ميتاً» قالها درويش في «ورد أقل» ١٩٨٦، ليقولوا: لقد كان منا، وكان لنا، وراحوا يغنون للشعب. قلت: متى تبدأون اغتيالي؟ فقالوا: ابتدأنا.

وبعد بضع قصائد في نفس الديوان، كتب درويش: «رأيت الوداع الأخير»: «سأُرزم في علم» «ثم يشتمني الشعراء» و»لكنني لا أرى القبر بعد. ألا قبر لي بعد هذا التعب؟».

من الصعب إقناعي أن القبر الذي يريده درويش هنا هو ضريح فخم أو حتى تراب في الجليل. بل هو قبر من النسيان، يصونه الصمت حتى تعود الذاكرة من رميم، كشقائق النعمان أو «مثل نون الأنا في المثنّى»، «إنها المسافة تأتيه مختبلة لتتقوض في جملها». سليم بركات.

هذه المسافة المختبلة هي ما دلني على الفراشة في شعر محمود درويش، وبالتحديد على «عبء الفراشة»: "لا أعود من الشام حيّاً أو ميّتاً، بل سحاباً يخفف عبء الفراشة عن روحي الشاردة»، كتب درويش في قصيدة «طوق الحمامة الدمشقي» في «سرير الغريبة»، الديوان الأول له بعد قدومه إلى رام الله وإنتهاء مرحلة من مراحل المنفى، ولكن في عام ١٩٧٧، في ديوان «أعراس» أعلن محمود درويش عن حضور الفراشة في عنوان قصيدته «وتحمل عبء الفراشة «دون أن يذكرها في المتن: "ستقول لا وتمزق الألفاظ والنهر البطيء. لا للمسرح اللغوي، لا لحدود هذا الحلم، لا للمستحيل. تأتي إلى مدن وتذهب، والقصيدة خلف هذا البحر والماضي ستشرح هاجساً فيجيء حراس الفراغ العاجزون الساقطون من البلاغة والطبول سيجيئك الشهداء، سوف تطردهم فلا يمضون، ويجيئك الفقراء، لا خبز لديك. لنشيدك اتسعت عيون العاشقات، ستقول طالبة: ما نفع القصيدة». فأقول شيئاً ما وأخطئ.

وها هو عبء الفراشة يعود بعد عشرين عاماً ملتصقاً بمفردة أخرى تعيدني إلى ذاكرتي الأولى، روحي الطفل الشاردة، حيث لا يعود الحبيب، ولا أعود حيّاً أو ميّتاً بل سحاباً شهيداً أو شريداً، وها هو الشرود يسافر كالسحاب ويعود من الشكل إلى اللاشكل وعكسه، «ترسمنا الغيوم على وتيرتها».

في ديوان حصان درويش الوحيد، هناك قصيدة، بيان، تعكس أغلب ما أراد درويش أن يقوله عن الفراشة: «من سماء إلى أختها يعبر الحالمون»: «وتركنا طفولتنا للفراشة»، «كان حبر الظهيرة أبيض،

لولا كتاب الفراشة من حولنا» «يا فراشة! يا أخت نفسك، كوني، كما شئت، قبل حنيني وبعد حنيني. ولكن خذيني أخاً لجناحك يبق جنوني، معي ساخناً! يا فراشة!، يا أم نفسك، لا تتركيني لما صمم الحرفيون لي من صناديق.. لا تتركيني!».

الفراشة: «نصف عنقاء. ما مسها مسناً»، «لا ليس طيشاً، ولا حكمة حبنا» و»الفراشة ما لا تقول القصيدة».

ضحك محمود درويش كالطفل أمام لعبته الحميمة حين قلت له أنني سأطلق على ترجمتي لبعض أعماله الجديدة مجموعةً في مجلد، عنوان «عبء الفراشة» كانت ضحكة من أُطلق سراحه. وقال لي «ثِقل الخفة، ثِقَل الخفة». وبعد عامين قال لي مازحاً كريماً حين سألته عن «أثر الفراشة» كتابه الأخير فوافقني أن مصطلح The Butterfly Effect ليس ما يقصده، وأضاف «ولكنك أفسدت عليّ الفراشة يا أستاذ فادي»، وكان يعني بالإنجليزية، حيث عنوان ترجمتي السابقة حال دون إعادة ذكر «الفراشة» في عنوان إنجليزي جديد.

لا أخفي أنها كانت ولا تزال من أجمل ذكرياتي، لحظة التناص العميقة هذه مع محمود درويش. شعرت وكأنني من أوحى له بلفظة الفراشة كعنوان لديوانه الجديد، ولكني لست بصدد الاحتكار الساذج هنا او مدح الذات. أريد أن أشير إلى جمالية أخرى تعيد الفراشة في شعر درويش إلى شخصٍ آخر غيري وغير درويش.

وكما زهر اللوز يذكرني بحسين البرغوثي، على سبيل المثال، أصلاً وصورة، إذا ما أعرنا اهتماماً للتوافق الزمني بين نضوج زهر اللوز في معجم درويش وبين اللوز الذي كان سيواري جسد حسين، فإن الفراشة في شعر درويش، ترجعني إلى سليم بركات وراشد حسين. الأخير كان «فقيراً كفراشة» في قصيدة محمود له بعد وفاته في ديوان «أعراس»، وقد تكون أول ذكر للفراشة، أو أول فراشة تستحق الذكر في شعر درويش.

أما فراشة سليم بركات فهي موضوع مختلف تماماً.

في صيف ١٩٨٩، كتب سليم بركات قصيدته الطويلة «محمود درويش»، نصفها الأول، من مشهدين وعدة مقاطع، يكاد يكون أيقونة في الوصف. أما نصفها الثاني ومشهدها الثالث يحمل عنوان «هو في الأكيد، ذاته». كلاعب رقيق ما بين العامية والفلسفية، فليست ذات محمود درويش يقينية أو تأكيدية بالمعنى المطلق والتقليدي، ولكنها في اليقين والأكيد تتحقق بتوترها وهشاشتها، حتى أن المسافة» كما يقول سطر القصيدة الأخير «تأتيه مختبلة لتتقوض في جمالها».

والأهم من ذلك هو ثلاثة سطور تستبق الخاتمة: «أما الفراشات التي تسوّر الحبر بأسلاك من يقينها،

فهي صفحته الأخيرة».

كانت لحظة في ذروة السعادة حين التقيت بهذه الأبيات في صيف بيروتي ملتهب. ها هو آخر «أدرك فراشة درويش قبل أن يدركها درويش نفسه، فلم تكن الفراشة قد تمكنت من شعر درويش حينئذ، وإن كان وقعها في «ورد أقل» جلياً متجلياً، خاصة في القصيدة الخاتمة للديوان: «ونؤرخ أيامنا بالفراش».

ها هو سليم بركات شاعر وقرين يخط لمحمود درويش صفحته الأخيرة بحبر الفراش، ولا أعني هنا أنه تكهن بعنوان كتاب درويش الأخير، هناك ما هو أعمق. على من يقرأ محمود درويش ولا ينتهي، في حاله كقارئ، عند أعراس الفراش، أن يعيد التأمل والسفر كلما اتضح السبيل.

فأثر الفراشة لا يرى، ولا يزول.

أما إرثها فهو إرث الفلسطيني الجميل.

مايو ٢٠١٨

هوامش:

الشكر للأستاذ الباحث والمترجم إبراهيم مهدي، من دلني على كتاب «معجم الموتيفات في شعر درويش.

قصيدة «محمود درويش» لسليم بركات من ديوانه «البازيار» في «الأعمال الشعرية» طبعة ٢٠٠٧، لها خاتمتان يفصل بينهما شهران. إشاراتي للسطر الأخير من القصيدة يعتمد على الخاتمة الأولى (والأساسية) في النص.

محمود درويش في لانهائية القصيدة

د. حورية الخمليشي

لا أدري كيف أكتب عن محمود درويش في الذكرى العاشرة لرحيله، وهو الغائب الحاضر دوماً في أفق المستقبل الشعري، كما هو حاضر بيننا وممتد في الماضي. كأن الوقت لم يمرّ بعد. إلا أنه كلما مرّ الزمن صار شعره أكثر توهّجاً وبهاء، وأكثر حضوراً في مكامن الشعر الإنساني الكوني.

اليوم نجد أن شعر محمود درويش أكثر عبوراً للمسافات الجغرافية ما يعني أن الغياب لم يُنهِ صدى محمود درويش في وجدان الناس لأن أشعاره حمته من النّسيان كما حمت شعراء إنسانيين قبله من عصور وأجيال مختلفة. ولذلك يصعب الحديث على شاعر من وزن محمود درويش. فشعره يكبر المتلقي بزمن بعيد. إنه صوت إنساني مفتوح على الأفق الكوني، متجاوزاً الأزمنة والأمكنة، ومتجاوزاً لثقافة الاستهلاك، لأنه نموذج شعري متفرّد نجح في أن يبني كوناً شعرياً بلُغته ومهاراته التّخييلية. فكيف نكتب عن شعر يسبقنا بعشرات السنين وبالتالي هل نكتب عن عدد الترجمات التي حظي بها شعره أم عن عدد الدراسات الهائلة التي أُنجزت حول تجربته الشعرية، أم عن زمرة الفنانين الكبار الذين اهتمّوا بشعره، على مستوى الموسيقى والتشكيل والسينما والمسرح والسينوغرافيا وغيرها في المعاهد والجامعات والمتاحف والمسارح العالمية، وذلك في كل دول العالم العربي وغير العربي. ولذلك سنحاول إرفاق هذه الدراسة ببعض الصور واللوحات التشكيلية. فشعر محمود درويش منبع الفن في زمننا الراهن. وهي سمة العديد من كبار شعراء الحداثة العربية.

أتذكّر أنه بعد رحيل محمود درويش بقي شعره لمدة طويلة وحده ينام على وسادتي. كنتُ أفكّر دوماً كيف اكتسب هذه الجرأة في مقاومة عنف العالم وقوة التعبير عن الوجع الإنساني. وكنت أدرك طبعاً أن الشعراء الإنسانيين لا يموتون، بل يصيرون أكثر حضوراً كلما مرّ الزمن. واليوم ضاعف غيابه هذا الحضور الشعري الوازن في كل العالم العربي وغير العربي. فشعره يسير نحو رؤية مستقبلية كونية مستوعباً معنى

الكون. فالشعر عنده هو الحياة، وهو الذي يشكّل قيمة الإنسان في هذا العالم. فبقي من الأصوات الإنسانية ذات الأفق الكوني الذي لا تدركه إلا الأصوات الكبيرة. إنه صوت الشاعر الإنسان المنفتح على كل ثقافات العالم الإفريقية والأوروبية والآسيوية والأميركية. ما يعني أن فقده في عز عطائه كان فعلاً خسارة كونية لكل العالم. لكن هل باستطاعة المتلقّي أن يساير جمالية قصيدة محمود درويش. لأن الكثير من أسرار القصيدة تحيا فقط في أعماق الشعراء دون أن يصل إليه المتلقي.

ويحقّ لنا اليوم أن نستعرض من خلال أعماله الشعرية أسئلة الشعر في زمننا وتحوّلات القصيدة العربية ورهاناتها وانفتاحها على الفنون وعلى شعريات العالم. فقصائده إعادة تفعيل دائم لمعنى الحياة والوجود. كان محمود درويش يعرف بأنه سيرحل يوماً ما، إلا أنه لا يريد لقصيدته أن تنتهي. وقد حقّقت أشعاره دهشة في أكبر عدد من المتلقّين لعمقها الجمالي الإنساني. فما زلنا لحد الآن نشتاق إلى طَعم خبز أمه، وإلى زيتون كرمله، وإلى كمنجاته وإلى يافا ورام الله والقدس وحيفا، وعصافير الجليل، وشجرة الخروب، وشجرة البرتقال، ومحطاته، وإلى كل أمكنته المحبوبة حتى قبل أن نعرف موقعها على الخريطة. أماكن جعلها الشاعر مسكنا لقصيدته، مسكناً قريباً من محبيه وعشاق شعره في زمن عربي مهزوم. لكن رغم بؤس الواقع فمحمود درويش كان يرى أن على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

على هذه الأرض ما يستحق الحياة
الفنانة منى السعودي شعر محمود درويش

إن شعر محمود درويش أيقونة الشعر الإنساني، وهو رأي أجمع عليه العديد من كبار النقاد والمترجمين لشعر محمود درويش كالصيني «بي ضاو»، والألماني «شتيفان فايدنر»، والمستشرقة الألمانية «آنا ماري شمل»، والصيني «شيو تساي» وغيرهم. لأنه يمتاز بقوة لغته الشعرية التي بها يقدم الوجود في أجمل حُلّة. فالشعر كما يقول بول فاليري «اكتشاف للغة». وكان درويش يحتفي باللغة، وبها خلق لمعجمه الشعري فضاء مميّزاً، قادراً على سبر أغوار الوجود.

كان بول فاليري يرى بأن المعنى الذي خلعه على شعره، لا ينطبق إلا عليه. ومحمود درويش تجربة استثنائية في الشعر العربي، حتى أن القارئ للشعر يعرف قصيدته دون أن تحمل اسمه بنبرتها ولغتها وعمقها التخييلي التصويري الفني. فمملكة الخيال عنده مشرعة على الأساطير والخرافة والدين والتصوّف والفلسفة والفن والرسم وغيرها، ومرتبطة بثقافات مختلفة وعوالم جديدة. فشعره يرتقي بالمتلقي إلى أعالي سماء الإبداع لتبدو الحياة رغم صعوبتها دائماً جميلة. فالشعراء أنبياء الإنسانية بعيداً عن الدين قريباً من العمق الروحي الإنساني. لذلك نجد في شعره أجوبة على الكثير من الأسئلة الكونية في حوار مع شعراء عاشوا قبله بآلاف السنين، وشعراء من جنسيات مختلفة سواء من العرب أو الأوروبيين أو الصينيين أو الأميركيين أو غيرهم.

فلم يكن في حياته باكياً شاكياً. ولأجل ذلك لم يكتب سيرته الذاتية كما جاء في حوار له مع عبده وازن، وفضّل أن يكتبها شعراً من خلال بعض أعماله الشعرية ليختلط الألم بالفرح، ويفتح مجالاً واسعاً للأمل الذي به نحيا ونصارع من أجل العيش بحرّية وكرامة. لذلك كتب محمود درويش سيرته شعراً في العديد من أعماله الشعرية وكتبه النثرية ك»يوميات الحزن العادي» و»ذاكرة للنسيان» و»لماذا تركت الحصان وحيداً» ولاسيما في «الجدارية» التي يحكي فيها تجربته مع الموت ببُعد صوفي ميتافيزيقي. وقد صدقت نبوءة محمود درويش. فالموت لم يمهله حتى إعداد حقيبته. ألم يقل «أيها الموت انتظر! حتى أعدّ حقيبتي». كان يدرك في أثر الفراشة أنه يقضي إجازته القصيرة في الحياة. وكان الموت كلما اقترب منه اقترب هو من الأبدية. وبالرغم من جبروت الموت، كان محمود درويش يطلب منه في جداريته الشهيرة أن ينتظره خارج الأرض. وظلّ في هذه الجدارية لاعب نرد مميّز لا يستقرّ على حالة ولا على رقم. يقول: أيها الموت انتظرني خارج الأرض/ انتظرني في بلادك، ريثما أنهي/ حديثاً عابراً مع ما تبقّى من حياتي.

والجميل في شعر محمود درويش هو الارتباط الضمني لحقيقة الموت بسؤال الحياة والوجود. الحياة التي يرى أنها تستحقّ أن تُعاش. فكان في هذه الجدارية فعلاً حوارَ الحالمين. إنه سماوي وطائر ورسول وشاعر. يقول: سأصير يوماً طائراً، وأسل من عدمي/ وجودي . كلما احترق الجناحان/ اقتربت من الحقيقة، وانبعثت من/ الرماد . أنا حوار الحالمين ./ (...)/ سأصير

يوماً شاعراً ،/ والماء رهن بصيرتي . لغتي مجاز/ للمجاز، فلا أقول ولا أشير/ إلى مكان . فالمكان خطيئتي وذريعتي .

ويحضرني استدعاء محمود درويش في جداريته الرائعة لأسطورة جلجامش رؤية حضارية وحواراً عميقاً وأسئلة وجودية حول كنه الحياة والموت ومصير الإنسان بعد أن اكتشف الشاعر بأن الحياة لا تستحق أكثر من أن تُعاش، خاصّة وأن مرضه في تلك المرحلة جعله في مواجهة تجربة الموت القاسية في تمازج جميل بين الفردية الإنسانية والبُعد الإنساني الشّمولي حيث فضاء الموت والأسطورة. يقول محمود درويش

١: نام أَنكيدو ولم ينهض. جناحي نام/ ملتفّاً بحفنة ريشه الطينيِّ/ (...)/ والقلب مهجور/ كبئر جفّ فيها الماء، فاتّسع الصّدى/ الوحشيُّ: أنكيدو ! خيالي لم يعد/ يكفي لأكملَ رحلتي. لابدّ لي من/ قوّة ليكون حلمي واقعياً. هات/ أسلحتي ألمعها بملح الدمع. هات/ الدمع، أنكيدو، ليبكي الميت فينا/ الحيّ. ما أنا؟ من ينام الآن/ أنكيدو؟ أنا أم أنت؟ آلهتي/ كقبض الريح. فانهض بي بكامل/ طيشك البشريّ، واحلم بالمساواة/ القليلة بين آلهة السماء وبيننا./ نحن الذين نعمّر الأرضَ الجميلةَ بين/ دجلةَ والفرات ونحفظ الأسماء.

فحواره مع أنكيدو هو حوار بين الذّاتي والإنساني الكوني ما جعل جمالية خطاب الموت في قصيدة الجدارية تنفتح على معالم أسرار التخييل الجمالي عند الشاعر في مواجهة المصير المؤلم للذات بالخلود الشعري. وهو خلود ثقافي حضاري كان يسعى إليه جلجامش منذ آلاف السنين، والذي ارتبط ذكره بقصّة بداية أعظم حضارة إنسانية في أرض الرافدين. وهي أيضاً تأمّل في طبيعة السلوك الإنساني ونموذج فني فكري إبداعي للقيَم النبيلة للحضارة الإنسانية. إذا كانت الحضارة عند وليام هاولز هي كل ما يساعد الإنسان على تحقيق إنسانيته. فملحمة جلجامش أجمل تجسيد لأنسنة الإنسان وإحساسه بعمق الوجود وبالمحبة والصداقة والوفاء. وبذلك يمكن أن نقول بأن الملحمة تمثّل التفكير المتطوّر والمتحضّر لإنسان ما قبل الميلاد. لذلك شكّلت إرثاً فكرياً إنسانياً حاضراً بقوّة في كل الثقافات الإنسانية. ما جعلها تحتفظ ببريقها الأدبي والفكري والفني.

ونجد أن سعي الإنسان إلى الخلود كفكرة وجودية كونية تخص كل البشر في الماضي والحاضر. لكن ما يميّز رحلة جلجامش في البحث عن سر الخلود هو إدراكه في أن قيمة الحياة وحكمتها وسرّها يكمن في الإنسان ذاته وفي أعماله الجادّة والصادقة التي تؤهّله للخلود. وهذه الأعمال هي التي تبقى شاهدة على الازدهار الحضاري للشعوب والأمم.

كانت لمحمود درويش مكانة خاصة في قلبه لمعظم العواصم العربية ومنها الرباط. ففي مسرح محمد الخامس بالرباط كانت الشرطة أحياناً تتدخّل لتفريق مئات الأشخاص الذين لم يتمكنوا من دخول مسرح محمد الخامس الذي يغصّ بعشاق محمود درويش. وقد عبّر عن هذه العلاقة التي تربطه بالمغرب وبالرباط وبمسرح محمد الخامس في قصيدته «في الرباط» التي يقول فيها:

مدينة الرباط مكان شخصي هو مسرح محمد الخامس./ هناك تمتلئ نفسي بما ينقصها/ من ضفاف. ما أَعرفه عن نفسي- و هو قليلٌ- يكفي/ لأن أتوحَّد مع هذا المعبد المفتوح لمفاجآت/ الإلهام. كأني هناك لا أَقرأ و لا أُنشد،/ بل أَرتجل ما يملي عليَّ الصمتُ و الضوء الخافت/ و العيونُ التي ترسل الإشارات، فأصوغها في/ عبارات و أعيدها إلى أَيدٍ تمسك بها/ كما لو كانت مادة شفَّافة، مصنوعةً من/ هواء. كأني أقرأ شعر غيري، فأطرب/ لأنه شعر غيري. و أنا لا أنا إلا بقدر/ ما يكون الشعر هو الشاعر. لكني أسترق/ النظر إلى فتاة تضحك و تبكي في ركن / القصيدة القصيّ، فأبكي و أَضحك لها / متواطأ معها على فتح أبواب المسرح/ للتأويل. و للمغاربة أن يقولوا: نحن/ مَنْ أوحى إليه!

محمود درويش حالة شعرية استثنائية ومتفرّدة في الشعر العربي. فهو أكبر من أن نحصره في قضية أو تاريخ أو مكان، إنه شاعر الإنسانية. وشعره قابل لأن يُقرأ في أمكنة وأزمنة عديدة. عرف محمود درويش كيف يصنع من الأشياء الصغيرة عوالم وقارات، وكيف يبني فلسفته من الأشياء البسيطة التي تحيط به. في ذاكرة للنسيان جعل من القهوة حضارة وتاريخاً وتراثاً، وجعل منها عشقاً ومحبة وعطاء حينما ترتبط بالأم وبالمرأة. ولقهوة محمود قدسية خاصة في شعره. فهي عنده لون الأرض، ورائحة الأرض، ومفتاح النهار وأوله، وهي ذكريات. ورائحة القهوة تصنع تماسكه وانضباطه. فأيدي لا تُجيد صناعة القهوة، لن تُجيد كتابة قصيدة. فالقهوة كالحب قليلٌ منه لا يَروي وكثيرٌ منه لا يُشبع. هي ذي القهوة بعبارات محمود في ذاكرة للنسيان. مرة قال لي واصف منصور رحمه الله، حينما كان بسفارة فلسطين بالرباط، إن سرّ قهوة محمود درويش في يده. يومها لم أستوعب مغزى كلامه. واعتبرت القهوة من طقوس الكتابة عند محمود. كنت وقتها طالبة أحضّر إجازتي عن شعر محمود درويش. أدركت فيما بعد أنها أكبر من ذلك بكثير. إنها فلسفة حياة. فاليد التي تكتب هي اليد التي تصنع القهوة. إنها رفيقته الروحية المرتبطة على الدوام بأبعاد وجودية، وسر من أسرار قصيدته اللانهائية. هذه القهوة التي تأتي عند محمود درويش مع بزوغ الفجر وبها يستقبل النهار وبها تبدأ مغامرة الكتابة. وقد تقول اللوحة التشكيلية ما يعجز عن قوله اللسان.

القهوة لا تشرب على عجل هي كل الوقت تحتسى على مهل هي تأمل وتغلغل في النفس الذكريات (محمود درويش)
لوحات العويّد وأحمد وليدة تناغم بين الطبيعة والموسيقى

محمود درويش والهوية الشعرية

يحضر سؤال الهوية بعمق في شعر محمود درويش، وهو أيضاً ما تكشف عنه العديد من حواراته حول مسألة الهوية وتغيراتها وتحولاتها. ويعترف محمود درويش أن هناك تأزماً في الهوية، فليس من السهولة بمكان أن تكون عربيا وإسرائيليا في نفس الوقت. وأن هناك عدم استقرار في الأوضاع الراهنة لا في الأوضاع السياسية ولا في أوضاع الهوية لدرجة أن الإسرائيليين أنفسهم لا يعرفون تحديد هويتهم. وثمة توتر عالي في زمننا بين اليهودية والإسرائيلية. وفي حوار مع محمود درويش عن صحيفة الاتحاد الحيفاوية يصرح محمود درويش أنه في البداية كان كونه شاعراً فلسطينياً لتقديسه، فيما بعد صار ذلك للنيل منه أدبياً. كما يشرح الشاعر في العديد من حواراته أن الإسرائيليين كانوا يضطهدونهم كعرب وليس كفلسطينيين. ولذلك كتب قصيدة «سجّل أنا عربي» وليس سجّل أنا فلسطيني. لكن الفكرة الفلسطينية بدأت تنمو بعد نشوء منظّمة التحرير الفلسطينية وبعد هزيمة ١٩٦٧ يكتب درويش «عاشق من فلسطين». ويؤكّد محمود درويش أن سؤال الهوية كان حاضراً بامتياز في الشعر الفلسطيني في إسرائيل منذ أوائل خمسينات القرن الماضي.

ونرجع إلى قصيدة مشهورة لمحمود درويش وهي قصيدة «بطاقة هوية». فقد أثارت الكثير من الجدل حول مسألة الهوية رغم بساطتها وأسلوبها الخطابي. وهي تعني هنا الهوية الشخصية والرّغبة في التّحقّق منها كوسيلةٍ في تحقيق الشخصية الفلسطينية. يقول فيها محمود درويش: سجل/ أنا عربي/ ورقم بطاقتي خمسون ألف/ وأطفالي ثمانية/ وتاسعهم سيأتي بعد صيف/ فهل تغضب/ سجل/ أنا عربي.

فلُغة النص مباشِرة ولا تتوفر القصيدة على أسلوب الرمز ولا على صور شعرية لكنها تمتاز بإيقاع موسيقي متميز. وهي سمة يمتاز بها شعر محمود درويش. فلقيت نجاحاً كبيراً وانتشاراً واسعاً، بالنظر إلى المرحلة التاريخية التي نشرت فيها هذه القصيدة. خاصة وأن شعر محمود درويش كان يمثّل في مرحلة معينة العلاقة القائمة بين الشعر والقضية وبين الشاعر والذات. لكن محمود درويش حاول، في مقالة له بعنوان «أنقذونا من هذا الحب القاسي»، الصادر بمجلة «الجديد» عام ١٩٦٩، الإشارة إلى موقف بعض النقّاد الذين ربطوا شعره بالسياسة أو بالأحرى بالقضية الفلسطينية. وهو ما أشار إليه في أواخر الستينات. فشعر محمود درويش لا يمكن اختزاله في لحظة زمانية تاريخية مرتبطة بالقضية بل يندمج في زمنٍ ثقافي شعري له سمة الكون والإنسان. وتُدَرَّس أشعاره بعيداً عن أيّ فهمٍ ضيّقٍ يتأسّس على منطلقات إيديولوجية وسياسية. إنه شاعر الإنسانية في أجمل معانيها ولم يكن شاعر قضيةٍ فحسب كما سيّجتها مفاهيم الهوية المهيمنة على الشعر في عنف الحصار الفلسطيني. فشعارات الهوية الضيقة والقومية تختزل سؤال الشعر والإبداع وتجعل للقصيدة مناصرين وأعداء ما يبعد الشعر عن رسالته الإنسانية. وفي الخطاب الشعري نعثر على فضاء الذّاتية وتجربة اللانهائي والمجهول لحياة تبدأ ولا تنتهي أبداً، في علاقتنا مع الآخرين ومع الحياة والوجود.

ومن أهمّ الأعمال الفنية كتاب «أمة في المنفى» الذي يجمع بين التشكيلي الجزائري رشيد قريشي والخطّاط العراقي حسن المسعودي وشعر محمود درويش وتقديم المفكّر المغربي عبد الكبير الخطيبي. وهو عملٌ شعريٌ فنيٌ منفتحٌ على قراءات وتأويلات متعدّدة. شكلٌ بصريٌ متميّزٌ في شكله التّجريدي أقرب إلى الخط الآسيوي عند قريشي بالإضافة إلى الخط العربي الذي اختلفت أشكال كتابته وأسطر شعرية من قصيدة «بيروت» لمحمود درويش التي يقول فيها: بوركت الحياة/ وبورك الأحياء/ فوق الأرض/ لا تحت الطغاة/ تحيا الحياة!/ تحيا الحياة!/ قمر على بعلبك/ ودم على بيروت/ يا حلو، من صبّك/ فرسا من الياقوت! إلى أن يقول: هل تعرف القتلى جميعا؟/ والذين سيولدون/ سيولدون تحت الشجر/ وسيولدون تحت المطر. والمقطع الأخير هو الذي يتصدّر اللوحة التشكيلية.

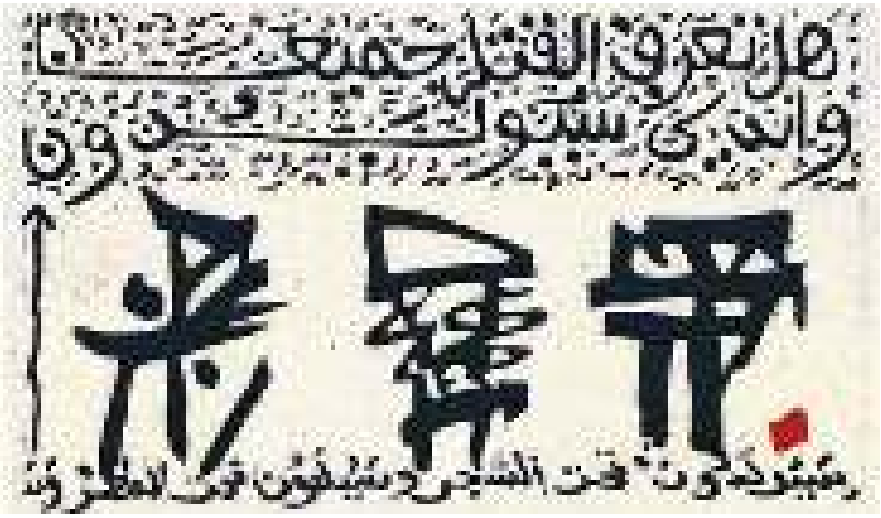

لوحة من معرض رشيد قريشي مستوحاة من «قصيدة بيروت»

إن في قصيدة محمود درويش «لاعب النرد» مثلاً إحساسٌ مخالفٌ بِكُنه الهوية. وفي «أثر الفراشة» تعبير عن ثبات الهوية بعيداً عن صفة شاعر القضية التي صحبته في قصائده «سجّل أنا عربي» و«جواز سفر» و«يوميات جرح فلسطيني» و«رسالة من المنفى». يقول درويش في أثر الفراشة في قصيدة «اغتيال» وهو يبحث عن قصيدته الجديدة: يغتالني النقاد أحياناً:/ يريدون القصيدة ذاتها / والاستعارة ذاتها.../ فإذا مَشَيت على طريق جانبيّ شارداً / قالوا : لقد خان الطريقَ/ وإن عثرتُ على بلاغة عُشبَةٍ/ قالوا: تخلّى عن عناد السنديان/ وإن رأيت الورد أصفرَ في الربيع/ تساءلوا: أين الدمُ الوطنيّ في أوراقه؟

إنه مجازٌ هوياتي يتجاوز حدود الجغرافيا ليدافع عن القيَم العليا. حيث يتجاوز محمود درويش مفهوم الالتزام الوطني السّياسي إلى التزام الكتابة بمفهوم رولون بارت التي تعمل على سبك أغوار اللغة والالتزام بجمالية النص الشعري المتجاوزَة للإيديولوجي والأخلاقي، وهو ما وسم الخطاب الشعري المعاصر. فالهوية مرتبطة باللغة، وبها تكتسب قوتها. يقول حسن حنفي: «الهوية واللغة موضعان مرتبطان، يتفاعلان في السلوك الفردي والاجتماعي داخل الأوطان. يؤثر كل منهما على الآخر، قوةً وضعفًا. إذا قويت الهوية قويت اللغة. وإذا ضعفت الهوية ضعفت اللغة. اللغة تعبير عن الهوية طبقًا للقول المشهور «تحدث حتى أراك.»٢ وفي لغة القصيدة تتّسع الرّؤية والرؤيا متجاوزة الزمان والمكان.

وهنا يمكن التّساؤل عن هوية الفلسطيني هل هي الانتماء إلى فلسطين أم إلى القضية الفلسطينية؟ بمعنى التّمييز بين الانتماء الجغرافي والانتماء الثقافي والسياسي. وهو مشروعٌ تحقَّق في الثقافة والإبداع وجمع شمل الفلسطينيين والعرب. وهو ما لم يتحقّق في السياسة. ما جعل الشعراء يبحثون

عن هويتهم المفتقَدَة والرّغبة في استعادتها. ويتحدّث محمود درويش عن هذه الهوية المفتقَدَة عند إدوارد سعيد فيقول: والهويَّةُ؟ قُلْتُ/ فقال: دفاعٌ عن الذات.../ إنَّ الهوية بنتُ الولادة لكنها/ في النهاية إبداعُ صاحبها، لا/ وراثة ماضٍ. أنا المتعدِّد... في/ داخلي خارجي المتجدِّدُ. لكنني/ أنتمي لسؤال الضحية. ويجد محمود درويش حلاً للمنفى والأنا والهوية فيقول على لسان سعيد دائماً: أنا ما أقول وما سأكون/ سأصنع نفسي بنفسي/ وأختار منفاي موسوعة لفضاء الهوية. ويجد محمود درويش أيضاً حلاً في السفر والانفتاح على الثقافات، يقول: ففي السَفَر الحُرِّ بين الثقافات/ قد يجد الباحثون عن الجوهر البشريّ/ مقاعد كافيةً للجميع.../ هنا هامِشٌ يتقدّمُ. أو مركزٌ/ يتراجَعُ. لا الشرقُ شرقٌ تماماً/ ولا الغربُ غربٌ تماماً، فإن الهوية مفتوحَةٌ للتعدّدِ/ لا قلعة أو خنادق.٣

ويشترك محمود درويش مع إدوارد سعيد في الجذور الفلسطينية وحالة النّفي التي يعيشها كلٌّ منهما. وقد أثار محمود درويش سؤال الهوية في قصيدةٍ أهداها لإدوارد سعيد وهي تتضمّن حواراً افتراضياً بين الشاعر وصديقه إدوارد سعيد. يقول الشاعر في قصيدة «طباق»: على الريح يمشي. وفي الريح/ يعرف مَنْ هُوَ. لا سقف للريح/ لا بيت للريح. والريحُ بوصلةٌ/ لشمال الغريب./ يقول: أنا من هناك. أنا من/ هنا/ ولستُ هناك، ولستُ هنا. وجاءت بخط ستيوارت جيمس Stewart J Thomas

لوحة مستوحاة من شعر محمود درويش Stewart J Thomas

Everitte Barbee
خذي فرسي واذبحيها بالخط الديواني

ونلاحظ انشطار الأنا عند إدوارد سعيد مكانياً بين هنا وهناك. وحنين العودة إلى الوطن نوعٌ من إعادة بناء الذّات. فوجوده كفلسطيني خارج المكان في المنفى مثّل انشطاراً بين ذاته وموطنه الحقيقي، بداية من اسمه الثّنائي الجنسية إدوارد الإنجليزي وسعيد العربي، واللغة التي يتكلّمها هل لغته الأصلية هي العربية أم الإنجليزية. وهو ما يلخّص مشروعه الفكري.

ويعشق محمود درويش كل ما يحيل على الهوية العربية كالبيت العربي، والمفتاح، والحصان. ففي قصيدة «لماذا تركت الحصان وحيدا» يروي قصة الأب الذي أخذ ابنه إلى اتجاه الريح، وترك وراءه الحصان وحيداً لحراسة البيت. والتناص من خاصية الشاعر محمود درويش ومن المواقف التراثية التاريخية التي تناص معها كرم حاتم الطائي وذبحه لفرسه. يقول في قصيدة «خذي فرسي واذبحيها». والتي يقول في مطلعها: أَنتِ لا هَوَسي بالفتوحات، عُرْسي/ تَرَكْتُ لنفسي وأقرانها من شياطين نفسِكِ/ حُريَّةَ الامتثال لما تطلبين / خُذي فَرسي/ واذبحيها. إلى أن يقول في نهاية القصيدة: سوف أُدرك، في زمن آخر/ سوف أدرك أَني انتصرتُ بيأسي/ وأَني وجدت حياتي،/ هنالك/ خارجها، قرب أمي/ خذي فَرسي/ واذبحيها لأَحمل نفسيَ حيّاً ومَيْتاً/ بنفسي. واللوحة لإيفرت باربي Everitte Barbee بالخط الديواني، وتبدأ القصيدة من رأس الحصان وتنتهي عند ذيله.

وتحتلّ المرأة مساحة كبيرة في شعر محمود درويش أماً وأختا، عاشقة ومعشوقة. وهو موضوع كبير إلا أنه يحتاج إلى وقفة تجرّده من بعض القراءات السابقة التي تربط المرأة في شعره بالقضية والأرض. وموضوع المرأة كان مجالاً خصباً لنصوص بصرية مستوحاة من قصائده. يقول في قصيدة «يوم أحد أزرق»: تجلس المرأة في أغنيتي/ تغزل الصوف،/ تصبّ الشاي،/ والشبّاك مفتوح على الأيّام/ والبحر بعيد.../ ترتدي الأزرق في يوم الأحد،/ تتسلّى بالمجلات وعادات الشعوب،/ تقرأ الشعر الرومنتيكي،/ تستلقي على الكرسي،/ والشبّاك مفتوح على الأيّام،/ والبحر بعيد./ تسمع الصوت الذي لا تنتظر/ تفتح الباب،/ ترى خطوة إنسان يسافر ./ تغلق الباب.

الفنان مجد كيالي. شعر محمود درويش «يوم أحد أزرق»

محمود درويش بين الشعري والفني

في كل سنة تُقام مراسيم تأبين ذكرى وفاة محمود درويش بتقديم العديد من الأمسيات الشعرية والمعارض والمسرحيات والموسيقى والغناء بفلسطين وكل العالم العربي وغير العربي. كما تُحيي مؤسّسة محمود درويش للإبداع العديد من العروض المسرحية والأمسيات الأدبية ومعارض الفن التشكيلي في مختلف بلدان العالم. وقد أنجزت العديد من الأفلام الوثائقية عن حياة الشاعر وشعره بمختلف لغات العالم. وكان أول فيلم وثائقي للمخرج رامي السعيد وقد عُرض في حلب وهو بعنوان «محمود درويش أنشودة قوس قزح». ومن أهم الأفلام الوثائقية فيلم بعنوان «كما قال الشاعر» للمخرج الفلسطيني نصري حجاج. وما يثير الانتباه في هذا الفيلم هو جمالية الإخراج والموسيقى المرافقة لشعر محمود درويش وخاصة موسيقى البيانو بعزف هبة القواس كموسيقى عالمية كونية. رافق إنشاد الشعر صوت الشاعر وأصوات شعراء من جنسيات مختلفة. فجاءت القراءات بصوت البرتغالي خوسيه ساراماغو والشاعر الفرنسي دومينيك دو فيلبان والأميركي مايكل بالمر واللبنانية جمانة حداد واللبناني لوركا سبيتي والكردي السوري شيركوبيكس والفلسطيني أحمد دحبور والإسرائيلي إسحاق لاؤور،كدليل على انفتاح القصيدة العربية على الشعر العالمي

لشاعر تُرجمت أشعاره إلى أربعين لغة.

وقد حرص المخرج على أن يكون التصوير بالأماكن التي كان يحبّها الشاعر ويتردّد على زيارتها في فلسطين والأردن وتونس ودمشق وباريس وتنزانيا وكردستان.

ولمحمود درويش العديد من القصائد المغنّاة لمارسيل خليفة وأميمة الخليل وماجدة الرومي وأحمد قعبور وبشار زرقان. وقد رافقه «الثلاثي جبران»في العديد من أمسياته الشعرية.

كما استوحى الملحنون من أشعاره العديد من المقطوعات الموسيقية. فقد لحّن له جورج قرموز (Georges Qurmuz) «سجل أنا عربي». وقد استوحى فيليب لاكاريير (Philippe LACCARRIÈRE) موسيقى الجاز (jazz) من قصيدة درويش «أحد عشر كوكبا على آخر المشهر الأندلسي» (Onze astres sur l'épilogue andalou) الذي ترجمه إلى الفرنسية إلياس صنبر (Elias SANBAR) وهي من أداء الفنانة دومينيك دو فالس (Dominique DEVALS).

وفي مارس ٢٠١٥ بمدينة كاهور (Cahors) بفرنسا قُدِّمت أشعار محمود درويش في عرض موسيقي يجمع بين العازف Adrien Galaret والمغنية Paule Campan وقد أنشد Jean-Luc Axelrad قصائد لمحمود درويش. كان فعلاً سفراً موسيقياً وشعرياً مخترقاً الزمان والمكان، وسفر شعري بين الضفة الغربية الإسبانية والضفة شرق أوسطية في حوار الشعر والفنون وخاصة الأغاني والموسيقى التي ترجع إلى الحقبة الأندلسية.

وفي أجواء من الموسيقى والعزف والغناء والتشكيل والسينوغرافيا احتفت فرقة بروزونيClaude Brozzoni) في فرنسا بمسرح بورغ أون بريس (Bourg En Bresse) بمناسبة ربيع الشعراء احتفاءً كبيراً بشعر محمود درويش. فقد غنّى عبد الوهّاب صفصاف شعر محمود درويش (متى تقبّلني؟ Quand m'embrasseras-tu ?) بالفرنسية والعربية على وقع الموسيقى الشرقية وموسيقى الروك (Rock) والإلكترو (électro). وعلى أنغام الموسيقى انخرط الرّسام تييري كزافيي (Thierry Xavier) في رسم جدارية مستوحاة من شعر محمود درويش.

وللإشارة فقد دأب بروزوني على تقديم هذا العرض بأفينيون (Avignon) منذ عام ٢٠١١. ونظراً للنجاح الكبير الذي لقيته هذه الفرقة عمدت إلى تقديم عروض عديدة بكل التراب الفرنسي وكذلك بسويسرا وبلجيكا. وهذا دليلٌ على قيمة ومكانة شعر محمود درويش باعتباره من أكبر شعراء عصره.

صورة من الاحتفاء الذي نظّمته فرقة بروزوني (Brozzoni) بعدة مدن فرنسية وأوروبية تكريماً لشعر محمود درويش بمناسبة ربيع الشعراء. وهو احتفاء شعري، موسيقي، بصري. وقد لقي نجاحاً منقطع النظير.

وقد غنّت ماجدة الرومي من شعر محمود درويش وألحان جوزيف خليفة وهي مقتبسة من قصيدة محمود درويش «جندي يحلم بالزنابق البيضاء»، بعد حرب لبنان. وقالت ماجدة الرومي في تقديمها لهذه الأغنية: «أقدّم هذه الأغنية بعد ثلاث وثلاثين سنة من الحرب وهي كافية. أنا شخصياً لا استعداد عندي لثلاث وثلاثين سنة ثانية من الحرب. أنا لا أربط هذه القصيدة بحدث، أربطها بموقفي الشخصي من العنف. أنا ضدّ العنف، ضدّ الحروب. أحبّ الناس الذين يعملون السلام، وأرى أن السلام أحلى بكثير من الحرب. إذا كان لازماً أن نختار بين الحياة والموت، أنا أختار الحياة.» تقول الأغنية: أحلم بالزنابق البيضاء/ بغصن زيتون/ بطائر يعانق الصباح/ فوق غصن ليمون/ أريد قلباً طيباً لا حشو بندقية/ أريد يوماً مشمساً لا لحظة انتصار/ مجنونة دموية/ أريد طفلاً باسماً يضحك للنهار/ لا قطعةً في الآلة الحربية/ جئت لأحيا مطلع الشموس/ لا مغربها/ أحلم بالزنابق البيضاء/ بشارع مغرد/ ومنزل مضاء.

إن الكتابة عند محمود درويش أفقٌ جماليٌ وفنّيٌ جديدٌ في الشعر العربي. لم يكن محمود منظّراً ولم يكتب بياناً شعرياً، ولكنه كان من أهمّ الشعراء العرب العالميين وكل آرائه موجودة في أشعاره وكتاباته والحوارات التي أُجريَت معه، وكل آرائه نجدها ضمن نصوصه.يقول محمود درويش في نص «في

حضرة الغياب»: «لم تعد تسأل: ماذا أكتب، بل كيف أكتب؟ تستدعي حلماً فيفرّ من الصورة، وتناشد معنى فيضيق به الإيقاع. وفي ظنك أنك قد تخطَّيتَ العتبة الفاصلة بين الأفق والهاوية، وتدرَّبت على فتح الاستعارة لغياب يحضر ولحضور يغيب بتلقائية تبدو مطيعة. وتعرف أن المعنى في الشعر يتكوّن من حركة المعنى في إيقاع يتطلع فيه النثر إلى رعوية الشعر، ويتطلع فيه الشعر إلى أرستقراطية النثر. (خذني إلى ما لستُ أعرف من صفات النهر.. خذني). جملة موسيقية كهذه تشق طريقها في مجرى الكلام، جنيناً يتكون، ويكوِّن ملامح صوت ووعداً بقصيدة. لكنها في حاجة إلى فكر يقودها وتقوده في مناخ الإمكانيات المفتوحة، وإلى أرض تحملها وإلى قلق وجودي وإلى تاريخ أو أسطورة.»[٤]

يخرج درويش بالقصيدة إلى أفُقٍ شعريٍ جماليٍ رحبٍ منتصراً على تصنيفات النّقّاد الوطنية الثّورية بلغ ذروتها خاصّة في المجموعات التي كتبها في المرحلة الأخيرة من حياته أهمها «لاتعتذر عما فعلت» ٢٠٠٤، و»كزهر اللوز أو أبعد» ٢٠٠٥، ونصّ «في حضرة الغياب» ٢٠٠٦، و»أثر الفراشة» ٢٠٠٨. جاءت هذه الأعمال بصيغة فنّيةٍ وجماليةٍ وتشكيلاتٍ إيقاعيةٍ مميّزةٍ. يقول محمود درويش في نص «في حضرة الغياب»:[٥] سلام عليك يوم وُلدت، ويوم تبعث حياً في أوراق الشجرة/الشجرةُ لفظةُ شُكْرٍ خضراءُ ترفعها الأرض كنجوى إلى جارتها السماء/والسماءُ تكافئها بقطرات مطر/مطر عليك وعليّ. مطر خفيف ينعشنا في أول هذا الليل. أُحصيه قطرة قطرة كما أُحصي دقات القلب الظامئ إلى بلل، فأطيل وقوفي وأطيل خطبتي، لعلَّك تنهض وتعود معي إلى أَيّ أيْن، أو أمضي معك إلى لا أَين، كما لو نُودِيَ بي أنِ انتظر الوحي/أَلوحيُ برهان القلب على ما لا يعرف، على ما هو أعلى/ أَعلى وأَبعد. وأرى طائراً يحملني ويحملك، ونحن جناحاه، إلى ما وراء الرؤيا، في رحلة لا نهاية لها ولا بداية، لا قصد ولا غاية. لا أحدِّثك ولا تحدِّثني. ولا تسمع إلاَّ موسيقى الصمت/الصمت اطمئنانُ الصاحب للصاحب. وثِقَةُ الخيال بنفسه بين مَطَرٍ وقَوْسِ قُزَح/قَوْسُ قُزَح هو تحرُّش الوحي بالشاعر، بلا استئذان... وافتتان الشاعر بنثر القرآن/ فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان/ وغائبان أنا وأنت، وحاضران أنا وأنت،/ وغائبان/ فبأيِّ آلاء ربكما تُكَذِّبان.

تأمّلات ذاتية عميقة بين النّصّ الحاضر والنّصّ الغائب برؤى فنّية فلسفية بين الحضور والغياب وثنائية الموت والحياة. صورٌ مدهشةٌ رائعةٌ لمحاورة الذّات من خلال صورة الغياب وجبروت الموت الذي يتحكّم في الحياة الإنسانية فتأتي لحظة الموت الذّاتية والرّغبة في الحياة.لوحة فنّية يستحضر فيها درويش الشعر والدين والفلسفة باستحضار النّصوص الدينية ببناءٍ فنّي يحتار فيه المتلقّي بين الصورة الذهنية الاستعارية والصورة التشكيلية. وانفتاح الشعر على الصورة الفنّية جاء من شعراء كبار أي من شعراء تجاوزوا عصرهم وسيُقرأ شعرهم أكثر في المستقبل. فاللّوحة كما القصيدة فعلٌ إبداعي وإن تنوّعت أجناسه فهو يحمل لغة واحدة. لغة الحياة بين الولادة والموت والبعث وما وراء الرؤيا في اندماجٍ كلّي بين الأنا والأنت. لكن محمود درويش في أشعاره مشدود إلى سؤال الحياة أكثر من سؤال الموت.

ليس أجمل من صورة تشكيلية تجمع بين زرقة السماء وقوس قزح والليل والأرض والطير والشجر والمطر أعطاها درويش صورة جديدة لتجربة كيانية إنسانية متجاوزة للزمان والمكان في رؤية ذاتية شمولية للوجود منحت لغة درويش صوراً جديدةً لم تعهدها اللغة العربية.

كما أن شعر محمود درويش مصدر إلهامٍ للرسومات واللّوحات التشكيلية والفن التخطيطي في أعمال العديد من الفنانين. فقد قدّمت النّحّاتة والفنّانة منى السعودي وابنتها المصمّمة ضياء البطل لوحات فنية مبتكرة تحية للشاعر محمود درويش بغاليري «جاكاراندا مدجز» في جبل عمان بالعاصمة الأردنية. فصاغت لوحات عدّة تحمل عبارة درويش «على هذه الأرض ما يستحق الحياة». ويأتي هذا المعرض تكريماً لذكرى الشاعر الراحل محمود درويش وتزامناً مع يوم الأرض الفلسطيني الذي يحتفل به يوم الثلاثين من مارس من كل عام ويستمرّ طيلة أبريل ٢٠١٣.[٦]

وقدّمت قصيدة «جدارية» لوحات يمتزج فيها الرسم والخط العربي الكاليغرافي. وفي معرض حمل اسم «جدارية» قدّم الخطّاط الفلسطيني ياسر صايمة مقاطع شعرية ممزوجة بلوحات من رسم الفنّانة التشكيلية الألمانية هايدي نيهاوس بعد أن تعلّمت فنّ الخط العربي ببيت لحم بفلسطين.

والحقيقة أن أعمال محمود درويش استلهم منها الفنانون العديد من الصور التشكيلية والمسرحية والسينمائية. فقصائده مزيج من المسرح والقصّة والربورتاج وغيرها. وقد قُدّمت نصوص ذاكرة للنسيان مسرحية في العديد من الدول العربية.

وهناك العديد من الأعمال المسرحية المستوحاة من شعر محمود درويش، منها مسرحية «ها هنا الآن» للمخرج فراس روبي والمستوحاة من قصيدة «الجسد والروح». وقد عُرِضت بلغة الجسد وبلغة الصّمت عن طريق التّجسيد الحركي بتقديم الممثلين لحركات تعبيرية راقصة.

وقدّم المسرح الوطني الجزائري مسرحية «سوناتا درويش والقمر» تكريماً لأعمال درويش الإبداعية الشعرية، وهي من اقتباس وإخراج خالد الطريفي. وقد عُرضت على شكل ملحمي بتشخيص سبعين ممثّلاً جزائرياً وفلسطينياً.

شعر محمود درويش ولادة جديدة في نسيج الشعر العربي مستمرة عبر الأزمنة الشعرية المتعددة الفنية والجمالية. لأنه شاعر عانق حلم القصيدة. فظلت منفتحة على أُفق الكشف، كما أراد لها صاحبها في عمله الذي نُشر بعد رحيله (لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي). هذه القصائد التي بقيت مبعثرة في الأوراق بخط يده. فلم يعدّها للنشر ولم يجمعها في ديوان. وقد نُشرت بعد رحيله دون أن يضع لمساته الأخيرة ودون أن يحذف أو يضيف أو يصحّح، والتي يقول فيها: لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي أبدا/ لا أريد لها هدفا واضحا/ لا أريد لها أن تكونَ خريطةَ منفى

ولا بلدَا/ لا أريدُ لهذي القصيدة أن تنتهي/ بالختامِ السعيد ولا بالرّدَى/ أريد لهَا أنْ تكون كما تشتهي أنْ/ تكون:/ قصيدةَ غيري. قصيدة ضدّي. قصيدةَ/ نِدّي.../ أريد لهَا أن تكونَ صلاةَ أخي وعدُوّي/ كأنّ المُخاطَبَ فيها أنا المتكلّمُ الغائبُ فيها/ كأن الصدَى جسدي. وكأني أنَا/ أنتِ، أو غيرُنا. وكأني أنا آخَري!

ومن أجمل القصائد الذي يضمها هذا العمل قصيدة «عينان». قصيدة استثنائية في الشعر العربي. لم أقرأ لشاعر عربي كتب عن عيني امرأة كما كتب محمود درويش. وبالرغم من أن الشعر العربي غني بمعجم العين إلا أن هذه القصيدة نموذج رائع بجمالية لغتها وفنّية صورها. فهي نموذج رائع لدراسة فلسفة اللون عند الشعراء. تجمع الصورة بين نظرة المرأة الشاعرية ولون عينيها الساحر المتعدد الذي يشبه ألوان قوس قزح. عينان فعلاً تائهتان في الألوان. فيهما من الأخضر والأزرق والرمادي والليْلكي والبنفسجي واللازوردي والزيتي والكحل وغيرها. امرأة لا تشبه النساء. فكأنها صورة لآلهة من آلهة الشعر والحب والجمال تجسّدت في جسد امرأة. لذلك امتلكت قدرة التحوّل التّخييلي الشعري بلغة بصرية حالمة. واللوحات التشكيلية المصاحبة للنص الشعري مستوحاة من أعمال لمحمود درويش نظراً لما للنص البصري من قدرة على قراءة لغة العينين التائهتين وسحرهما الذي لا يُقاوَم، خاصة وأن القصيدة تجسيد لشعرية اللون في كل أعمال محمود درويش. ونورد لوحات لكل من ضياء العزاوي، ومحمد العامري، وفريال الأعظمي، وخالد الساعي، وأشلي، ودينيس إيير. يقول:

عينان تائهتان في الألوان. خضراوان قبل العشب. زرقاوان قبل الفجر. تقتبسان لونَ الماء، ثم تُصوّبان إلى البحيرةِ نظرةً عسلية، فيصيرُ لونُ الماء أخضر..

لوحة أشلي (Ashley) مستوحاة من شعر محمود درويش

لا تقولان الحقيقة. تَكْذبان على المصادرِ والمشاعر. تنظران إلى الرماديّ الحزين، وتُخفيان صفاته. وتُهيّجان الظلَّ بين الليلكيّ وما يشعّ من البنفسجِ في التباسِ الفرق.

لوحة ضياء العزاوي مستوحاة من قصيدة «يطير الحمام» محمود درويش

تَمتلئان بالتأويل، ثم تحيّران اللون: هل هو لازورديّ أم اختلطَ الزُمُرّدُ بالزبرجدِ والتركواز المصَفّى؟ تَكبران وتَصغران كما المشاعر..

محمد العامري مستوحى من أثر الفراشة لمحمود درويش

تكبران إذا النجومُ تنَزّهتْ فوق السطوح. وتصغران على سريرِ الحبّ. تنفتحان كي تستقبلا حلماً ترقرقَ في جفونِ الليل. تنغلقان كي تستقبلا عسلاً تدفّقَ من قفيرِ النحل.

لوحة خالد الساعي . شعر محمود درويش

تنطفئان كاللاشيء شعرياً، غموضاً عاطفياً يُشعلُ الغابات بالإقمار. ثم تعذّبان الظلّ: هل يخضوضرُ الزيتيُّ والكحليّ فيَّ أنا الرماديَّ المحايد؟ تنظران إلى الفراغ. وتكحّلان بنظرةٍ لوزيةٍ طوقَ الحمامة. تفتحان مراوحَ الخُيلاء

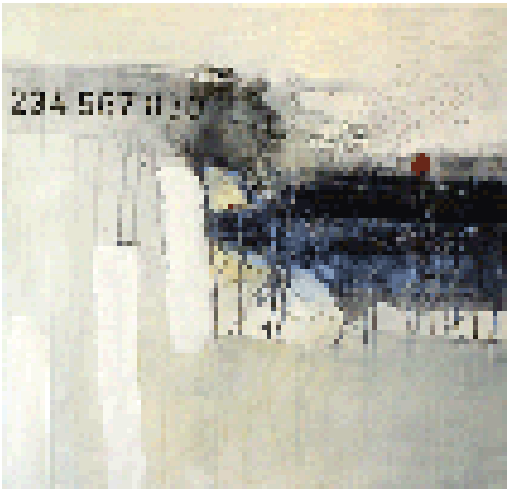

لوحة دينيس إير (Denise Eyer) مستوحاة من شعر محمود درويش

للطاووس في إحدى الحدائق. ترفعان الحَوْرَ والصفصاف أعلى ثم أعلى. تهربان من المرايا، فـــهي أضيق منهما. وهما هما في الضوء تلتفتان للاشيء حولهما فينهضُ، ثم يركضُ لاهثاً، وهما هما في الليل مرآتان للمجهول

لوحة خالد الساعي. شعر محمود درويش

من قدري. أرى، أو لا أرى، ماذا يعدّ الليلُ لي من رحلةٍ جويةٍ - بحريّة. وأنا أمامهما أنا أو لا أنا. عينان صافيتان، غائمتان، صادقتان، كاذبتان عيناها. ولكن، منْ هي؟

فريال الأعظمي.. سطح اللوحة ميدان لحروف محمود درويش

الهوامش

١- محمود درويش، الأعمال الجديدة الكاملة، ج. ١، ٢٠٠٩، رياض الريس، بيروت، لبنان، ص. ٥١٣-٥١٤.

٢- المستقبل، الأربعاء ٢٤ تموز ٢٠١٣، العدد ٤٧٥٦، ثقافة وفنون، صفحة ٢٠.

٣- حورية الخمليشي، الشعر وأنسنة العالم، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف، ط. ١، ٢٠١٨، ص. ٧٦

٤- محمود درويش، الأعمال الجديدة الكاملة،ج.٢، ط.١، ص. ٤٤٥.

٥- محمود درويش، الأعمال الجديدة الكاملة، ج. ٢، رياض الريس للكتب والنشر، ط. ١، بيروت، ٢٠٠٩، ص. ٥٢٥-٥٢٧.

٦- سميرة عوض، الفنانة منى السعودي وابنتها المصممة ضياء البطل توجهان تحية إلى محمود درويش، جريدة القدس العربي، ١٦ أبريل ٢٠١٣

قصة قصيرة :

المرأة التى بكت كثيرا فغرقت

أميمة عز الدين

يحكى أن هناك امرأة ليست ذات مال أو جمال ، تستيقظ فى الصباح الباكر حتى تكف نفسها شر المسألة ، لا تلقي بالا لمن حولها ، تعمل طوال النهار ، تقسم أيام الأسبوع بين سيدتين لا بأس بهما فى الثراء ، تنظف وتكنس وتطبخ وفى نهاية الشهر تقبض مرتبها الذى يتطاير ويحط بعضا منه عند صاحب البيت و قليل منه بيد الجزار والبقال ومحصل الكهرباء وبعض أشياء أخرى لا يقوى القلم على سردها الآن .

تمر الأيام والمرأة مشغولة بلقمة العيش ، لا تتعجبوا كثيرا من ذلك التعبير فهو يناسب ما تمر به البلاد الآن من شظف العيش و التضخم وارتفاع الأسعار وقلة الدخول ، لذلك حزنت تلك المرأة كثيرا حينما قررت احدى السيدتين وتدعى السيدة رتيبة السفر و الهجرة الى بلد بعيد وقررت بيع كل أملاكها واللحاق بأولادها فى كندا ، كانت تخبرها بأمر الرحيل وهى تكاد تطير من الفرحة وتلامس السحاب فهى أخيرا سوف ترى العالم الآخر ويجتمع شملها بأولادها وربما يموتون ويدفنون معا ، لم يؤثر فيها البكاء واعتبرته مذلة فنهرتها واتهمتها بالغيرة والحقد عليها لأنها سوف تعيش حياتها مرة أخرى فى بلاد جديدة وستتمكن من ركوب الطائرة ورؤية السحاب عن قرب .

فى تلك الليلة لم تنم المرأة المسكينة وظلت تبكى ، لم تستطع تناول طعامها واكتفت ببعض الماء البارد يروى ظمأها فى جوف الليل ، ثم عافت نفسها شرب الماء وأصبحت مثل السمكة الصائمة لا تقرب ماءً أو طعاماً ، فهى تدرك جيدا أنها لن تقوى على تدبر حالها دون البحث عن مصدر رزق آخر ، كانت تنظر لابنها المتكوّم عند حافة السرير وقد أوشك على الانتهاء من الدراسة بالمرحلة الابتدائية ، لقد خط شاربه زغبا خفيفا وبدأ صوته يتحشرج قليلا مثل ديك صغير ، اكتشف فجأة

أن له عرفاً أحمر مخاتلاً ومبهراً أيضا ، تفكرت فى حاله حينما لا تقوى على الانفاق عليه والناس تأكل وجهها إن أرسلته لورشة ما يتعلم صنعة ، شبح زوجها يظهر لها فى الأحلام يكشر عن غضبه ويخبرها أنه سوف يغضب عليها ان قصرت فى حق ولدهما الوحيد (عبد المنعم) والذى يحمل اسم أبيه ، هددها بملاحقتها فى أحلامها حينما تسقط فى النوم وتغفل عيناها من شدة التعب .

عاودت البكاء مرة أخرى ، ولما تفقدت بعض البيوت التى دلتها عليها جارتها (زينب) وجدت أن العائد منها سيكون قليلا ولن يسعفها فى قضاء ديونها المتراكمة والمعلقة برقبتها ليوم الدين ، لم تجد أمامها غير البكاء .

ذات حلم رأت زوجها يخبرها أن رزقا جديدا سيدق بابها ، وبالفعل فى الصباح وجدت أمامها زينب تخبرها أن ثمة عائلة ثرية تسكن بمصر الجديدة تحتاج الى شغالة نظيفة وأمينة .

لكن الحلو ما يكملش يا صابرين

ليه يا ست زينب

ستعرفين كل شىء بأوانه .

فى صباح اليوم التالى ذهبت وقد تحممت جيدا و لفت رأسها بايشارب ملون نظيف ورن فى أذنيها صوت زوجها وهو يخبرها أنه راض عنها لكن عليها أن تتحمل وتتجلد بالصبر لأجل ولدهما .

قابلتها سيدة البيت ، متجهمة وقد زوت مابين حاجبيها فى حدة وهى تتفرسها ، كانت صابرين تشعر بنظراتها مثل وخز الشوك تخترق جلدها ، تتشمم رائحتها مثل كلب بوليسى مدرب ، خلعت عنها ملابسها ، تماما جردتها من كل ملابسها ، لتتأكد من نظافتها ، ثم تركتها عارية ، وقد أمرتها أن تستر جسدها سريعا فالوقت يداهمهما وهى لديها عمل كثير بالبيت .

ما أحزنها كثيرا وجعلها تبكى كثيرا فى ذلك اليوم أن السيدة كانت تدعوها بالكلبة ، وأنه سيكون لقبها لذلك نصحتها أن تتحلى بصفات الكلب من أمانة ووفاء ، وتحسس راحة سيده ، لم يكن أمامها سوى البكاء ، لم تشعر بالوقت وهو يداهمها أيضا وقد غرقت فى دموعها التى فاضت بالغرفة ، لم تستطع التنفس ، آثرت ألا ترفع رأسها وتغرق فى دموعها ، حتى ماتت .

معنى أن تفكر في فلسطين

(سرد رحلي)

معنى أن تفكر في فلسطين (سرد رحلي)

عبدالله صديق

عتبة /

أن تكون مغربيا، فأنت الأبعد غرباً، الحامل في وجدانك أثرا من جينات موروثة عن أسلاف وصلوا إلى هنا، بعضم مرَّ، وآخرون مكثوا .. ابتنوا لهم بيوتا .. تتابعوا حتى صارت البيوت المفردة حيا ينسب إليهم، هو (حي المغاربة)، ظل الأمر على هذه الحال، إلى أن وصل الغرباء زرق العيون وسودها، مدججين بالبنادق والأكاذيب والنصوص المقدسة بالتأويل، فهدموا الحي ..

جيناتك الآن في مواجهة بنادقهم ونصوصهم، وروايتك متسللة خلف خطوط روايتهم .. يسافر فيك المكان، يستغرقك الوقت، ويسحبك المشهد إلى صورته، والموقف إلى فكرته، فتجد نفسك تتعلم، تتعلم كيف تفكر وأنت داخلها، وتفهم بعض المعنى الذي يكون في المعنى حين تكون تفكر في فلسطين

اليوم الأول

مشهد ١ / أُفتِّتُ الوقتَ وتنتظرني الحقيبةُ

للذاكرة ألاعيب تعجز الإدراك، الآن وأنا أمارس بمعدة فارغة لعبة تفتيت الوقت كقطعة خبز يابسة أمام عصافير جائعة، في انتظار ختم جوازي في مطار الملكة علياء، أتذكر ما رواه لي أخي الأكبر عن ورطة الاسم العائلي التي لم تكلفه تفتيت الوقت فحسب، بل والذاكرة معه. فقد قام المحققون في شرطة مطار لوس أنجليس بتفكيك ذاكرته، وجعلوه بأسئلتهم يعيد تركيبها أمامهم من جديد، تشابهت عليهم الأسماء، فارتابوا في كنيته، لمجرد ذلك، سألوه عن كل شيء لم يعتقد هو أن ذاكرته ستحتفظ بأثر عنه، سألوه عن اسم مدرسته الأولى، عن أسماء أصدقاء الصبا، عن معلم الدين في فصله الثالث، وعن رقم منزل الجدة من جهة الأم .. عن أحلامه وكوابيسه سألوه. وحين

استيقنوا براءته قدموا له كوب ماء، واعتذروا لصديقته الأوروبية التي كانت تنتظره خلف باب غرفة التحقيق. أما أنا فسئلت في موقفي هذا سؤالا واحدا لمرات كثيرة:

ما اسم والدتك؟

من فرط ما أعادوا طرحه بين سؤال وسؤال، وجدت أني نطقت اسمها مرات كثيرة في زمن قصير، نطقته جوابا عن سؤال شرطي حدود، لا نداءً عليها مثلما كنت أفعل كلما عدت ركضا من ملعب الحارة أطلب كوب ماء. كنت الوحيد من أبنائها من يناديها باسمها، كنت أفعل ذلك لأنها كانت تحبه مني، ومنذئذ صرنا صديقين، لا أما ووليداً لها، الآن أنطق اسمها في موقف المشتبه به لتشابه في الأسماء .. وحدها بَرَكَةُ اسمِ أمك يمكنها أن تخلصك من ورطة كهاته، ورطة يكون فيها اسمك على قائمة سوداء تحتفظ مخابرات المطارات في العالم بنسخة عنها.

مرت ساعتان، ثم سلموني بعدها الجواز بنفس اللّطف الأول .. سلموني الجواز، وتناسوا طلبي كوب ماء، شكرت الشرطي وأسرعت في نزول درج طويل نحو بساط الحقائب، لأجد حقيبتي هذه المرة في انتظاري .. عكس كل المرات السابقة التي كنت ألعب فيها لعبة تفتيت الوقت في انتظار الحقيبة.

مشهد ٢ / ذاهب إلى فلسطين

ساعتا المطار الضائعتان ألزمتاني الركض حد اللهاث نحو مخرج المطار، حيث يفترض أن يكون في انتظاري شخص ما، ركضت وأنا يائس من العثور عليه بعد كل التأخير الذي حصل، وعلى إيقاع ركضي كانت تركض في مخيلتي كل الاحتمالات المترتبة عن ذلك .. كيف سأرتب ما تبقى من الليل في مدينة أزورها للمرة الأولى؟ أين سأجد محل صرافة في هذا الوقت المتأخر وقد صرت خارج المطار؟ والأدهى كيف أستعيد من جديد خيط الاتصال المنقطع مع من يفترض أنه سيرافقني إلى الضفة الأخرى؟

في الركض تحرر مخيلتك أفكارا لا يحررها الليل في أصفى ساعات الذهن، أو تطلقها طفرةُ الأدرينالين في حالات الرهبة العالية .. ركضت لأنه لم يكن علي أن أُفوت ثانيةً واحدة من الزمن كي ألحق الموعد مع الشخص المفترض .. «ألستَ تبالغ بعض الشيء، فلا يعقل أن من ينتظركَ في المطار سيغادر وهو يعرف رقم الرحلة وساعة وصولها، حتما سيفكر في تمشيط قاعات الانتظار قبل أن يفكر في الانصراف» .. «كل هذا بسببك أنت! .. نعم أنت !! على جوازك سفرك تأشيرة أردنية، ولسانك يستطيع أن ينطق كلمة فندق؛ فلماذا أجبتَ شرطي الجوازات حين سألك: إلى أين تذهب؟ بالقول الصريح : إلى فلسطين.

الاسم: عبدالله، اسم الأم: رقية، قادم: من المغرب، ذاهب: إلى فلسطين.

مشهد ٣/ عبور في عمان

عند مخرج المطار، كانت أنفاسي المتسارعة تركز أنظار من بالمكان عليّ .. وكانت، لحسن الحظ أيضا، دليل من ينتظرني إليَّ، أما مخيلتي فكفت عن تحرير الصور والأفكار في اللحظة التي انتبهتُ فيها إلى شخصٍ يخطو نحوي مُصوِّباً نظره إلي .. أخذت نفساً عميقاً وأفرغت رئتي من الهواء المحتبس فيهما .. ولوح هو لي من بعيد .. تقاربنا وتصافحنا ..

أنت عبدالله؟..

إذن أنت رائد فارس الذي ينتظرني، والرائد ليس يكذب أهله.. و يشقى بانتظارهم .. (تبسم رائد) خفت أن تيأس من الانتظار كل ذلك الوقت، وتظن أني لم أصل ..

ما كان لتتوجس، فنحن ياصديقي قد احترفنا الانتظار، بعد أن تعودنا عليه منذ سبعين سنة ..

من المطار توجهنا إلى الفندق في سيارة السفارة الفلسطينية بعمان. في مطعم الفندق سأجالس من كان رائد قد استقدمهم من رحلات سابقة على رحلتي، عرفت من بينهم، مسرحيا من مصر، وروائيا مغربيا، وشاعرة من المغرب أيضا كان لي معها مشهد قبل يومين، كانت حانقة علي، متهمة إياي بالضلوع في مؤامرةِ نعتها في مطوية إعلانية بأنها «صوت شعريٌّ نسائي». تبادلنا ابتسامتين، وتصالحنا، بعدها انفض الجمع وانصرف كلٌّ إلى غرفته، بعد الاتفاق مع رائد على موعد في صباح الغد، للتوجه مجتمعين إلى المعبر.

مشهد ٤/ يوم مقداره سبعون سنة

وصولا بالباص إلى المعبر الأردني، توافد ضيوفُ معرض فلسطين الدولي للكتاب ممن سيعبرون مثلي إلى (دولة فلسطين) .. كنا أكثر من عشرة أشخاص، عربا وفلسطينيين، أكثرهم مثلي يعيشون التجربة للمرة الأولى .. أنهى الجميع ختم جوازاتهم، فلما حان دوري عادت حكاية الاسم من جديد، وصرت أنتقل من مكتب إلى آخر، وأكرر الإجابة على سؤال اسم الأم، مضافا إليه هذه المرة سؤالٌ عما جرى لي في المطار .. لم يكن لجماعة الوفد الثقافي أن تتحرك بواحد ناقص، فشاركتني هذه المرة التوترَ نفسه الذي عشته مفردا في المطار .. مرَّ وقت ليس بالقصير، وفي لحظة نودي عليّ لاستلام الجواز، فبدا كما لو أنهم اتصلوا أخيرا بمخابرات المطار، واستوثقوا من الأمر، فأطلقوا سراح الجواز، وحرروا أعصاب الرفاق.

انتهت إجراءات التسجيل والختم، وانطلق الباص بالمجموعة نحو جسر الملك حسين،.. فهمنا من

رائد أن العد العكسي لزمن الوصول إلى الحاجز يضعنا في سباق مع الزمن، سباق يُربك الأعصاب، ويضغط عليها، فكل تأخر في الوصول إلى المعبر الإسرائيلي قبل العاشرة من صباح هذا السبت، سيعني العودة إلى الفندق من جديد، والانتظار حتى صبيحة يوم الاثنين لتكرار المحاولة، كل تأخر سيعني ضياع يومين كاملين سيضافان إلى يوم فلسطيني طويل، مقداره سبعون سنة، يوم تأخر الأشقاء في الوصول فضاعت بلاد بأكملها.

مشهد ٥/ على مسافة الصفر

ما إن عبر بنا الحدود الأردنية، حتى صار الباص يسير ببطءٍ من يمشي بقدمين في حقل ألغام .. وصلنا الحاجزَ العسكري الإسرائيلي .. على مسافة ظلت تتضاءل حتى صارت أقل من متر واحد .. اقترب الكائن المدجج بالسلاح، فصارت المسافة صفرا، متأبطا سلاحه تفحص وجوهنا من وراء زجاج النوافذ، وجوه لحظتئذ واجمة .. ألسنة تبلع الريق والكلمات، والصمتُ المخيِّم أجوف، غريب، وبارد .. وثوان تسير مصطفة بطيئة فوق حقل عقارب سامة .. العدو الكريه الذي تعودنا أن نراه عبر شاشات التلفزيون في بيوتنا البعيدة، ماثل أمامنا الآن .. حالة شبيهة بارتباك الحواس حين ترى على الطبيعة كائنات متخيلة، بعدما تعودت أن تراها في الصور أو اللقطات الفيلمية .. المشاهدةُ حيةٌ ومباشرة .. الأحجام كاملة، الألوان حقيقية، وزي الحرب الذي هزم جيوشنا الباسلة ماثلٌ للعيان، نراه على مسافة الصفر .. مسافة الاشتباك البصري، توازنُ رعبٍ غير مفهوم، رعب متبادل بين رشاش أوتوماتيكي وجينات موروثة عن الأسلاف.

تحت سلطته صرنا الآن .. له أن يقرر أن نعبر أو نعود من حيث أتينا .. له أن يفرغ مخزن رشاشه في صدورنا لأدنى حركة ستقول حكومتُه غداً أنها كانت هجومية استوجبت دفاعا شرعيا عن النفس .. كذلك فعلوا في آخر حادثة عرفها المعبر حين قتلوا قاضيا بدم بارد، زاعمين أنه حاول تجريد جندي من سلاحه.

هاك أيها العالم الأبله .. إبلع الأكاذيب.

تحرك الباص من جديد نحو محطة التفتيش ومراقبة الجوازات، وحده رائد من بدا أنه يفهم اللعبة مع الإسرائيلي وينجح فيها، لكن دون أن يجود علينا ببصيص من تَرَفِ الاطمئنانِ المُسْبَق إلى نتيجة اجتياز هذا الصراط.

مشهد ٦ / زمن المحطة

للمحطة زمنان، نفسيٌّ تنشطر لحظاته كصخور فضائية مقذوفة في الفراغ، عليك أن تلاحقها واحدا واحدا لتستعيد بها قدرتك على الاستيعاب، وفيزيقيٌّ يتحكم فيك داخل مساحة مشطورة إلى مسافات، في كل مسافة تُفلت شطرا منك و تستعيد آخر .. وتظل تسأل نفسك: هل ستكون أنت هو الشخص نفسه في نهاية هذا الخط الصراطي؟ هل ستكون؟ بعد أن جربت أخيرا أن تكون كأي فلسطيني مُهَجَّر بالوراثة يجرب أن يزور أرضه، فيتم تفتيشه من حذائه المنزوع إلى رأسه الذي يراد له أن يطأطئ لأن الجميع تعبوا من عناده .. وحين يحاول ذلك، يجد نفسه يدخل أرضَه بتصريح تحت بنادق غرباء وصلوا من أماكن بعيدة .. غرباء، حتى لونُ التراب والنخلة العربية المعرشة في التلة القاحلة يستغربان وجودهم وينكرانه.

في طابور أمام شباكين للفحص الأمني، اصطف قبلي شيخ سبعيني، ذكرني زيه بصور فلسطينيي النكبة في الوثائقيات التي أرخت بالأبيض والأسود للهاربين والمهجرين، وهم يعبرون فوق جسر أللنبي في الثمانية والأربعين، من الضفة الغربية للنهر إلى الشرقية منه. تابعت الرجل الذي كان يستعين بعكاز قُدَّ من شجرة زيتون، هل تراه عائد من عمّان بعد أن زار أصهاره القاطنين بها؟ أم بعد أن أجرى فحصا طبيا في مستشفى من مستشفياتها؟ .. تابعته وأنا أحاول أن أقبض على الثعالب العجوزة الجريحة التي تركض الآن في مخيلته، هل يتذكر حين كان يعبر النهر في صباه مع أبيه قبل وصول الغرباء؟ هل يفكر وهو على مسافة قصيرة من نهاية العمر أنه سيموت دون أن يشهد يوما في زمن المحطة لا يكونون فيه هنا؟ .. أي وصف لتلك الغصة التي شاخت معه وسيرحل بها؟ أي عالم عاهر هذا الذي يسلم مصير زيتونة سبعينية العمر متجذرة في الأرض لشاقور صنع نصله في أوروبا، وزين مقبضه بأساطير الأرض الموعودة المقدسة !

مشهد ٧ / أعطاب، وأعطاب مضادة

في هذا اليوم الإبريلي، وفوق هذه البقعة الأكثر انخفاضا في كوكب الأرض تحت مستوى البحر؛ كانت الشمسُ حزيرانيةً لافحةً، واطئةً ومتواطئة بمكر مع الواجهات المعدنية التي كانت تمتص أشعَّتَها وتضاعف حرَّها .. وكعادتي في أي طابور، أجدني قبل بلوغ دوري قد كوَّنت اختيارا معيَّنا للشباك الذي أرجوه، فأصير أحسب حساب الترتيب والزمن والمسافة كي أعرف عند أي شباك سأنتهي، .. على أحد الشباكين كانت هناك جندية بملامح أوروبية، وعلى الأخر كانت ملامحُ الجندي

عربيةً واضحة .. تَحَقَّقَ ما رجوتُ، فسار الشيخ السبعيني نحو الشباك الثاني، وتحركتُ أنا نحو الأول.

هوذا أنتَ! .. الآن أعاينكَ يا مشهد الجندية الإسرائيلية الشقراء، الأوروبية الملامحِ، الزرقاء الأحداق، المنسدلة الشعر، المنتصرة في الحرب.

في شباكها المرتفع فوق قاعدة تجعل رؤوسنا في مستوى طاقة فيه، تستلم منها جوازات الواقفين، عادت الهواجس في مخيلتي إلى الركض، أية صور، يا ترى، تعبر الآن في مخيلة غير راكضة لهذه الجندية الواقفة على رؤوسنا؟ .. صورةِ صف من قليلي الحيلة وطالبي المساعدات؟ أم صفٍّ من الأعداء؟ أم صفٍّ من الأسرى؟ ...

واقفا، ودون حاجة إلى الركض، انطلقت مخيلتي في تحرير أفكار وصور راكضة كثعالب في حقل سنابل، تظهر وتختفي .. لم تقبض ذاكرتي إلا على واحدة منها، بدت مثل ثعلب جريح تخلف عن قطيعه .. نم في قبرك المجهول يا من شققنا من اسمك لفظة فريدة لا توجد في لغات العالم .. نعم يا حبيبي .. نم يا عنترة.

وضعتُ جوازي بين يديها عبر طاقة الشباك، سحبته وبادرتني بتحية إنجليزية .. لم أجب، كرَّرَتْها، فرددتُ بحركة من رأسي .. فالمكان الذي كان يحشر المئات ويضغطهم كسردين في علبة قصدير، ثم يقطرهم واحدا واحدا، لم يكن ليسمح للكلمات أن تكون مفهومة، أو مسموعة حتى، .. كان الصياح وإشارات الأيادي والسبابات الآمرة بالتقدم أو التراجع هي لغة المحطة .. تصفحت الجندية الجواز ورقة ورقة، وعلى وجهها ابتسامة مصطنعة لم أكن بعد قد أدركت برنامجها الاستعمالي عند مجندين يقضون ساعات عملهم في تفحص الأوراق والصور، والوجوه التي تقطر من عيونها كراهية الضحية للجلاد .. بأية أرواح يعود هؤلاء المجندون إلى بيوتهم آخر النهار، ؟.. وأية أعطاب إنسانية يحملونها معهم وهم يعدون عشاءهم، وهم يشاهدون فيلمهم المفضل، وهم يحكون لأطفالهم حكاية ما قبل النوم؟ وكيف يستفرغونها من أجل تَحمُّل أعطاب جديدة تنتظرهم في اليوم الموالي .. وبأية أعطاب مضادة يخرج هذا السيل البشري وقد تكدس لساعات فوق هذا الصراط المقيت، بما فيه من انتظار ومكابرة على تحمل إهانات المعاملة المتعجرفة لجنود الاحتلال؟؟

عادت الجنديةُ إلى اصطناع الابتسامة إياها، وطفِقت تسألني عن جنسيتي، والغرض من قدومي، وإن كنت أحمل سلاحا معي !! وهل أنوي تنفيذ عمليات تخريبية !!! بعد ذلك سلمتني الجواز وهي تسألني سؤالها الأخير: ما اسم والدتك؟ .. سألتنيه وهي تكاد تسبقني إلى نطقه، وكأن هناك من أخبرها بحكاية الاسم.

مشهد ٨ / عناد بعناد، وعطب بعطب

تجتاز الفحص الأول، وتسير نحو طابور ثان يمضي بك إلى بوابة تدخلك إلى الجزء المسقوف من المحطة، من هنا تنفصل حقيبتك عنك .. يسحبونها إلى مسار، ويقودونك إلى آخر، ولا يبقى من رابط بينكما سوى شفرة باركود .. رقم متسلسل هو بالنسبة إليهم قيدٌ يشد أحدكما إلى الآخر، وهو بالنسبة إليك أنت وحقيبتك رابطكما حتى لا تضِلاَّن الطريق إلى المخرج الواحد الموعود، فأيكما هذه المرة، سيسبق الآخر إلى نقطة الوصول ؟؟ .. وأيكما سيكون عليه أن يمارس لعبة تفتيت الوقت في انتظار الآخر؟؟ تفتيته هذه المرة كقطعة لحم عفنة أمام مناقير نسور مفترسة.

في مدخل هذا الجزء من المحطة يصير الاصطفاف في الطابور منتظما أكثر من سابقه، ربما لأنه يرتبط آليا برنة جهاز السكانير الذي يعبر منه المسافرون،كما يصير أطول، متلبسا بالفرجة. مشهديةٌ كاملة؛ مَدْخَلُها، ومَخْرَجُها، ومُخْرِجُها هذا الجهاز البارد، المتيقظ،المتحفز، اللئيم، الذي يبدو كأنه واحد منهم، يشبههم في الوجوم الكريه والعجرفة المقيتة. أمامه يخلع الجميع أحزمتهم، ويفكون سيور أحذيتهم، يراقبون لحظة مرور الواحد منهم عبره، يلتفتون إليه ويتنبهون إلى رنينه الحاد المتقطع حين لا يُحسن عابرٌ ما إفراغ هيئته جيدا من أي معدن ما، فيمسك الجميع وجوههم عن أي تعبير مقروء .. ويتنفسون صعداء مكتومة حين يمر العبور بسلام. لتستلم الجميعَ بعد ذلك أيادٍ خبيرةٌ مدربة على فحص الأجساد من أسفلها إلى أعلاها، في استسلام يعطل ردة الفعل على الحميمية المبخوسة. فالجميع هنا تحت سلطتهم وداخل لعبتهم التي لا تفهم منها سوى أنهم لا يريدونك هنا، أنت غير الفلسطيني الداخل عبر الأردن لا من تل أبيب، الحامل جوازا لم تسمح لهم اتفاقيات (السلام) أن يختموه .. لا يريدون أن تدخل وتخرج وأنت الشخص نفسه خاليا من الأعطاب، يريدونك أن تتعب وتشعر بالإهانة، وتتورم أقدامك من الانتظار في الطوابير المتتابعة، يريدونك أن تحني هامتك، وتخلع حزام سروالك، وحتى السروال إن بدا لهم مُريبا. يريدون أن يطفئوا نور المشهد حتى لا ترى عيناك هذه الأرض التي تبدأ حدودها من هنا .. حيث لون التراب ممتقع، وسعف النخلة معرش في التلة القاحلة.

مشهد ٩ / يكذبون يكذبون

تصل بعد حاجز الجهاز إلى صالة تتضاءل فساحتها أمام المئات المكتظة، بها عشرة شبابيك، مفتوح منها ثلاثة فقط، عليها شرطيات بلباس مدني، هي سبع كذبات إذن تشهدها عيون الخلق المحشور هنا. ميزة الصالة الوحيدة أن بها بضعة كراس على جوانب جدرانها، ميزةٌ لا يمكن أن تفكر في

الاستفادة منها لكثرة ما ترى من العجائز والشيوخ والأمهات الصغيرات المرضعات.

كان على رائد أن يجمعنا من جديد حتى يتأكد أن أحدا لم يتخلف عن المجموعة، وأن الجميع قد عبروا من امتحان السكانير بنجاح، ليعود ويفرقنا على الشبابيك الثلاثة المفتوحة، فيبدأ شوط جديد من أشواط الصراط.

منتصفَ الصالة بين حشود العابرين، واقفا في آخر الطابور، التفتُّ ورائي فرأيت على الجدران بوسترات دعائية ضخمة، عليها ختم وزارة السياحة في (دولة إسرائيل)، أحدها لمسجد الصخرة، وآخر لكنيسة القيامة، وثالث لبيت العدل. في اللحظة نفسها، وفي نفس مجال التفاتتي، كانت هناك مجموعة من الأفارقة بدا لي من هيئتهم أنهم حجاج مسيحيون، وسائح ياباني مع رفيقته، يتطلعون جميعا إلى البوسترات. بهاتين القطعتين اكتمل المشهد، الكذبة الملصقة على الجدار، والمكذوب عليهم القادمون من بعيد.

مشهد ١٠ / أكثر من مشكلة واحدة

بدأت الطوابير تتحرك ببطء، الوقوف يطول، والأجساد تتعب، والأحذية تضغط على الأقدام المنتفخة من الدم المحتقن فيها، استغرق الانتظار ساعة أخرى، كل ذلك والجندية الإسرائيلية القصيرة القامة، (سأقولها وليسامحني رب الجنود!)، والدميمة الوجه، تروح وتجيء، بين شبابيك الشرطيات الثلاث ومكتب في طرف الصالة، مستبقية أصحاب بعض الجوازات في ركن خارج الطوابير، بدا مفهوما أن الأمر يتعلق بالحالات التي يستشعرن فيها مشكلة ما، ولا يقدرن على الحسم فيها، فيطلبن أن يُجرى فيها تدقيق معمق بالعودة إلى قاعدة بيانات، أو أن يأخذن فيها تعليمات خاصة من الضابط المجهول المتربص في المكتب إياه، كذلك فعلوا مع حالتي صديقينا حسن ومازن.

حين وصلت أمام الشباك، وعلى وشك أن أقدم جوازي إلى الشرطية لمحت جندي المخابرات العسكرية ذي الملامح العربية، وقد سبقني إلى الشباك وهو يرافق مع جندي ثان رجلاً يمسك بيد ابنته الصغيرة، كان الرجل في الخمسين من عمره، يرتدي قميصا أنيقا ويضع ربطة عنق فاخرة، ويطوي بذلة على ساعده، وصل الثلاثة إلى الشباك وهم منخرطون في حديث يتبادلون فيه ابتسامات ودودة. فحصت الشرطية الجواز، والثلاثة مستمرون في حديثهم، دقائق ثم استعاد الرجل ذو الهندام الأنيق جوازه وجواز ابنته، وعبرا معا من بوابة نحو صالة الحقائب. التفتُّ إلى رائد الذي كان ورائي، فوجدته قد تابع المشهد، نظرت في عينيه، فهمس لي أن الرجل وجه بارز من وجوه السلطة الوطنية الفلسطينية.

(مشكلة! .. هناك أكثر من مشكلة واحدة !!..)

مشكلة الجندي الذي لا يفعل ذلك إلا وفق برنامج استعمالي، يرغمه على الانتقال من الخطرسة إلى التودد.

مشكلة الرجل ذي الهندام الأنيق الذي يدرك في قرارة نفسه ما يخلفه فوزُه بهذه المعاملة في نفوس أبناء شعبه،(وعلى عينك يا عابر)، ويؤلمه ـــ لا شك ـــ عجزه عن تمكين الجميع منها.

مشكلة الواقفين في الطابور وهم يرون ابن جلدتهم يتجاوز الصفوف، ويعبر، تاركهم وراءه يجابهون عدوا لهم وله، يذلهم كيف يشاء.

مشكلتي أنا كانت صغيرة ومؤقتة .. بضع دقائق مضافة إلى زمن الانتظار.

مشهد ١١ / ماتت الحقيبة

مرت الدقائق الخمس، وانتصبتُ أمام الشرطية، سلمتُها الجوازَ، فحصَتْه، وأدخلتْ بياناته في حاسوبها، ثم ألصقتْ فيه شية عليها رقمٌ متسلسل، وفي الأخير دسَّتْ بين صفحاته بطاقةَ تقوم مقام التأشيرة.

عبرتُ من حاجز مُدَوْلَب إلى صالة الحقائب، لأجد مسكينتي هناك، هالني الحال التي وجدتها عليها، كانت طريحة الأرض، مبقورة الأحشاء، تشتَّتَ ما بداخلها بسبب اللعين الذي فتش فيها، ولم يُحسن شدَّ سَحَّابها، فأعطبه.

ماذا يمكن أن نسمي حقيبة معطوبة السحَّاب، لا تقدر أن تشد على متاع صاحبها في جوفها، سوى أنها حقيبة ميتة.

تألمت لمصير الحقيبة، وطفقت أعالج عطبها بحزام سروالي، لاعنا المعبر وجنوده، وحواجزه، وطوابيره، وشياته. شاهدا على قدرها الأخير الذي انتهى بها إلى هنا، على هذه الحال، مفكرا في شقيقاتٍ لها يلقين نفس المصير كل يوم. حقائب تحمل من شرق النهر إلى غربه ملابس و ألعابا للأطفال، وأكسسوارات وزينة للنسوة، وتبغا ومعسلا للرجال .

مرت ساعة انتظار أخرى ثم أفرجوا عن أخر فرد في المجموعة. خرجنا من مبنى المحطة، لنجد للهواء طعما أصفى في رئاتنا. انقض المدخنون على سجائرهم، واقتعد موجوعو الظهور رصيفا في الموقف الخارجي للباصات، قبل أن يلتئم الجمع من جديد للانطلاق نحو أريحا.

سائرين نحو باب الباص، كان الجميع يدفعون حقائب ثقيلة، وكنت أنا أجرّ حقيبة ميتة.

مشهد ١٢ / حديث رب الجنود

لم أر جمالا لأرض قاحلة جرداء مثل ذاك الذي كان يتراءى لي من خلف زجاج النافذة في الباص، جمال عارٍ من زخرف الطبيعة الذي تعودتْ حواسُّنا أن تشترط وجوده كي تقول عن منظره: كم هو خلاب! جمال لا يتطلب وصفه ألفاظا جيّاشة، هو جيّاش في ذاته. بقدر ما لا يغري العين بظاهره؛ بقدر ما يفيض أمامها بروحانية باطنة.

كأن (تبارك اسمه)، رب إبراهيم ونسله، مبدع الأحراج المدارية والغابات الاستوائية ومشقق العيون والأنهار في أقاليم الأرض، وجاعل الجنات من نخيل وأعناب، لم يزد هنا على الصبغة الأولى للمكان أيةَ محسنات بديعية، ليمنحه بكراً، بدائيا، غير ذي زرع، إلى خليله النبيّ .. «لِنَسْلِكَ أعطي هذه الأرض»

في نقطة من الطريق تنتصب لافتة معدنية ضخمة، تؤشر على حدود المنطقة (ألف)، وهي المنطقة التي تضعها اتفاقيات أوسلو تحت سيطرة السلطة الفلسطينية، فلا تدخلها قوات الاحتلال، فيما تسمح للفلسطينيين بالاستغلال المدني للمنطقة (باء)، مع الإبقاء عليها تحت سيطرتها الأمنية، أما المنطقة (جيم) فلا يقربها الفلسطينيون رغم وقوعها كسابقتيها خارج حدود الخط الأخضر. كان مكتوبا على اللافتة، بالعربية والعبرية، عبارةٌ تحذر الإسرائيليين من الوصول إلى هنا، أو دخول المنطقة، خشيةً من تعرضهم للخطر.

أخيرا هناك منعٌ يطالُهم، يرسم لهم حدا ويخوفهم من تجاوزه، علامةً تذكرهم أنهم «الغرباء»، وأن هذا الجزء من الأرض الموعودة لم يحن أوانُ سرقته بعد، فإن وطئتموه فالموتُ أوّلُ المرحّبين .. هكذا سمعتُ ربَّ الجنود يتحدّث إليهم بين سطور العبارة المكتوبة في اللافتة.

مشهد ١٣ / مضافة السجين

توقف الباص بنا عند مبنى رسمي، مضافةٌ فسيحة، مكيفةُ الهواء، مفروشةٌ بأرائك وثيرة، ومزينة بأثاث تراثي فلسطيني. عُلقت على جدار فيها صورتان، إحداهما لأبي عمار، وأخرى للرئيس أبي مازن.

هنا تستقبل (دولةُ فلسطين) ضيوفَها الرسميين، تُعِدُّ لهم استراحة يتخلصون بها من تعب المعبر وضغطه النفسي، وتقدِّمُ إليهم قهوةً عربية، وقارورة ماء بارد، قبل الانطلاق من جديد نحو الداخل.

من هذه النقطة تبدأ (الدولة) على بساطة إمكانياتها، في إثبات أنها معلنة وموجودة، تخوض

معركة الرموز، وتواجه إصرار الإسرائيلي على الفتك بما تبقى من الرموز الفلسطينية المزعجة له، في مقابل تكريس رموزه المزيفة.

هكذا بدت لي ضيافة الاستراحة، رمزية تريد أن تمحو من نفوس زوارها ذلكَ الشعورَ الذي كان سلوكُ الإسرائيليين يمعن في ترسيخه لدى العابرين، من فلسطينيين وأجانب. سلوكٌ كانت رسالته الظاهرة تقول: (لايجب أن تنسوا، أننا نحن من يتحكم هنا، وأنتم أيها الأجانب، فحين لا تأتون من مطار بن غوريون فإنكم ستجدوننا هنا في معبر الملك حسين، نذيقكم فيه الذل، كي تكفُّوا عن تسميته معبر الكرامة).

كانت المحبة تفيض من محيّا كل واحد من الشباب في المضافة، تشي بسعادة حقيقية تغمرهم وهم يخدموننا بكل أريحية، سعادة من رمزية يستشعرونها في وصولنا إليهم، شبيهةٍ بتلك التي تتدفق من عيون سجين يزوره في المعتقل أخٌ له في الدم، أو نظيرٌ له في الإنسانية، زيارةٌ يعرف الفلسطيني منها أن لسجنه باب يفتح ــ ولو بصعوبة ـ يدخل منه أهله ومحبوه، فيدخل بوصولهم هواء جديد، يعرف منها أيضا أن صاحب زيارته قد قاسمه بها بعض أوجاعه التي تبدأ من المعبر، ولا تنتهي عنده.

فهل تبقى من ذريعة، بعد هذا، عند من يصم تلبية دعوة فلسطينية لزيارة الأرض المحتلة بأنها تطبيع؟!.

مشهد ١٤ / ما فعله المعبر أكملته المستوطنة

جميلا كان الوصول إلى أريحا، المدينة الفلسطينية الأولى التي يحل بها القادم من المعبر،)جيريكو(يسميها الكتاب المقدس، ويعني بها مدينة القمر، سأزعم أن القمر مدين لها، بسبب أنها بقعة الأرض الأكثر انخفاضا تحت سطح البحر، حيث يحطُّ أطولُ شعاعٍ نازلٍ من القمر.

أرض خصيبة خفيضة، وبحر مالح قريب، وقمر سيأتي مشع، هي ذي أريحا. عبرناها سراعا، مكملين الرحلة نحو رام الله.

في الباص سَرَتْ روح لطيفة، وصار أفراد الوفد يتبادلون أحاديث منتظمة، كأن الذي بينهم صداقة قديمة، لم يكن للأمر من تفسير عندي سوى أن تجربة المعبر قد وحدتنا جميعا، حين عرضتنا بدون استثناء لنفس الضغط والشعور بالمهانة والغيظ، مخلفة مزاجا متكدّرا، خفَّتْ حدّتُه تدريجيا، وخالطه شعورٌ بانتصار رمزي على من كان بِوُدِّهم ألا نعبر، ليزول نهائيا من حرارة الاستقبال في المضافة، وأريحية القائمين عليها.

على طريق بين تلال صخرية، كانت تتراءى بين سفوحها خيام البدو، وحظائر مواشيهم، كان الجميع قد نسي الكدر إياه، كأنما لم يعشه منذ ساعة. ظلت تلك الروح اللطيفة تحوم في أجواء الرحلة حتى لمح أحدنا تلّة بعيدة، تصطفُّ على قِمَّتها بيوتٌ مسقوفةٌ بالقرميد، وعلى طرفٍ منها ينتصبُ برجٌ، غالب الظن فيه أنه خزان ماء. سأل أحدُنا رائد عنها، فأخبرنا أنها مستوطنة إسرائيلية.

مستوطنة؟ هنا؟؟ في قلب منطقة يفترض أنها تحت سلطة الإدارة الفلسطينية.. عادت الغصة إلى حلوقنا، وفسدت من جديد بهجةُ اللقاء الأول مع الأرض. رحتُ أفتش في داخلي عن تلك الشّماتة اللذيذة التي أوحت لي بها لافتةُ ربّ الجنود، فلم أجد لها أثراً، وعن تلك الخفة الطافية على وجه الروح بعد استراحة أريحا فوجدتها قد تبخرت، وعن ذلك التجلي الرمزي لانتصار العبور وقد صار دكاً، فالملاعين صاروا هنا من جديد، وما فعله بنا المعبر أكملته المستوطنة.

مشهد ١٥ / جلالة الاسم، ورائحة الحياة

عند مشارف رام الله قابلنا حاجز عسكري إسرائيلي، يشق الطريق نصفين بين قادم ومغادر. كان الحاجز عبارة عن عارضة مرفوعة، ومكعبات من الإسمنت المسلح، وغرفة مراقبة صغيرة، مركبة الجدران من قطع الإسمنت المسلح أيضا، كان الحاجز يقف مثل شوكة في حلق المدينة. عبرت منه السيارات التي كانت قبلنا، ثم عبر باصُنا وئيداً، دون تفتيش، تحت نظرات متكاسلة لجنود يافعين يهدُّهم الضجر. يوشك أن يقذف بهم نحو الخبل. تراهم فتكاد تحسب الواحد منهم تائها بلا أمل في براري بلا ماء ..

ودخلناها، رام الله ..

هل توجد مدينة غيرها بين مدن العالم تحمل اسم الجلالة محفورا على وجهها الصخري؟

بعض تلالها التي كانت قد تراءت لنا من بعيد تحت شمس ما بعد الظهيرة، بدت مثل شفاه فاغرة لصبايا حالمات، وأخرى مثل جباه متشققة لكهول عائدين من حصاد الحقول، وثالثة مثل خدود أطفال نائمين .. كان وجه الله الباسم البسيط يحل في وجه المدينة، وقريبا منه، على تلة في طرف من المدينة كان وجه الشيطان ينتحل صورة جدرانية لتجمع استيطاني، أشار رائدٌ إلى ناحيتها من وراء زجاج الباص .. حيث الجدار الأسمنتيُّ المسلّح العالي الشائك، يشقُّ ندبا كبيرا على وجه المدينة.

مأخوذا بالدهشة لا أكاد أسمع ما يدور بين الرفاق من أحاديث، مستسلما لمناجاة كانت تصلني من المشاهد السائرة عكس اتجاه الباص، مشاهد أول رام الله الجميلة، الأول الذي يُنسي القادمَ الغريبَ أنه مر من معبر لعين، أو رأى وجه الشيطان مرسوما على جدار.

في ذلك الأول منها يرى القادم الغريبُ العمارات العاليات، والبيوت التراثية الباقيات، والأطفال المقبلين، والشبان المتأنقين، والصبايا الحالمات، والشيوخ والعجائز، الباسمين والباسمات .. يرى الحياة .. يرى حركتها، ويشم رائحتها، ويردُّ على المناجاة بمناجاة .. هذا الشعب حي، هذا الشعب لا يموت.

مشهد ١٦/ وحدانية المرة الأولى

وصلنا الفندق، أكملنا إجراءات التسجيل وانصرف كل واحد منا إلى غرفته .. أما أنا فتركت حقيبتي المغدور بها عند مكتب الاستقبال، وخرجت.

خرجت وحيدا قاصدا أن أهيم على وجهي .. فهذا الميقات نادر، وحَيْنُه لحظةٌ فريدة، إن هي وُجدت مرةً، فلن تتكرر، وإن عطفت الأقدارُ وكرَّرتها، فلن تكون أبدا بنفس الجلال الأول. كل شيء هنا ستراه للمرة الأولى، وللمرة الأولى وحدانيتُها الخالصة. تدعوك إلى أن تنطلق وتضيع في مكان الزمن .. دون خريطة، دون هدف. فإن تكاسلتَ أو تمنعتَ؛ عادتْ وطوّحت بك بعيدا في زمن المكان، حيث الفراغ الرحب الذي يمتد داخلك، لحظة تصير فيها نظرتك إلى أصغر حجر مهملٍ على الأرض، كأنها نظرة إلى معجزة ..

سطر عصافير يحط على سلك عمود كهربائي .. معجزة.

حفيف أوراق صنوبرة على الرصيف أرعشتها هبة ريح جنوبية .. معجزة.

رسمٌ على حائط منزل قديم ليدٍ تشهر قبضتها وتتوعد بالكفاح .. معجزة.

صبي يلاعب قطة عند باب عمارة، ألقيتُ عليه التحية، فلم يلق لها بالا، لعله استغرب لكنني.. معجزة.

غمامة بيضاء تترنح وحيدة، في قلب سماء تصبغها شمسُ الأصيل بلون النبيذ .. معجزة.

لساعتين، مشيت بين المعجزات في دروب المرة الأولى، دروب الأشياء والشخوص والمعالم، الصغيرة والكبيرة، تراها عيني، فتجدها شبيهة بنظائر لها في أمكنة أخرى، لكنها هنا جديدة، بكر، لأنها تُرى في المكان الذي لم يُرَ من قبل، رؤية صارت بها المناجاة فرحا رشيقا استخفَّ الأقدامَ المتعبة، وانتهى بها إلى ساحة سوق شعبي يضج بحركة المتسوقين، وتتعالى فيه أصوات باعة الخضار، يُحرّضون بالنداءات المسجوعة على بضاعتهم المفروشة أرضا، كان نظير هذه المعجزة في سوق رام الله التحتا يأتيني من سوق مدينتي الذي كنت أقصده في طفولتي، لا لأجل ابتياع شيء، ولكن، لاقتناص لذة الإنصات لتلك النداءات التي لم يفارقني رجع صداها منذ سمعتها للمرة الأولى.

سرت بين حشود المتسوقين والباعة، وبي رغبة أن أعانقهم واحدا واحدا، أن أصرخ في حضورهم بصوت عال:

اسمي عبد الله، اسم أمي: رقية، قادم من المغرب، واصل توّاً إلى : رام الله.

مشهد ١٧ / حليب البلاد

عدت من السوق إلى الفندق مستقلا سيارة أجرة، قررت هذه المرة أن آخذ وقتي لاستطلع الفندق، نجومه كانت خمسا، و لبهو استقباله أناقة البسيط الفخم، أما باحة مطعمه فتطل على مشهد تبدو منه رام الله غابة صغيرة من العمارات الجميلة المتناسقة،لو زيدت عليها خضرة الشجر لتوهم الرائي أنه في مدينة من مدن التلال الأوروبية، لا بلدٍ يرزح تحت احتلال بغيض يحارب شعبه في القوت كما في الحجر.

أخذت حماما سريعا، غيرت ملابسي وانطلقت من جديد نحو معرض الكتاب، كانت مراسم الافتتاح الرسمي قد فاتتني، إلا أن الوجوه التي التقيت بها هناك أشعرتني أن جيناتي تصطبغ بفرح قديم، يصعد إلى القسمات، مثلما يصعد صدى نداء من جوف بئر عميقة، عانقت الأحبة فشممت روائح البلاد، البلاد التي رضعنا حبها القدسي في حليب الحكايات التي رواها لنا الأجداد والآباء،

يحيى يخلف. كرمة الحكي الأصيلة تعرش فوق البُروق

محمد الأسمر، حبيبٌ لا تبلى في القلب محبته

رائد فارس، كنز لا يمكن العثور عليه إلا هنا

نوال حلس، أخت روح تجود على العالم بابتسامة كنعانية

حسني رضوان، دمع الذاكرة يسيل بالفرح

نادر جلال، تعالوا ندرز جرح النوى بخيوط الموسيقا

غسان زقطان، بريٌّ مديح هذا الطائر الذي يخرج من أعالي المرايا

زياد خداش، إلى جُبّة الطفل تعود الحكايات التي اساقطت على الأرض تباعا

وائل مناصرة، ذئبا وحشة نحن يا صديقي، وهذه الألفة غابتنا المفردة

خلود عبد الله، أثر الغزالة يبقى، ويزول حزن النهر.

يارا فارس، لو كانت فلسطين صبية؛ لكانت لها عيناها

بتول القيسية، نوّار الجنوب يزهر في شمال الليل

عبدالسلام العطاري، عزف الرعاة يُخضِّب ترابَ الزيتون.

بديعة زيدان، شغب الكلمات، شغف الحياة،

عبود الطريفي، قادم فجر الخلاص يا فتى الغضب الجميل،

عجوز لا أعرفها، في هندامها المديني الفاخر، كأنها حدستْ أني مغربي، فابتسمتْ في وجهي بحنو أمومي، وأخبرتني أنها زارت المغرب مرات، وأن طنجة عندها أجمل من كازابلانكا، صافحتني في نهاية الحديث فقبّلتُ يدها (بذوق الابن المطيع).

مشهد ١٨ / من زاوية الرؤية الآمنة

أخذت كوب القهوة، وبحثت في الرواق المفضي إلى صالة العرض، عن مكان اقتعده، وجدتُ رقعة فوق وجه رصيف الحديقة التي عند جانب السور المحيط ببناية المعرض، هناك أشعلت سيجارتي، وشرعت تحديقا في الجمهور من زاوية التلصص الآمن .. خَيَّلت لي مسافةُ التراجع عن المشهد أني أشاهد تسجيلا فيلميا، أو كأني أستعيد من قلب اليقظة حلما تجري وقائعه أمامي مباشرة وفي حينها. وبدأت أهذي مقاطع الحكاية التي سأجدني أرويها حين أعود، أرويها لأمي التي تحب فلسطين، وترسم لها في مخيلتها صورة الأرملة تقاتل بأسنانها وأظافرها كي تحمي أولادها، لزملائي في العمل حين يأتون لتهنئتي بالعودة، ككل المرات التي كنت أغيب فيها عن أنظارهم لأيام عديدة، لخالد وعبدالقادر والمحمَّدين، أصدقاء الصبا الخلص، للبكَّاي صديقي المغترب الذي سمعته مرات يتضرع إلى الله كي يجيء به إلى هذه الأرض ويقتله شهيدا عليها، (يقتله) .. بهذا اللفظ القاسي كان البكّاي يعبر عن أكثر أمنياته الطالعة من النقطة الأعمق في روحه ..

هنا يا أمي ويا كل من أعرف، هنا شعب جميل، جميل وأصيل ..

لكن، يا أمي ويا كل من أعرف، هل سأستطيع أن أعرف كيف أروي وأصف تفاصيل هذا الجمال الذي أراه الآن أمامي مباشراً وفي حينه .. من يستطيع يا أمي أن يروي حلما كما رآه؟!

أمي قصّاصة الأحلام البارعة، حين علمت أني ذاهب إلى فلسطين، تملكها الخوف، فحاولت ما يشبه ثنيي عن السفر، وحتى بعد أن أحرجتُها بلؤم، وذكَّرتها كيف كانت تزمجر غضبا أمام مشاهد الإجرام الصهيوني الذي كنا نراه على التلفزيون، فتصرخ: يا ربِّي هل من سبيل للذهاب إلى هناك، لو يعطوني متفجِّراً ناسفا أدسُّه تحت جلبابي ، حتى إذا اقتربت من هؤلاء الملاعين فجرته في وجوههم.

حين ذكّرتها بسيرتها تلك؛ أجابتني: أذهب أنا وأستشهد دون تردد، أما أنت فلا.

أمام التلفزيون، وهي تتابع الأخبار، لم تكن أمي تأسى على روح الشهيد الفلسطيني، بقدر ما كانت تأسى على قلب أمه المفجوعة من بعده.

أمي التي تحب فلسطين تكره الصهاينة، وتنعت بالصهيوني كل قاسي القلب عديم الحنان من معارفها أو أهلها، وحين كانت تخاف علي أن أصاب بنزلة برد من حمام البيت في شتاء وجدة القارس؛ كانت لا تذخر وسيلة كي تدفعني دفعا للذهاب إلى الحمام البلدي، وحين أعود منه كانت تهنئني، وتخبرني باسمةً أن لي من حمَّامي أجرا غير ممنون، كأجر من قتل صهيونيا، فقتلُ الصهيونيِّ ونزع الأوساخ والجلد الميت، عند أمي، سيان.

مشهد ١٩/ على خيط مسحور

بقيت على حالي ذاك مستغرقا في زاوية الرؤية الآمنة إلى أن رمقني علي، حاملا كوب قهوته، تقدم نحوي وقعد جنبي.. .. كان اقتسامنا رقعة على حافة الرصيف، وكوبا القهوة في يدينا والسيجارتان بين الأصابع، يشهد على صداقة قديمة قدم زمن المعبر الذي بدا بعيدا متواريا خلف شريط المشاهد التي مرت، حتى لو لم نكن قد تبادلنا منذ عمان إلى هنا والآن سوى جمل قصيرة، بعضها حين كنا نعبر.. وأخرى سبقتها نظرات صامتة تبادلتها عيونُنا، دهشة بنفس القياس من منظرٍ كنا نراه سوية في نفس اللحظة، ونحن نخرج من المعبر، أو في رحلة الباص الذي ذهب بنا من المضافة إلى رام الله.

عليٌّ يكون مثلي، لأنه يعيش التجربة للمرة الأولى .. ولن أقدر أن أكون مثل عليٍّ في تمثل رهباتها .. فجينيالوجيا الذاكرتين مختلفة، حتى لو كان قياس الدهشة بيننا واحدا، حتى لو كنا نكاد نروي، بنفس الأسلوب والمفردات، مشهدَ الاشتباك البصري الأول مع جنود الاحتلال .. وحالة الاستغراق الذهني في ما تراه العين .. وانشراح البصيرة من رؤية التراب والعشب عند جذع الجميزة العملاقة في أريحا.. علي فلسطيني ولد في بيسان، وما تملكه روحه وبصيرته وذاكرته ووعيه جاءه مما انتقل إليه عبر آخرين .. الأن ينوجد عليٌّ على الأرض .. قدماه تكتشفان الخطو من جديد، فالأرض غير الأرض، والتراب غير التراب.. حتى العطش مختلف هنا، لأن الماء الذي يرتوي منه الآن غير الماء .. عليٌّ حين شاهد فراشة تابعها بلهفة عين، وحدق طويلا في السماء التي كانت تحط بجانب العصفور، فمد يديه إليهما وسحب نطفة من غمامة أمطرت في عينه دمعا ساخنا .. علي يكتشف اللغة والعالم من جديد .. علي يعود ويتَّحد مع رحمه الرمزي، .. يولد من جديد بتاريخ متجذر قديم.

علي العامري في فلسطين يخطو مسحورا على خيط من نور.

مشهد ٢٠/ وعليه ..ولا يمكن

غربت أول شمس هنا، وحل ليل رام الله.

عائدا إلى الفندق رفقة مجموعة ضيوف، كانت المدينة تُدخل كهولها وعجائزها إلى البيوت، وتخرج شبانها إلى المطاعم والفنادق، أما عنِّي، فقد كنت متأخراً بدقائق عن موعدي مع رائد. حين وصلت إلى الفندق وجدته ينتظرني في البهو، تشابكت أكتافنا وتعانقنا كما لو أننا نهنئ بعضنا على خروجنا تواً من المعبر، ثم تبادلنا ضحكتين لئيمتين.

سحبني رائد من يدي واستقلينا سيارته سائرين دون وجهة محددة، بعد نصف ساعة كنا نتوقف دونما قصد معين أمام مقهى، ولجناه لاستراحة خفيفة. باحثين بين الطاولات عن واحدة.

المقهى البار كانت طاولاته محجوزة كلها تقريبا لجمهور يستعد لمتابعة نقل مباشر لمباراة كرة قدم بين الغريمين الإسبانيين. فلم يشأ النادل أن يفوت حصتي زبونين إضافيين، لذلك قَبِل أن نجلس على طاولة في ركن قريب من المدخل، بدل الطاولة المتقدمة التي اخترناها أول وهلة، نظر إلي رائد كأنما يطلب رأيي في اختيار النادل، فأجبته عفويا : «..وعليه».

طلبنا مشروبين، غير عابئين بالمباراة التي ستنقلها شاشة تلفاز كبيرة، فيما كان الزبناء الآخرون يتحرقون انتظارا لها، بعد لحظات وصل زبونان جديدان، فاقترب منا النادل متوددا أن نغير الطاولة لأنها محجوزة لهما، واقترح علينا طاولة متأخرة، هنا نظر رائد في وجه النادل نظرة لم يكظم فيها غيظه، وأردف عفويا : «.. ولا يمكن!».

بدا النادل كأنه في ورطة، ولم يجد بُدّاً غير تصعيد إيقاع النبر في حديثه ليثبت لزبونيه أنه يستفرغ الجهد لأجلهما، وأن المشكلة في فظاظتنا لا في تفريطه الأول في الطاولة، لكن رائد الذي التقط الإشارة عاد وكرر في وجه النادل عبارته الحاسمة: «ولا يمكن! لو جات علي لوحدي لهانت، لكن هذا ضيفنا من المغرب، بدكم تفضحوني !». قالها وهو يغمزني خفية. عن عيون الحضور الذين انتبهوا للمحادثة.

غيرت العبارةُ جوَّ الموقف، ونقلته من الحدة إلى اللين، أما النادل فتراجع عن تصميمه، وأما الزبونان فانضما إلى طاولتنا .. وانطلقت المباراة، وصارت تصلني تحايا الترحيب من الشباب والصبايا .. «مرحبا» من هنا ومن هناك .. «بنحب ناس المغرب» .. « ابن خالتي يدرس عندكم، أمنيتي أزور المغرب» .. «أنت من فاس؟» .. «أحب المغاربة والجزائريين لكن أحب التوانسة أكثر «.

كان شعوري بالسعادة غامرا، تخالطه إثارة لطيفة، فالجمهور الذي لن تخلو روح كل فرد منه من

شعور بالأغلال التي تقيد الحركة فوق هذه البقعة من الأرض، سيثيره لاشك، وجودُ قادمٍ من أقصى الغرب، يمتحن هذا الشعور، أو يعمقه، لست أدري! .. لكن أسئلةً بدت لي خلف العيون التي كنت أرمقهما وهي تتخون نظرات سريعة إلي .. عيون من تصنعوا للموقف بداهة العادة، تُرى كيف وصل هذا إلى هنا؟ ومن أي معبر جاء؟.... فيما أنا الزائر الغريب الذي يتخيل الآن ألوفا أو ملايين في مقاهي وبارات عواصم العالم ومدنه وهم يتابعون ذات المباراة، في ذات الوقت، دونما أسئلة سوى سؤالٍ عن أي الفريقين سيفوز بالمباراة؟ ذات الزائر الغريب يرى بأم عينه كيف يصر شباب هذا الشعب وصباياه على ممارسة الحياة، واجتراح ألف سبيل إليها.. ويستطيعون كثيرا منها، رغم حصار العدو الذي يرى في وجودهم تهديدا لوجوده، ويرى في فرحهم نكاية بجبروته،... وعليه ولا يمكن للحياة إلا أن تبسط لهم مباهجها التي تبدأ من فرجة على مباراة كرة قدم، ولا تنتهي عند تحقيق حلم الخلاص التاريخي .

انتهت المباراة، وتطاول ليل رام الله، مرتحلا بنا من مقهى إلى مطعم إلى حانة إلى ساحة إلى أن تلاشت عتمته مع أولى خيوط الفجر.

اليوم الثاني

مشهد ٢١ خَرَسانة وزهور

أربع ساعات من النوم كانت كافية لأستيقظ بمزاج رخيّ، راقَ أكثرَ بالضوء الذي شعَّ في الغرفة حين سحبتُ ستائرَ النافذة. نِثارُ غيماتٍ صغيراتٍ يُزَوِّقن سماءَ الصباح الأوّلِ في رام الله.

أخذت حماما سريعا، ثم فطورا العاشرة والنصف، وانطلقت خارجا، استوقفت أول سيارة أجرة في اتجاه المعرض، وطلبت من السائق أن تكون الرحلة عبر أطول طريق ممكن، استغرب أول الأمر من طلبي، وبسؤاله لي عن جنسيتي فَهِم ما أرمي إليه. فزائرٌ في مِثل حالتي يريد أن يرى أكثر ما يمكن له في كلِّ سانحة من الفرص، ورحلةٌ في سيارة أجرة تتيح قُرْبا خاصّاً يصير مع مرور اللحظات حلولاً كاملا في المشهد، فترى العين من ذلك مالا تراه في مواقف أخرى.

في الطريق تجاذبنا، أنا والسائق الخمسيني، أطراف حديث متقطع، أكثره ما حدثني فيه عن رام الله التي كانت مصيفا صغيرا وجميلا، تأتيه العائلات من المدن الأخرى لجوِّه المحمود، ومناظره الخالبة، غير أنها لم تكف منذ التسعينات عن التحول من مستعمرة للزهور إلى غابة من الخرسانة والصخر، بسبب ما عرفته من التغيرات التي انتقلت بها من مدينة صغيرة إلى مركز للسلطة الجديدة، ودارٍ لصاحب القرار السياسي، وأيضا مما ورد عليها من الوافدين

الجدد، وأصحاب رؤوس الأموال، وهو ما رفع بوتيرة عالية أسعارَ العقارات وكلفةَ المعيشة في كل أحوالها، وأظهرَ في البلدة التي كانت تصطبغ بخصائص الريف سلوكاتٍ مدينيةً لا تُلقي البال كثيرا للرقابة الاجتماعية.. السائق الكهل الذي أخبرني أنه قضى ردحا من طفولته في رام الله، بدا مشحونا بالغيظ والأسى معا، كأنما كان يريد أن يقول: لا يغرنَّك ما ترى، وما إلى مثل هذا تخيَّلنا أن الأمور ستؤول!. .. مع مرور بعض الوقت صار يُبدي بهجةً عفويةً بِوصف الأماكن التي كنا نمرُّ منها، عبر شارع النزهة، وفي اتجاه دوار الساعة، ميدانُ الاعتصامات عند الفلسطينيين، ثم منه عبر شارع يافا مرورا بمضايق كانت تُدْخِل العينَ في زمن غير زمن الشوارع الرئيسة، ففيها ترى من المدينة وجهَها الأول، حيث البيوتُ الأقدم، بحدائق مداخلها وشبابيك شرفاتها ومُربَّعات الصّخر التلي المنحوت على واجهاتها، وسنواتُ تعميرها وأسماءُ أصحابها محفورةٌ على قطع مرمرٍ تكلِّلُ أبوابَها. ثم ما نلبث أن نعبر في خلاء من الأرض تربِضُ فوقه آلياتٌ ثقيلة ذواتُ مناقيرَ وأنيابٍ من فولاذ، تقضَم بها صخرَ التّلال، وتجتثُّ ما نبت فيها من زهر، لتحفر فيها جيوباً لخرسانة البناية القادمة.

مشهد ٢٢ أخو المستحيل ..

وصلت إلى المنتزه الترفيهي حيث معرض الكتاب، الجمهور يملأ جنبات المكان، وتغصُّ به أجنحةُ العارضين، جمهور من كل الأعمار، وأكثره يافعون ويافعات أو أطفال في رفقة آبائهم، كان المشهدُ الذي كنت أراه يُصدِّق شعارَ المعرض، «فلسطين تقرأ». انغمستُ بين الجموع في جولة داخل صالة العرض الكبرى، يملؤني الإعجاب بحسن التنظيم، فمعرض فلسطين العاشر بِعَيْن واحدٍ مثلي، سبق له أن نظم معارض للكتاب، وزار في مرات كثيرة معارضَ عربية وغير عربية، لن يتردد أن يشهد بأن هذا المعرض، على تواضع مساحته؛ يضعُ قَدَمَهُ راسخةً على خريطة المعارض العربية، بحسن نظامه وجمال تهيئته، وهو، كما وصفته أمس في جوابٍ لأحد الصحافيين؛ معرضٌ أخو المستحيل.

فالقائمون عليه يبدأون التحضير له بشهور وهم يعلمون أنهم يجازفون، لأن لا ضمانة لديهم من أن إسرائيل، التي يسميها العالم دولة ديموقراطية، سوف تسمح بالمرور للكتب الموجهة إلى المعرض، أو تصرح بالعبور للعارضين فيه ولضيوفه من المثقفين، وهذان الأمران هما ما يحققان معرضا ما على أرض الواقع، لكن أرض الواقع هنا صلدة وناتئة يملؤها ضابط الارتباط الإسرائيلي بألغام التسويف وتأخير التصريحات، يفعل ذلك مُراهناً على تحطيم عزيمة المنظمين، ليُؤَخَّرَ المعرضُ إلى أجلٍ غيرِ

مُسمًّى، أو ليفشلَ إنْ هو نُظِّم. وهو لذلك أخو مستحيل، كما وصفته، ومن يراه على صورته يَتيقَّنُ أنَّ مُنظِّميه صعدوا به، كما يصعدُ بصخرته وينجح سيزيفٌ عَنيدٌ.

تحت سلاح الدولة الديموقراطية، ينظم الفلسطينيون معرضا للكتاب، دوليا وأنيقا، يغيظون به عدوَّ حريتهم، الذي يكره أن يرى صغارهم يمسكون سلاح الكلمة على الورق، بنفس القدر الذي يكره أن يرى كبارههم يحملون سلاح البارودة على الأكتاف.

قادتني الجولة في المعرض إلى أجنحة العارضين القادمين من وراء المعبر، مصريون وأردنيون وكويتيون ومغاربة وتونسيون .. يلهجون هنا بألسنتهم، يسمعها الفلسطينيُّ زائرُ المعرضِ الفلسطينيِّ فيداخله منها تَأنُّسٌ ما، فتنازعه نفسه إلى جذب طرف حديث مع هؤلاء الأشقاء، وكأن سماع تلك اللكنات يخلخل شعورا جاثما في داخله، شعورا بأن هذا (الوطن المحتل) سجن كبير، الوصول إليه بالنسبة لكثيرين عسير، والخروج منه بالنسبة لأكثر منهم أخو مستحيل.

مشهد ٢٣/ النسر في الزنزانة .. النسر في السماء

في البهو الذي يتوسط فضاء المعرض كان زياد يفتح لي ذراعين للمحبة التي نشأت بيننا في العالم الافتراضي، وانتظرتْ طويلا قبل أن تتحقق على الأرض هنا، تعانقنا. وعرفني إلى ميساء، فلسطينيةٌ في نظرتها هدير، وفي صوتها رائحة الأرق النهاري، وحين تبتسم تخال أنك ترى زيتونة تزهر بالنسرين.

شرب ثلاثتنا قهوة فلسطينية، غادَرَنا زيادٌ بعدها فاتحا ذراعَ محبة أخرى لقادم جديد، ثم دعتني ميساء إلى زيارة فضاءٍ في الطابق السفلي للمعرض لتطلعني على مفاجأة هناك.

نزلنا درجا يُفضي إلى قبو فسيح، هيأه المنظمون ليكون مُجسَّماً يحاكي دهاليز المعتقل الإسرائيلي، وأطلقوا عليه اسم فضاء الحرية.

ممرات تتتابع الزنازين بين جانبيها، مطليةٌ جدرانُها بألوان قاتمة، أولاها لغرفة تجريد الأسير من أغراضه، ثانية للتحقيق، وثالثة للضغط النفسي، بِحَيِّزٍ ضيّقٍ لا يسعُ الأسير جالساً أو مُقرفصاً، وسقفٍ واطئٍ يجبره على البقاء طول الوقت واقفا مَحْنيَّ الهامة كي تضغط فقراتُ العنق على مفاصلها حدَّ العُواء من الألم، ثم غرفةٍ رابعةٍ لانتزاع الاعترافات تحت التعذيب بأصناف من الكراسي والحدائد التي تجعل الروحَ تَئِنُّ دون أن تسيل من الجسد قطرةُ دمٍ واحدة. وأخيرا يقذفون به في غرفة يسمونها غرفة العصافير، كأنما يأخذ الأسير في لاوعي سجَّانيه صورةَ نسر، فلا يُصاد إلا بذريعة أو بطُعْم، والطُّعْمُ ليس إلا عملاء يهود يلعبون أمام النسر دور أسرى فلسطينيين، يستدرجونه

بالتعاطف كي يُلقي أمامهم ــ وهو المُنْهَك المُستنزَف ــ بالأسرار التي لم يقدر أن يُحصِّلَها منه ضابطُ التحقيق.

في الجولة رفقة ميساء بين غرف المعتقل، مرت الثواني بطيئة وثقيلة، ثوان كانت فيها الأنفاس والحواس تضطربان من تجربة السجن التي يريد المكان أن يحاكيها، فَتَعْبُران، في غفلة من الوعي، تلك العتبةَ الرفيعةَ الفاصلةَ بين فخِّ التخييل وهُوَّة المعايشة، مُخَلِّفَة مشاعرَ متصادية بين معاناة الزمن تحت وطأة الهلع الآدمي الأول على استلاب الحرية، وتَحَمُّلِ البشاعةِ الطافحةِ من عجز الحقِّ أمام القوة.

الآن ..

في الزنازين الحقيقية التي تحاول هذه الديكورات أن تتشبّه بها؛ يقبعُ من نسور فلسطين وعِقبانها الجارحين سبعةُ آلاف أسير، نساء ورجال، أمهات رفقة مواليدهن، يافعون وأطفال. كلهم عاش تجربة اليوم الأول هنا، وكلهم فكر في (المكان) الأوسع من زنزانة، و(الزمان) الأطول من عمر الظل نهاراً على حائط الزنزانة، وكلهم .. كلهم ينتظر يوما آتٍ تطأ فيه الأقدام تراب ما وراء الزنزانة، ومنهم من أكمل تعليمه، ومنهم من واصل دراسته وأحرز شهادته العالية، ومنهم من هَرَّب نطفته فأنجب، وهو المسجون، طليقاً من صُلبه.

في نهاية الجولة كان كَرْبُ التجربة قد بلغ أقصاه، وكان وجه ميساء الهادر يتماسك كي لا يفلت دمعة النسرين، خرجنا من مخرج ينتهي بزاوية هيأ فيها المنظمون معرضاً للوحاتٍ رَسَمَ فيها الأطفالُ أطفالاً وبيوتا وأسلاكاً وأشجارا وتلالا وأزهاراً ...، وسماواتٍ تحلق فيها النسور.

مشهد ٢٤/ الـ٤٨ــعــين وطن

صادفت زيادا ثانية، وعناقٌ كأنه الأول، رجوتُ منه أن أشهدَ حصةً مع فتيان فصله الدراسي، نغني، نرقص، نصرخ، نعانق صخورا، نتحول فراشاتٍ، نتبعه وهو يقودنا إلى القفز من فوق حائط المدرسة، لكنه أخبرني أن رجائي لن يتحقق بسبب عطلة الأطفال في هذا اليوم. عانقته ثالثة، وصعدت إلى مقهى، هناك كان الجمعُ يضمُّ على طاولة واحدة خالدا وغسانا وخلودا، ثم انضم إليه بعد حين غياث وأسماء وآخرون لا أعرفهم، وسألهم مما دار من الأحاديث أنهم من فلسطيني الداخل.

فلسطينيو الداخل حكاية أخرى، كلما فكرت في أحد أعرفه منهم، أدهش من حالته داخل مُمْكِنات الحالة الفلسطينية الجامعة، قد يكونون أحسن حالا من سواد شعبهم معيشةً، لكنها أحوالٌ تُعاش في البِضْعَة المحاصَرة داخل الحصّة المسلوخة من جسم الوطن. أبناءُ أرضٍ وجدوا أنفسهم

(مواطنين)، دافعي ضرائبَ في الدولة التي سرقت أرض شعبهم، يمرون صباحا من المعابر إلى هنا، يقضون نهارهم، يزورون أقرباءهم ومعارفهم، يذهبون إلى مواعيد مع من يحبون، يشربون قهوة الوطن الثانيةَ، ثم يغادرون في المساء إلى بيوتهم في (إسرائيل)، يمرون عبر المنافذ من الوطن المحتل إلى الوطن المسروق كما يمر سيخ في بؤبؤ عين.

أي عبء ثقيل تنوء به أرواح هؤلاء !! أي تمزق، أيُّ انكسار ، أية غُصّة ...؟؟؟

ومنهم صنفٌ حالُه أدهى، مقدسيون لا يحوزون جواز سفر أو بطاقة هوية إسرائيلية، تسميهم دولة الاحتلال مقيمين لا مواطنين، وتسلمهم بطاقات زرقاء، فإنْ طرأَ للواحدِ منهم ما يُجبره على الغياب في الخارج لفترة، أو ما يحول بينه وبين أن يثبت إقامته بعقود إيجار أو فواتير كهرباء؛ عادوا وسحبوا منه بطاقته ليفقد في رمشة عين حقَّه في العودة.

لفترة طويلة جُلِدَ هؤلاء بسوط السؤال عن انتمائهم، وغريب جدا ما كان يقع لهم مع بعض بني وطنهم من الفلسطينيين، ومبكٍ مضحكٌ، ومؤذٍ جداً ما كان يقع لهم في مطارات بني جلدتهم من العرب.

(.....)

تفرّقتْ أحاديثُ الطاولة شجوناً شتى،.. ثم تفرَّق الجمعُ بعدها عن كؤوس فارغة، استقرت في قُعورِها ثمالةٌ قاسيةُ السَّوادِ، كأنّها بؤبؤاتُ عيونٍ مفقوءة.

مشهد ٢٥/ أرض الموسيقا

مغادرا، شاهدتُ وائل مناصرة وهو يوشك أن ينطلق بسيارته من أمام باب المعرض، استحثني بحركة من يده على الإسراع، صعدتُ، فإذا برفقته نادر، هذا الفلسطيني الفريد، صاحب ستين ألف نكتة جاهزة تحت اللسان، وثمانية وعشرين حرفا على طرفه، تغيِّرُ مواضعَها في طابور الكلمات، فتنقشع عن ذلك سخريات بيضاء و سوداء وملونة. ومن ضربات أصابعه على الوتر تطلع أنَّاتُ ما كان، وأشجان ما لم يعد، وفي باله حُلْمٌ .. حُلْم؟ بل هَمٌّ .. همٌّ كبيـــــر.

سرنا بالسيارة لربع ساعة أو يزيد، إلى أن وصلنا أمام بيت ذي طراز تراثي عشريني، بحديقة في المدخل، وطابق أرضي، وعِلِّيةٍ بشرفات صغيرة، إلى هذا المكان الذي لم يكن نادر جلال يعرف أنه ولد فيه قبل خمسين سنة وعاش فيه عامه الأول قبل أن تغادره الأسرةُ؛ يعود اليوم نهاية كل يوم. ليرمم ذاكرة موسيقى شعبه.

اختار نادر أن يكون البيت مقراً لمؤسسة (نوى) التي يديرها، ويطمح بها إلى إحياء التراث الموسيقي الفلسطيني المغمور، الذي يجهله كثيرون، وأنا أولهم، ويجهلون أعلامه ونوابغه، ممن أسهموا في تأسيس قواعد الموسيقى العربية الحديثة. وكان نادر قد حدثني بِسِيَرِهم حين لقائنا العام الماضي في المغرب، وقت حلت فلسطين ضيف شرف على معرض الكتاب بالدار البيضاء.

دخلنا غرفة هي مكتبه، امتدت يدا نادر إلى درج فأخرج منه تحفة زجاجية، وصبَّ في الكؤوس الثلاث ماءً كأنه الذهب، ودون أن ينتبه له أحد منا، شغَّل مُسجِّلا صوتيا، فطلعت منه أنغامٌ شاع منها في المكان شجن قديم تيقظت له الأذن، فانتبهتِ العينُ لحظتئذ للقطع التراثية والآلات الموسيقية التي تتناثر في الزوايا، وكأنما انكشف سر ما بينها وبين الأنغام من حوار في الزمن، زاد على ما بينها من حوار في المكان. كانت الأنغام لموسيقار فلسطيني لم يسمع به كثيرون من قبل، موسيقارٌ أطرب من أول ما غنّى في القدس أمام محمد عبد الوهاب، وفي يافا في حضرة أم كلثوم، حدث ذلك في الثلاثينات من القرن الماضي، والفتى لم يجاوز العاشرةَ من عمره. انتهت القطعة التي كانت لروحي الخماش، وانطلق نادر يحدث عن عمله الشاق والممتع في آن لجمع الذخيرة الموسيقية الفلسطينية المتناثرة في مصر والعراق ولبنان والأردن وغيرها من بلدان الشتات، وزادت الحماسة في نبرته وهو يحكي عن مشروعه القادم، الذي يخصصه لموسيقار ثان، هو محمد غازي الذي كان عارفا بالموسيقى العربية، عليما بأسرارها، بارعا في مقاماتها، ما جعلَ منتجا موسيقيا فلسطينيا هو صبري الشريف يعتمد عليه وقتئذ في تدريب مغنية صاعدة اسمها فيروز على أداء الموشحات والأدوار. ومن غير غازي والخماش سردَ نادرٌ أسماءَ موسيقيين آخرين، رياض البندك، يحيى اللبابيدي، يحيى السعودي، يوسف خاشو ... وآخرين كُثُر، كلهم دَرَسَت آثارُه، وعَلَت اسمَه أتربةُ النسيان، بعدما فَرَّقت النكبةُ بين موسيقاه وأرضِه.

مشهد ٢٦/ صوت من القلبِ، جرح في التّراب

غادرنا (بيت نوى)، وفي أيدينا كؤوسُنا وما تبقى في تحفة الزجاج من ماء الذهب، وانطلقنا تلوي بنا السيارةُ الشوارعَ والطرقات في كل اتجاه، ونكاتُ نادر تكادُ تفجِّر قلوبَنا من الضحك، ضحكٌ عميقٌ يأتي من وراء الأشداق، والفم وما حوى مجرّدُ مُكَبِّرٍ للأصوات البرِّية الطالعة من القلب.

سائرين في اتجاه منطقة الطيرة، المحاذية لرام الله، وصلنا عند تلَّةٍ يَرى منها الواقفُ عليها أضواءَ مدينة يافا ويلمحُ خطوط انكسارها على البحر، أمام هذا المشهد تَرَجَّلَ خمستُنا؛ الليلُ وأنا والصديقان والحكايات.

الليلُ، الليلُ الذي يصير في هذا المكان مبصراً.. فيُرى فيه غَربُ الأرضِ المحتلة وبحرُها بالوضوح الذي لا يستطيعه النهار.

أنا، أنا القادمُ من المكانِ البعيدِ، الواصلُ هنا، الواقفُ الآن على خط المواجهة بين الذاكرة والمخيلة والجارحة، أطَّلِعُ اللَّحظةَ، على جرحٍ سِريٍّ في أدغال الجروح الشاسعة لهذا التراب.

الصديقان، نادر يُهَمْهِمُ نَغَماً يجرحُ به جُرْحَ التراب، ووائل يقفُ في هذه العتمة قبالة تلك الأضواء منهكاً، مكبلاً، مهزوماً، موجوعاً، مخذولاً، مخنوقاً، خائباً، ومكسوراً أمام هذا التُّراب الجاثم على زفراته.

والحكاياتُ، أشلاءُ الحكاياتِ، حكاياتُ الناس الذين هُجِّروا من بلداتهم، مخلفين وراءهم الضيعة والبيت وجرار الزيت وأشجار اللوز وأصوات القلب والذكريات.

مرعبٌ وقاتلٌ شعورُ من يقف على التلَّة في «الطيرة» ويرى بطفلِ عينِه ما سرقَتْهُ منهُ ذاتَ ليلٍ بصيرٍ أيادٍ غريبةٌ مُسلَّحَةٌ، جاء أصحابُها من بعيد.

ستون كيلومترا تقطعها أشلاءُ الضّوء لتصل إلى هنا، ستون كيلومتراً من التراب تراها العيون، ولا تستطيع الأيدي أن تقبض منها قبضة، ستون كيلومترا، من هذا العُلوّ، تتلهَّى بها الأصابعُ، كلما حاولتْ أنْ تقبضَ على أشلاء الحكايات المعلقة في خيوط الضوء المتلاشي؛ صعدتْ ستون ألف زفرةٍ فلسطينية، كل زفرة منها تنتظر أن تصير ذات يوم صوتاً برِّيّاً طالعاً من القلب، أو نَغَماً سِرِّياً يُهَمْهِمُهُ التُّراب.

اليوم الثالث

مشهد ٢٧/ كتاب الولد الفلسطيني

عدتُ إلى الفندق منهكاً، خائباً حزيناً، تعضُّني الكآبةُ. ألقيتُ على الفراش جسداً تضطرم في صدره زفرة الكنعاني، ونمت.

في الصباح كانت الذاكرة المتشقِّقة تطاردُ وقائعَ الحلم الذي مرّ، كانت تعود ثلاثين سنة إلى الوراء، فيطلع منها صوت (سي محمد قايدي)، يا إلهي ما أقدم الذكرى!، وما أقدر الذاكرة على الحفر بفؤوس الحلم، لإيقاظ الحياة في ما حنَّطَه الزّمنُ من مومياوات الصور. سي محمد قايدي معلم السنة الرابعة تحضيري، رجلُ الصّوت المبحوح من شراهة التدخين يروي لنا قصة اسمٍ كُنَّا نسمعه ولم نكن نستوعب معناه .. (فلسطين)

عن فلسطين؛ روى حكاية العصابات المدججة بالكراهية تدكُّ المدنَ بالقنابل، تتسلّلُ من وراء الأشجار المعمِّرة في باحة الأقصى وتَقنِصُ الأرواحَ، تهجمُ في القرى الصغيرة على المزارعين، تقتل الرجالَ والنساءَ ولا تستثني الأطفال، وتترك عمداً بعض الأحياء يفرّون إلى النّجاة، ليرووا من الأهوال ما يُخيف الناسَ ويدفعهم إلى الهروب. معلمي سي محمد قايدي روى كل ذلك وهو يدخِّن بشراهةٍ تبغَه الأسود، وينفث دخانه الغاضب من النّافذة، فيما كانت عيناه تتأمّلان الثقوبَ السّوداءَ التي حفرتها كلماتُه في قلوبنا الصغيرة. مُطْرقاً أعطانا أوراقاً بيضاء ثم غادر غرفة القسم بعيون مبتلة.

رسم الأطفالُ حرائقَ حمراء على الورق، ورسم آخرون وحوشاً تلتهم الأشجار والأحجار والناس، وبقيتْ ورقتي صامتةَ يصعقها البياضُ. في المساء عاد الطفلُ (الذي كنتُه) إلى البيت، عاد منهكاً، خائباً حزيناً تعضُّه الكآبة، ونام.

في الصّباح كان الطّفلُ يكتب على الورقة حلماً رآه، عن فلسطينية، ترقد أمُّها في فراش المرض منذ استشهد أبوها، لكنها واصلت كفاحه باجتهادها، وأصرَّتْ أن تعمل معلّمةً لتروي للأطفال حكاية وطنهم المسروق، وتحثهم على القتال لاستعادته، وذات يوم بعدما أنهت درسها، قامت وودّعت بالعناق تلاميذَها واحداً واحداً، ثم ركبت سيارتَها المفخخة، وانطلقت مسرعة بها .. مرت دقائق، وسُمع في المدينة دويٌّ انفجار كبير دكَّ الثكنة الاسرائيلية القريبة.

أخذ الطفل ورقته إلى معلّمه، الذي قرأها ثم كتب على صدرها كلمتين: (الإصرار والانتصار).

كانت تلك أول صفحة في كتاب الولد الفلسطيني .. (الولد الذي كنته)، الولد الذي كان يحلم أن يحرر فلسطين كي لا يرى البلل في عيون معلمه.

مشهد ٢٨/ صرخة في مرآة

في المعرض هذا الصباح صادفتُ وجوها كثيرة، هي نفسُها وجوهُ الأمس ومعها أخرى جديدة، كان صعباً تمييز الوجوه بين حشود الزائرين، فازدحام اليوم الثالث أشدُّ من سابقيه. ولم يكن ممكنا أن تمرَّ في تجوالك دون أن تنحشر بين اثنين، فأهل رام الله والبيرة وما جاورهما من بلدات صاروا يفدون إليه، وحتّى من المدن الأخرى، الخليل ونابلس وطولكرم؛ تقاطرت على المعرض باصاتُ التلاميذ والطلبة.

وسط الحشد سمعت نداءً عليَّ، كان من خلود ومعها رائد وحسني رضوان، الفلسطيني ذو الوجه المنحوت، بشارب بغدادي خفيف، خالط فيه البياضَ الخمسينيَّ سوادُ اليفاع الذي لا يحول . كان

حسني يستند إلى عكاز، بسبب وعكة ألزمته البيتَ في الفترة الاخيرة، إلى أن جاء زمن المعرض، فأغراه بالخروج، اقترحت خلود أن نحتسي قهوة في مكان خارج المعرض، على أن نعود في الظهيرة أملا في أن يكون الازدحام قد خفَّ.

وصلنا إلى (زمن)، مقهى جميل يرتاده المثقفون وشباب الفنانين، ويجد فيه ذوو الصبابات زوايا يفصحون فيها بما يكنون في أماكن أخرى، جلسنا حول طاولة بالخارج، فشمس رام الله هذا الصباح مع بن وتبغ تصير مغرية بالاسترخاء والدردشة.

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا، وأطرفها كان حديث حسني عن وعكته، عن خثرة الدم التي تسللت في قلب الليل من عروق قلبه إلى رأسه، حين شعر بها انتفض سريعا من فراشه إلى الحمام، وجعل يحدثها في المرآة، ناورها بكل ما في روح الرسام من رشاقة، قاومها بكل ما في القلب من صمود، وصرخ فيها ألا تفعل فعلتها الآن، فبقايا الطلاء الخاثر مازالت تتقاطر من رأس الفرشاة، واللوحات التي يرسم ما زالت محتاجة إلى تعديلات في الخطوط والألوان، وبَتَلات الزهرات التي يسقي في الأصص لم تتحرر من سَبَلاتها بعد، لكن الخثرة اللعينة كانت مُصرَّةً أن تواصل طريقها إلى الدماغ، حين لم تتبق في الجوف صرخة واحدة؛ استحلفها بحق أبيه اليتيم في قافلة المهجرين التي انطلقت نحو العراق، بعد أن زارهم في المخيم وفدٌ ترأسه ملكةٌ عربية، فأقنعوهم بالرحيل إلى أجل قريب. في بغداد اشتغل أبو حسني سائق باص، يحصي الركاب والمسافات وأيام الأجل الموعود، إلى أن اكتشف في إحدى المرات أنه ينقل مجموعات عوائل وأفراد من بغداد إلى ميناء البصرة، عراقيين كانوا لكن لكنة همهماتهم كانت غريبة عليه، استبدت به الحيرة فسأل أحدَهم، وحين أجابه ماجت الأرض تحت قدميه، وهاجت خُثارة الدّم في قلبه، فرُكَّابُه في ذلك اليوم كانوا يهودا يجري ترحيلهم إلى الأرض التي هُجِّر هو منها. ومنذ ذلك اليوم صار أبو حسني يصرخ في المرآة: فلسطين لم تُسرق فحسب، لكنها بِيعَتْ أيضاً.

ما بدأ حديثا طريفا انتهى بدموع ثلاثة حول الطاولة، دموعٌ أفاضتها مرارة الخيانة في حكاية نقطة الدم التي رقدت في قلب الأب ذات صباح في العراق، واستيقظت بعد ستين سنة في دماغ الابن ذات ليلة في رام الله.

مشهد ٢٩/ دموع محررة

جففنا الدموع التي خانتنا، تجرعنا القهوة المرة، وحِرْنا كيف نلقي بعيدا بالحزن الثقيل وبالصمت الذي خلّفه، فلاذ كل واحد منا بهاتفه يتصفحه، لم نرفع رؤوسنا عنها إلا حين ضحكت خلود منا،

وعقبت: « الفيسبوك مثل الثلاجة الفارغة، بتكون عارف ومتأكد أنها فارغة، ولكن كل شوي بتفتح تشوفها».

انكسر الصمت وضحكنا ضحكَ المتورّطين المُقِرّين، لكني عاندتُ وحركتُ رأسي علامةً على مخالفة الرأي، وقتها كنتُ أتصفّح صفحة خلود الفيسبوكية، فقرأت على المسامع منشورا لها، يبرهن أن الثلاجة ليست فارغة على الدوام. كان المنشور الساخر في صورة معلومة:

سامعين بالخليفة المتوكل، كان في رحلة صيد لما رمى عصفورا فلم يصبه، فقال له الوزير: أحسنت ! وردًّ الخليفة: أتهزأ بي !؟ فأجاب الوزير، لقد أحسنتَ للعصفور يا مولاي، فكانت هذه أول تطبيلة في التاريخ الإسلامي، ومن يومها والتطبيل مستمر إلى يومنا هذا».

وقبل أن تخرج الضحكات المُرّة من قلوبنا، كنت أقرأ منشورها ثانيا لها:

خُضَرجِي الحارة باع لأمي كيلو التفاح بسعر أغلى من السوق، أمي ماتت وهي بتفكر أن الخاين الوحيد بها البلد هو خضرجي الحارة !

تعالت الضحكات وتداخلت، وقبل أن تتلاشى مَرارتها كنتُ أتابع قراءة منشور آخر، كان فيه برهانا جديدا على الثلاجة الملآى. تعريفٌ فلسفي خالص للحرية، يبدأ بسؤالك: هل يوجد في حياتك من تخبره الحقيقة كاملة؟ وينتهي بنتيجة: إن كان موجودا، فأنت شخص قويٌّ و حرّ .. حرٌّ بكل ما في الكلمة من معنى.

انصرف الحديث بنا بعدها إلى شؤون الحياة العامة، وسألتُ الأصدقاء، بالمناسبة، عن حال التعليم في فلسطين، فقال كل واحد منهم رأيه فيها، و ظلت خلود ساكنة، وحين استفسرتها عن رأيها، علقت ساخرة:

الأم مدرسة إذا أعددتها، أعددت شعبا، زي ما إنت شايف !

وما نيل المطالب بالتمنى، ولكن تؤخذ الدنيا، برضه زي ما انت شايف !!

ضحكنا من قلوبنا، وفي غمرة ضحكاتنا غافلتنا خلود، ومشت خارج المقهى تشد خفية على عيونها لتحرر منها الدموع التي حبستها حين بكينا نحن.

مشهد ٣٠/ رصاص حي وأشعار لا تموت

عدنا الى المعرض ليخيب ظنُّنا، فقد كان فضاؤه لايزال يغصُّ بجمهوره. انصرف كل واحد من الأصدقاء إلى شأن، واتجهتُ أنا نحو قاعة خصصت للندوات، عند مدخلها صادفتُ نوال، التي

عرفتني إلى نداء يونس، الإعلامية التي ستؤطر القراءات الشعرية المرتقبة يوم غد في بلدة عنبتا، وهو اللقاء الذي سأشارك فيه إلى جانب الشاعرين زهير الشايب وحسن مريم. رتبت مع نداء تفاصيل المشاركة، وأعلمتني هي بمكان التئام المجموعة، وساعة انطلاق الباص.

اكملنا متابعة الندوة، ثم قصدنا إلى المقهى الأدبي، خائضين في موضوع الإعلام ومعركته مع الاحتلال، وتجربة نداء فيه، دهشت من الأرقام التي كانت تسردها حول الموضوع، فمنذ سنة ٢٠٠٠ قتلت اسرائيل برصاصها الحي ٢٥ صحافياً، وأصابت ٤٨٦ آخرين، ونفذت أكثر من ٤٠٠ اعتقال واحتجاز لصحافيين، وترتفع حصة إسرائيل من الدم ومن سلب الحرية كلما أعطاها مناصروها في العالم ضوءا أخضر

سأنتبه في برهة تأمُّلٍ أن دهشتي ليست من الخبر وأرقامه، ففي الذاكرة أخبار وأرقام أفظع من هذا بعشرات الأضعاف، لكن الدهشة كانت من الانتباه لمراوغة الزمن واحتياله على وعينا، فكأن الإجرام الصهيوني منقولا في الأخبار وعبر شاشات التلفزيون بصورة يومية متواترة تجعل حواسنا متبلدة حِياله، حاجبة عنا فظاعاته، فنصير نرى ذلك الإجرام ونسمع عنه بالتقسيط ونحن منهمكون في لحظتنا الآنية، هكذا تغدو الحقائق الصادمة مع الوقت معلومات عابرة في لحظاتنا العابرة، فإذا أوقفنا صوت جرسٍ يُضْرَب أو صراخ حنجرة للانتباه؛ وَعَيْنا لحظتئذ هول الجملة.. إسرائيل تقتل كل سنة صحافيين اثنين على الأقل، وتصيب ثلاثين، ولا تقنع بأقل من خمسين محتجزا في زنازينها، بهذه الصيغة خرجت كلمات نداء سريعة، بنبرة تقرير يلسع السمع، ويكوي بالصوت الحيِّ الوعيَ الغافل المتشاغل.

شاع صمت لوقت قصير، ثم تحول بعده الحديث إلى شؤون الحياة، فتعرفت خلاله على نداء شاعرةً تغرد في المجاز كهزار حرّ، وتسحب حروف الأنوثة الغافية من شعرها، تلقي بها في بحيرة الليل الشعري، ثم تعبر برشاقةِ غزالةٍ جَذْلَى جسراً لامرئيا بين هَجْسٍ رفيفٍ كأنينِ الهواءِ يُمزِّقُه رصاصُ حيّ، وصراخٍ عاصفٍ تحبَلُ به غيماتٌ تُزهر فيها أشعارٌ لا تموت.

مشهد ٣١/»لأن كل الكبار كانوا ذات يوم أطفالا»

في قلب المعرض يمكنك إذا ما الجوع داهمك أن تصيب قسطا من الأكل عند صاحب كشك يبيع ساندويتشات الفلافل، وقد تجد نفسك تطلبُ أكثر من حصة واحدة، لتعالج الجوع الذي يزداد تهيجا مع كل فنجان قهوة يدعوك إليه بين حين وحين كل من يصادفك أو تصادفه. ازدردتُ حصتين دفعة واحدة، وبحثت عن مكان استرخاء .. وحين لم أجد واحدا تسللت إلى الخارج، وسرت في الأرجاء القريبة، علَّ المشي ونسيما رطباً يصرفان عني خمول الشبع، خلال ذلك وجدتني أنزل

نحو حرش قريب، هناك تحت ظل صغير لشجيرة يافعة افترشت سترتي، واستلقيت على ظهري، ناظرا فوق، إلى السقف الأزرق اللامحدود، حيث الغمامة الوحيدة المعلقة كانت تشبه الوسادة .. أغمضت عيني لثوان ولم أفتحهما إلا بعد نصف ساعة أو يزيد، على أصوات قريبة لأربعة فتية كانوا يتجولون في الحرش. تابعوني بنظراتهم المستغربة من رجل ينام في العراء، لعلهم حسبوني أول وهلة جثةً هامدة، وزاد توجسهم أكثر حين حييتهم بلكنة بدت غريبة لهم؛.. لحظتها فكرتُ لو أني مثلتُ دور جسم مقذوف إلى هنا من بلد بعيد، أو شبح من الأشباح التي تتجلى في النهار لكنت نجحت في الدور. ظل الفتية متسمرين في مكانهم، تأخذ الدهشة بألبابهم،،

معكم (عبود) المغربي .. من المغرب.

بدا الصغار وقد استأنسوا بالصوت الاستعراضي والابتسامة المتودِّدة، فانبسطت ملامح وجوههم. ثم اقتربتُ منهم أكثر، ومددتُ يدي أصافحهم واحداً واحداً.

كانوا تلاميذ ينتسبون إلى صف واحد، أعمارهم بين التاسعة والعاشرة، وصلوا إلى هنا سيراً، قادمين من قرية مجاورة، يريدون زيارة المعرض، أمطروني بأسئلتهم، وسألتهم سؤالا واحدا: ماذا يحلم كل واحد منهم أن يصير حين يكبر؟ فكان جوابهم موحَّداً، جوابٌ جفت بعده أسئلة كثيرة على لساني، فما نفع أي كلام آخر أمام أحلام أطفال تحت احتلالٍ يرفع الجدران، يدسّ الألغام، وينصب الأسلاك الشائكة. واصلت السير معهم حتى دخلنا المعرض، بين الأروقة تابعتُ بريقَ عيونهم وهي تتفحَّص الأرجاء، وتَهَيُّبَ أياديهم وهي تتصفَّح الكتب. وعند رواقٍ يعرض كتبا للأطفال لمحتُ كتابا أعرفه، سألتهم إن كانوا قد قرأوه أو سمعوا عنه، فكانت إجاباتهم بالنفي. اشتريتُ منه النسخَ الخمس التي كانت معروضة، وأهديتها كل واحد منهم نسخة، مستبقيا واحدة عندي.

(.....)

حلم الفتية كان أن يصيروا رحّالة يجوبون الآفاق،

واسم الكتاب كان الأمير الصغير، للرحالة الطيار أنطوان دو سانت أكزيبيري.

أما أسماؤهم التي سألتهم عنها قبل توديعهم فكانت: ياسر وغسان، وخليل ومروان.

مشهد ٣٢/ متعتان

قضيت الطائفة المتبقية من نهاري بين أرجاء المعرض، أبحث عمن أعرفهم ومن لا أعرفهم، فأما الذين أعرفهم فكأني كنت أجد في مطالعة دهشتهم من وجودي متعة بكرا غير مُجَرَّبة، لم أعرف

لها نظيرا سابقا في وجداني، أحقق بها يقينا ظل مذبذبا بين الدقائق والثواني .. متعة أكاد أسمع (محمودا) ينطق بها على لساني: نعم (أنا هنا, وأنا أنا، وهُنا هُنا, إني أنا، وأنا أنا, وهنا أنا، و أنا هنا, إني هنا، وأنا أنا..)، وأما الذين لا أعرفهم فكنت أجد في التعارف معهم متعتين، واحدة في البداية، حيث النفس متحررة من قيود اللياقة الباردة، ومن ذاك التوجس المسبق الذي يكون عادة في أول حديث الناس إلى الناس، فلا تلقي بالاً لردة الفعل الأولى حتى تلفيها قد جاءت على هواك في الاستقبال والتفاعل، ولا تجعل بينك وبين محدثيك فاصلا أو مسافة خلال ما يكون مبثوثا في أطراف الحديث من بوح حقيقي لا يحصل عادة إلا بين الخلص من الخلان الأوفياء، وتلك هي متعة الغريب القريب للغريب.

وثانية المتعتين ما كان يحصل بعد أن تنتهي المحادثات ويتفرق الجمع، فتعلق بالروح قطعةٌ جديدة طريفة يصير لها مع الأيام شأنٌ كشأن البذرة التي يتلقفها التراب من ريح عارضة، ثم لا تلبث طويلا حتى تطلع منها في غفلة من جوارها نبتةٌ فريدة لم تُر من قبل...

انتهى تطوافي في المعرض هذا المساء بغنائم صغيرة لكنها عندي ذات شأن، منها تميمة جالبة للحظ أهدتنيها امرأة ستينية بعدما أهديت لحفيدتها النسخة الخامسة التي تبقت عندي من كتاب الأمير الصغير. وصورة (سيلفي) مع ثلاثة شبان ذكر لي أحدهم أن أصول أجداده تعود إلى سلالة مغربية من فاس. وديوان شعر صغير ممهور بتوقيع صاحبته.

أوراق المؤسسة

تقرير عن عمل مؤسسة ياسر عرفات

مجلس الإدارة

عقد مجلس إدارة المؤسسة اجتماعات خلال الفترة الماضية في عمان (الاجتماع الاربعون في ٢٠١٨/٥/١٤ والاجتماع الحادي والأربعون في ٢٠١٨/٩/٢٧) وناقش سير العمل بالمؤسسة بما في ذلك المتحف إضافة لنشاطات المؤسسة خاصة المخيمات الصيفية ومسابقة المعرفة الوطنية ومجلة أوراق فلسطينية وجائزة ياسر عرفات للإنجاز لعام ٢٠١٨م.

الذكرى المئوية لميلاد الرئيس مانديلا

أحيت المؤسسة الذكرى المئوية للرئيس مانديلا في رام الله في ٢٠١٨/٧/١٩، بالتعاون مع سفارة جنوب افريقيا بالمسرح البلدي بحضور نوعي مميز. حيث تم إعداد فيلم وثائقي قصير عن مانديلا وعلاقته ومواقفه من فلسطين والرئيس عرفات، كما تم إقامة معرض صور "أبطال" اي صور مانديلا-عرفات، كما القت السيد انتصار الوزير عضو مجلس الإدارة كلمة المؤسسة، والقى سفير جنوب افريقيا كلمة بالمناسبة ، بينما كان مدير عام المؤسسة عريفا للحفل.

مخيمات ياسر عرفات الصيفية ٢٠١٨

خدمة للهدف الاستراتيجي للمؤسسة واستمرارا لقرار مجلس الإدارة بتنظيم مخيمات ياسر عرفات الصيفية كبرنامجا استراتيجيا للمؤسسة، نظمت مؤسسة ياسر عرفات هذا العام ١٠ مخيمات صيفية في مواقع مختلفة من الضفة الغربية كما ساهمت في مخيمين صيفيين في غزة في الفترة ما بين ٨-٢٠١٨/٧/٢٨. وقد استهدفت مؤسسة ياسر عرفات هذا العام ٩٧٥ شبل وزهرة مقسمة ما بين ٤٩٢ زهرة و٤٨٣ شبل في الضفة الغربية.

وتميز هذا العام بإضافة مخيم في القدس خصوصا في هذه المرحلة التي تتعرض لها المدينة من انتهاكات واضحة للقانون الدولي ومحاولة تهويد المدينة من خلال الاستعمار الاستيطاني. بالاضافة لذلك ساهمت المؤسسة في مخيمين صيفيين في غزة واحدة منها تستهدف ذوي الاحتياجات الخاصة. وبذلك تكون المؤسسة قد حققت هذا العام عدة انجازات منها التعاون مع مؤسسات محلية جديدة للشراكة في كافة المناطق الفلسطينية والابقاء على التعاون مع بعض المؤسسات التي تعاملنا معها في السنة الماضية وقد حققوا نجاحا نوعيا في مخيماتهم.

كما ساهمت المؤسسة في غزة بمخيمين صيفيين الأول مع جمعية الحق في الحياة لذوي متلازمة داون والتوحد وشارك في المخيم أكثر من ١٠٠ طفل من متلازمة داون والتوحد. وهذه تعتبر علامة مميزة في استهداف المؤسسة لكافة القطاعات ومنها ذوي الاحتياجات الخاصة. كما ساهمت في مخيم مع مؤسسة "البيت الصامد" في غزة.

المؤسسات الشريكة

بناء على ما ورد قامت المؤسسة بالشراكة مع بعض المؤسسات والنوادي المحلية التي سبق وتم التعاون بيننا وإضافة إلى عدد جديد من المؤسسات والمواقع التي لها خبرة بالمخيمات وكيفية التعامل مع الأطفال.

أما النوادي والمؤسسات الشريكة هي كالتالي:

- مركز يافا الثقافي – مخيم بلاطة – نابلس - تكرر
- المركز الثقافي لتنمية الطفل – طولكرم - تكرر
- مركزفنون الطفل الفلسطيني– الخليل - تكرر
- نادي الطفل الفلسطيني – كفر نعمة - تكرر
- مركز لاجيء – مخيم عايدة – بيت لحم – تكرر
- نادي شباب رام الله – رام الله
- جمعية فتيات مقدسيات – القدس
- اللجنة الشعبية – مخيم الأمعري

- جمعية كي لا ننسى – مخيم جنين – جنين
- جمعية أصدقاء الحرية والعدالة – بلعين

أما مساهمة المؤسسة في غزة كانت مع:

- جمعية الحق في الحياة لذوي متلازمة داون والتوحد
- مؤسسة البيت الصامد

تدريبات المنشطين/ات

كما نظمت المؤسسة دورات تدريبية لمدير/ة ومنشطي ومنشطات مخيمات ياسر عرفات الصيفية بعد عيد الفطر لنقاش الهدف العام والأهداف التفصيلية للمخيم وتوظيف نشاطات متنوعة كالدراما، والموسيقى، والفنون والرياضة والالعاب التربوية في تنمية المعرفة لدى الأطفال حول تاريخ وتراث ياسر عرفات بطريقة سلسة وبسيطة حتى يتمكن الاشبال والزهرات من تلقي المعلومة ونقلها إلى مجتمعاتهم الصغيرة في البيت والمدرسة والأصدقاء. وتم تطوير دليل تدريبي حول هذا المجال وتوزيعه على أدارة المخيمات.

وتم توزيع النماذج الإدارية والمالية بما ينسجم مع انظمة المؤسسة كقوائم الدوام اليومي، الحضور والغياب، استمارة تقييم، التقرير الإداري والتقرير المالي وبحث التفاصيل المتعلقة بالأنظمة والإجراءات التي يجب اتباعها لتفادي أي تاخير بالدفعات وإغلاق الملفات. ونظمت المؤسسة البرنامج التدريبي على النحو التالي:

- ٢٠١٨/٦/٢٦ تدريب في مركز يافا الثقافي – مخيم بلاطة – نابلس مستهدفا: مركز تنمية وثقافة الطفل – طولكرم، ومركة يافا الثقافي – مخيم بلاطة وجمعية كي لا ننسى – جنين.
- ٢٠١٨/٦/٢٧ تديب في نادي الطفل الفلسطيني – كفر نعمة مستهدفا: نادي الطفل الفلسطيني – كفر نعمة وجمعية أصدقاء الحرية والعدالة – بلعين.
- ٢٠١٨/٧/١ تدريب في مركز لاجئ – مخيم عايدة – بيت لحم مستهدفا: مركز فنون الطفل – الخليل ومركز لاجئ – بيت لحم.
- ٢٠١٨/٧/٢ تدريب في مؤسسة ياسر عرفات – رام الله مستهدفا: جمعية فتيات مقدسيات –

القدس واللجنة الشعبية – مخيم الأمعري ونادي شباب رام الله.

كما قامت المؤسسة بزيارات ميدانية للعشرة مخيمات من ضمنها حضور عدد من الحفلات الختامية للمخيمات وذلك لرؤية العمل على ارض الواقع وتقديرا للجهود التي قامت بها المؤسسات الشريكة في انجاح المخيمات وخلق صدى مجتمعي لها في المجتمعات المحلية وعلى مستوى فلسطين.

ونسقت المؤسسة مع المتحف لزيارة المخيمات من كافة مواقع الضفة الغربية وقام المتحف بترتيب الزيارة والجولات مع الادلاء بالاضافة لعرض فيلم الحصار من انتاج المؤسسة في قاعة المنتدى. وكالعادة تعتبر زيارة المتحف من أهم انشطة المخيمات الصيفية لانها تعزز كافة المعلومات التي تم ضخها للطفل في المخيم من خلال رؤية التجربة وعيشها صورة وصوتا وفيديو في ممرات المتحف المختلفة وتحديدا في قسم الحصار الذي يسرد أيام الحصار التي عاشها الرئيس ياسر عرفات ومرافقيه لمدة ٣٤ شهر في السنوات ما بين ٢٠٠١ – ٢٠٠٤.

وقد قام قسم الاعلام بالمؤسسة بفتح صفحة على فيس بوك لمدراء المخيمات الصيفية والمنشطين/ات كذلك المجتمع المحلي وأولياء الأمور من أجل تبادل الصور ونشر الفيديوهات المتعلقة بالمخيم بشكل يومي وتبادل الخبرات والافكار لما فيه فائدة للمخيم. واعتبر منبرا هاما ايضا للتواصل بين المؤسسة والمؤسسات الشريكة وايضا بين المؤسسات. وكان هناك تفاعل كبير على الصفحة من قبل المدراء والمنشطين/ات والأطفال وأهاليهم. كما تم ايضا التغطية الإعلامية في كافة الصحف المحلية وصفحة المؤسسة الالكترونية وصفحات التواصل الاجتماعي من فيس بوك وتويتر وغيرها بشكل متواصل.

مسابقة المعرفة الوطنية ٢٠١٨/٢٠١٧

قامت مؤسسة ياسر عرفات وبالشراكة مع وزارة التربية والتعليم العالي، بتنفيذ مسابقة في المعرفة الوطنية. تتمحور المسابقة في سنتها الأولى حول أهم الأحداث التي مرت بالقضية الفلسطينية خلال نحو مائة عام من الصراع. وتم اعتماد رواية متحف ياسر عرفات كمرجع اساسي بحيث يقوم الطلاب بزيارات ميدانية للمتحف لتسهيل فهم المعلومة وبقائها بالذاكرة. وتهدف المسابقة إلى زيادة الوعي بالتاريخ الفلسطيني المعاصر وتعزيز الثقافة والهوية الوطنية للأجيال الفلسطينية الصاعدة. وتجدر الاشارة أن الفئة المستهدفة هي الصفوف المدرسية التاسع والعاشر والحادي عشر (عمر: ١٥-١٧ سنة).

مراحل المسابقة

المرحلة الأولى:

اختيار ١٧٠ مدرسة من ١٧ مديرية ويمثل كل مدرسة ٣ طلاب وطالبات

تتأهل ١٧ مدرسة من بين ال ١٧٠ للمرحلة الثانية

المرحلة الثانية:

تجري التصفيات في هذه المرحلة في متحف ياسر عرفات – قاعة المنتدى

تتكون هذه المرحلة من ٧ حلقات بواقع ٣ مدارس كل الاسبوع

ونتيجة التصفية هي ٦ مدارس من الضفة الغربية

ويكون في الحلقة السابعة من هذه المرحلة التصفية النصف نهائية لثلاث مدارس

أما المدارس الستة التي وصلت هذه المرحلة هي:

- مدرسة بنات كفر نعمة – مديرية رام الله والبيرة
- مدرسة ذكور المجد الثانوية – مديرية جنوب الخليل
- مدرسة الشهيد يزن الثانوية للبنات – مديرية شمال الخليل
- مدرسة بنات الخنساء الثانوية – مديرية جنين
- مدرسة ذكور سلفيت الثانوية – مديرية سلفيت
- مدرسة عتيل الثانوية للبنين – مديرية طولكرم

وتأهلت مدرسة بنات كفر نعمة ومدرسة ذكور المجد الثانوية ومدرسة بنات الخنساء الثانوية للمسابقة النهائية في حفل نهائي يوم السبت الموافق ٢٠١٨/٤/٧ الساعة الخامسة مساء في مسرح الهلال الأحمر الفلسطيني – مدينة البيرة. وحضر الحفل معالي الوزير صبري صيدم، وزير التربية والتعليم العالي وطاقم الوزارة ود. ناصر القدوة، رئيس مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات وطاقم المؤسسة بالإضافة إلى عدد كبير من الطلاب والأهالي المشجعين. وبثت المسابقة النهائية على تلفزيون فلسطين القناة العامة مباشر.

وفازت بالمركز الاول، مدرسة ذكور المجد الثانوية من مديرية جنوب الخليل، وحصل المتسابقون

على لاب توب ومبلغ ٤٠٠$ لكل طالب وحصد المركز الثاني مدرسة بنات كفر نعمة من مديرية رام الله والبيرة وحصلت كل طالبة على اي باد ومبلغ ٣٠٠$ مصروف جيب. أما المركز الثالث والاخير فكان من نصيب مدرسة بنات الخنساء الثانوية من مديرية جنين وحصلت كل طالبة على تابلت ومبلغ ٢٠٠$ مصروف جيب.

يضاف إلى ذلك قامت وزارة التربية والتعليم بارسال الطلبة والطالبات المشاركين/ات في الحلقة الأخيرة إلى رحلة تعليمية إلى تركيا ضمن برنامج تبادل مع الوزارة.

المتحف

بعد مضي اقل من عامين على افتتاح متحف ياسر عرفات، اصبح مقصداً ثابتاً للزوار من كافة الأراضي الفلسطينية ومن كافة الفئات العمرية باعتباره الفضاء الوحيد الذي يعرض الرواية الفلسطينية وسيرة الرئيس عرفات، ولهذا اصبح المتحف رافداً رئيساً في تعزيز الذاكرة الجماعية للشعب الفلسطيني وهويته الوطنية.

لجنة المتحف

عقدت لجنة المتحف اجتماعاً واحداً خلال فترة التقرير، تم خلالها مناقشة تطور العمل في المتحف بالإضافة إلى برامج الأنشطة المستقبلية، خصوصاً فيما يتعلق بالمعارض المؤقتة حيث أقرت موضوع المعرض المؤقت الرابع تحت اسم "اقتلاع" بمناسبة مرور ٧٠ عاماً على نكبة واقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه.

قاعة المنتدى

- احتضنت قاعة المنتدى مجموعة من اللقاءات والندوات خلال هذا العام منها:
- لقاء مفتوح مع رئيس مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات الدكتور ناصر القدوة مع مجموعة من الشباب الفلسطيني في المهجر والذين يزورون فلسطين لأول مرة بتنظيم ورعاية المؤسسة المسيحية المسكونية للأراضي المقدسة.
- لقاء وزير الثقافة مع المشاركين في ملتقى فلسطين التربوي والذي ضم مشاركين من فلسطيني المهجر.

ندوة سياسية بالتعاون مع ملتقى فلسطين الثقافي حول "إسرائيل والدولة القومية للشعب اليهودي"

بمشاركة الأستاذ ايمن عودة والدكتورة هنيدة غانم بحضور عدد كبير من المثقفين والمهتمين.

لقاءين نظمتهما مؤسسة كونرد ادناور الألمانية لوفود من اكاديميين وصحفيين ومهتمين بالشأن الفلسطيني كانوا في زيارة لفلسطين.

قاعة المعارض

اختتم معرض ملصق الذي تم افتتاحه بداية هذا العام واستمر لستة شهور حيث لقي اهتماماً واسعاً على الصعيدين الإعلامي والجماهيري.

جرى افتتاح معرض اقتلاع بتاريخ ٠٨/٠٧ والذي نظم بمناسبة مرور ٧٠ عاماً على إحياء ذكرى النكبة، ويضم المعرض عملاً فنياً كبيراً من الإسمنت بحجم ١,٨٠x ٨,٤٠ يمثل لحظات مجمدة من النكبة فضلاً عن بيانات وخرائط حول اللجوء الفلسطيني، ودور الأونروا ومعطيات ونماذج من نتائج عمل لجنة التوفيق، كما يضم العرض فلم قصير عن معاناة اللاجئين الفلسطينيين في بداية اللجوء، وتعرض هذه المواد على خلفية من ٧٥٠ الف أيقونة تمثل عدد اللاجئين الذين هجروا من ديارهم، ويحظى هذا المعرض باهتمام خاص من حيث عدد الزوار والمهتمين.

الصيانة والتطوير

- تجري أعمال الصيانة والتحديث والتطوير في كافة مرافق فضاء ياسر عرفات بما في ذلك المتحف.
- تجري عملية ضبط درجات الحرارة ومستوى الرطوبة في كافة المرافق خصوصاً في منطقة الحصار إضافة إلى المعروضات، ويتم توثيق هذه العملية في سجلات منتظمة.
- تم حفظ كافة المقتنيات والهدايا في ورق خالي من الأحماض للحفاظ عليها وحمايتها من العوامل الخارجية.
- تم إقرار المرحلة الثانية من الزيارة الافتراضية، حيث تم تكليف الدكتور رمزي حسان للقيام بهذه المهمة بحيث يتمكن الزوار الذين لا يستطيعوا زيارة المتحف من القيام بزيارة افتراضية تفاعلية تمكنهم من الاستماع والمشاهدة وقراءة المواد المعروضة في العرض الدائم للمتحف.

الزوار

حافظ المتحف على موقعة كمقصد للزوار الفلسطينيين والأجانب بالإضافة إلى الوفود الرسمية والشخصيات الهامة، والمعطيات التالية توضح اهم المؤشرات حول طبيعة وتركيبة الزوار وأعدادهم:

- بلغ عدد زوار المتحف منذ بداية العام ٢٠١٨ حتى نهاية شهر أب/ أغسطس ٢٥,٦٧٤ زائراً بمتوسط شهري بلغ ٣٢١٠ زائر ومعدل يومي ١٢٥ زائر.
- يشكل عدد الزوار الفلسطينيين بما في ذلك فلسطينيي الداخل ٦١٪ من الزوار، فيما يشكل الأجانب ٣٩٪ من مجموعة الزوار حيث بلغ عدد الزوار الفلسطينيين ١٥٦٦٢ والزوار الأجانب ١٠٠١٢ زائر.
- يشكل الطلاب نسبة ١٥٪ من العدد الكلي للزوار، و ٢٥٪ من الزوار الفلسطينيين.
- احتلت مدن رام الله والخليل وجنين وطولكرم وبيت لحم المراكز الخمس الأولى من حيث عدد الزوار المحليين، فيما احتل الزوار القادمين من أمريكا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا المراكز الخمس الأولى من الزوار الأجانب، مع العلم بان زوار المتحف كانوا اكثر من ٧٠ جنسية مختلفة.

تركيبة الزوار

يقسم زوار المتحف إلى أربعة أقسام وهي (مجموعات، وزيارات عائلية، وأفراد، وشخصيات رسمية) وقد زار المتحف حسب هذه التقسيمات:

- مجموعات ٢٥٨ مجموعة مكونة من اكثر من ٢٥ شخص.
- عائلات ١٢٧٩ عائلة.
- أفراد ٩٧٧٧ زائر.
- شخصيات رسمية: العديد من الوفود الرسمية والشخصيات الهامة منهم رئيس الوزراء الهندي و الرئيس البلغاري ووزير خارجية البرازيل وعشرات الوفود الرسمية وكبار الشخصيات.